عبد الله بن الزبير

تأليف
الدكتور علي حسني الخربوطلي

مقدمة

هذه هى أول دراسة تاريخية لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ، هو عبد الله بن الزبير . تلك الشخصية الكبيرة التى لم تنل بعد حقها من المؤرخين والباحثين . رغم أن ابن الزبير قد قام بالدور الرئيسى فى تاريخ الدولة العربية الاسلامية منذ عهد عثمان بن عفان الى أن قتل فى سنة ٧٣ هـ فى عهد الخليفة الأموى عبـــد الملك ابن مروان . وقد تولى ابن الزبير الخلافة سنة ٦٤ هـ ودانت له جميع ولايات الدولة الاسلامية بالطاعة والولاء ، عدا رقعة صغيرة من الأرض ، هى اقليم الأردن الذى ظل مواليا للبيت الأموى . ويجمع المؤرخون — عربا وغير عرب — على أن ابن الزبير يُعتبر من أبرز شخصيات صدر الاسلام . فيذكر المؤرخ (كاترمير) أنه لم يكن من بين العــرب المتطلعين الى الخــلافة فى القرن الأول الهجرى ، باستثناء على بن أبى طالب ، رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .

وسيرة عبد الله بن الزبير تثبت عظمته وما بلغه من مجد . فقد وُلد بعد عشرين شهرا من الهجرة ، وكان أول طفل ولد فى المدينة فى الاسلام ، وأبدى الرسول وصحابته والمسلمون فرحهم لمولده فكبّروا وهللّوا ، فقد زعم اليهود أنهم سحروا المسلمين فلا يولد

لهم ولد . ونشأ ابن الزبير فى بيت الرسول ، فكان ربيبا لخالته عائشة حتى انها كانت تكنى بأم عبد الله . أما أبو عبد الله فهو الزبير بن العوام حوارى الرسول ، وابن عمته ، ومن صحابة الرسول المبشرين بالجنة . أما أمه ، فهى أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ذات النطاقين ، وكان لها دورها يوم هجرة الرسول وأبى بكر الى المدينة .

بدت نجابة عبد الله بن الزبير منذ حداثته ، فكان موضع تقدير الخليفة عمر بن الخطاب ، حتى اذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، اشترك فى الفتوحات الاسلامية ، فخاض مع أبيه موقعة اليرموك وفتح مصر ، واشترك فى فتح اصطخر ، وفى تدوين القرآن الكريم . كما تولى قيادة الجيوش الاسلامية التى فتحت شمال افريقية فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ولما حاصر الثوار دار الخليفة عثمان بن عفان ، دافع عبد الله ابن الزبير عنه ، وقاتل الثوار وأصيب بعدة جراح . حتى اذا شعر عثمان بخطورة الموقف وطلب ممن كان فى داره الانصراف ، كان ابن الزبير آخر من غادر الدار ، ووثق عثمان فيه فعهد اليه بوصيته ، ويصف المؤرخون ابن الزبير بأنه كان أمير دار عثمان يوم الدار .

ونشب صراع سياسى بين الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وبين الخليفة على بن أبى طالب . وانضمت أم المؤمنين عائشة الى الزبير وطلحة . وقام عبد الله بن الزبير بدور كبير فى حرب الجمل ، وعهدت عائشة الى ربيبها أن يصلى بالمسلمين ، فصلى وراءه

شيوخ قريش . وبعد معركة صفين ، بين على ومعاوية ، اشترك ابن الزبير فى التحكيم .

أعلن عبد الله بن الزبير معارضته لتولى البيت الأموى الخلافة فى سنة ٤٠ هـ ، وعاب على معاوية صبغة الدولة الأموية بصبغة دنيوية . ولما طلب معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، أبدى ابن الزبير سخطه على تحويل الخلافة من نظام الشورى والانتخاب الى النظام الملكى الوراثى ، وتزعم حزب أبناء الصحابة المعارض ، كما تزعم حركة المعارضة فى بلاد الحجاز .

حتى اذا تولى يزيد بن معاوية الخلافة ، أعلن ابن الزبير الثوره ، ودعا الى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين . ووجّه يزيد بن معاوية جيوشه لقتال ابن الزبير ، فحاصرت مكة ، ولاذ ابن الزبير بالكعبة وسمّى نفسه (العائذ بالبيت) . وتوالت النجدات من كل مكان على عبد الله بن الزبير ، فقدم الخوارج الأزارقة وقدم المختار وكثير من أهل الأمصار الاسلامية ، بل بعث نجاشى الحبشة جندا لصد هجوم الجيش الأموى . ومات يزيد ابن معاوية خلال حصار الكعبة ، وأعلن القائد الأموى ولاءه لابن الزبير ، وعرض عليه أن يخرج معه الى الشام ليبايعوه هناك بالخلافة . ولكن ابن الزبير رفض ما عرضه عليه ، فقد كان يرى أن تكون بلاد الحجاز حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، كما كانت فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان .

وبعد وفاة يزيد ، أعلنت جميع ولايات الدولة العربية الاسلامية ولاءها لخليفة الحجاز عبد الله بن الزبير ، عدا اقليم الأردن

الصغير ، وأفل نجم الخلافة الأموية فترة . وأدرك البيت الأموى خطورة الموقف ، فوحّد الأمويون صفوفهم وبايعوا لمروان ابن الحكم بالخلافة ، وكان مروان حينئذ يفكر فى البيعة لابن الزبير .

وبدأ صراع عنيف بين مروان خليفة الشام الأموى وبين عبد الله ابن الزبير خليفة الحجاز الثائر الذى خضعت له جميع ولايات الدولة العربية الاسلامية . ونجح مروان فى انتزاع مصر من أيدى الزبيريين ، ولكن ابن الزبير استمر يسيطر على معظم الولايات الاسلامية . وتولى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أمر مناهضة ابن الزبير ، فنجح فى الاستيلاء على بلاد العراق ، ثم وجه قائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفى الى بلاد الحجاز للقضاء على خلافة ابن الزبير .

وتقدم الحجاج الى مكة ، فحاصر ابن الزبير فى الكعبة ، ووقفت أسماء بنت أبى بكر الى جانب ولدها تثير حماسته وتحثه على الصبر ، فاستمر يقاتل حتى لقى حتفه بعد أن ضرب مثلا أعلى للبطولة والتمسك بالمبادىء . وكانت نهاية حياته نهاية عصر زاهر شهدته بلاد الحجاز ، فقد كانت الحجاز طوال خلافة ابن الزبير قلب الدولة الاسلامية الناهض .

أثر عبد الله بن الزبير فى مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية طوال خلافته ، واستمر هذا التأثير فى تاريخ الدولة الأموية بعد مصرعه . كما أثر ابن الزبير فى تاريخ

جميع الأحزاب والفرق الاسلامية ، وخاصة أحزاب الشيعة ، وبنى هاشم ، وأبناء الصحابة ، وبنى أمية ، والخوارج ، والمرجئة ، والتوابين . كما أثر فى الحياة الأدبية فى صدر الدولة الأموية ، واقترن اسمه بالشاعر الزبيرى ابن قيس الرقيات .

هذه هى ملامح عامة لسيرة بطل عربى ، يجدها القارىء مفصلة فى أبواب الكتاب . أرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت اليه ، والله المستعان .

المؤلف

١ـ فجر حياة عبد الله بن الزبير

الأب والأم

مولد ابن الزبير ونشأته

اشتراك ابن الزبير في فتح شمال إفريقية

ابن الزبير: صفاته وأسرته

الأب والأم :

أما الأب ، فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسـد بن عبد العزى بن قصى . وأم الزبير هى صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول التى أسلمت وهاجرت الى المدينة وكانت من السابقات الى الاسلام . وكانت السيدة خديجة زوج الرسول عمة الزبير . وتزوج الزبير من أسماء بنت أبى بكر الصدّيق ؛ وهى أخت عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم [1] .

ولد الزبير وعلى بن أبى طالب فى عام واحد ؛ كما أسلما فى عام واحد ؛ وكانا حينئذ فى الثانية عشر من عمرهما ؛ وكان اسلامهما بعد اسلام أبى بكر بقليل [2] ؛ وقد هاجر الزبير الى الحبشة حين اشتد ايذاء قريش للمسلمين ؛ وهاجر الى المدينة وهو ابن ثمان وعشرين [3] . وجاهد فى سبيل الله ونصرة الاسلام ؛ فكان أول من سلّ سيفا فى سبيل الله ، وشهد مواقع الرسول [4] . وبذل فيها جهودا كبيرة ، مما جعـله موضع تقدير الرسـول

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥٦ .
(٣) ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٣ ص ٥
(٤) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥٧ .

وتكريمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ان لكل نبى حواريا ، وان حوارىّ الزبير »[1] . وكان الزبير يفتخر بهذا التقدير فكان يقول : « دعا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولولدى ولولد ولدى » . والزبير هو أحد العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنـــة .

وفى عهد الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، اشترك الزبير فى حركات الفتح العربى الاسلامى ، فكان فى مقدمة القواد الذين فتحوا بلاد الشام ، وأصبح بطلا من أبطال واقعة اليرموك فى الشام ، حتى أنهم كانوا يعتبرون سيف الزبير فى هذه الموقعة بثلاثة آلاف . كما قاد الزبير أحد الجيوش التى أمدّ بها عمر بن الخطاب وقائده عمرو بن العاص لفتح مصر ، وكان له فضل كبير فى فتح حصن بابليون الذى لاذ الروم به . وحينما طعن عمر بن الخطاب وشعر بقرب منيته اختار ستة من صحابة الرسول ورشحهم للخلافة ، وكان من بينهم الزبير .

أما الأم ، فهى أسماء بنت أبى بكر الصديق . وقد قامت بدور كبير يوم هجرة الرسول وأبى بكر من مكة الى المدينة . روت عائشة : كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، اما بكرة واما عشية ، حتى اذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى

---

(١) اختلفت المفسرون فى تفسير كلمة حوارى : فقال بعضهم (الناصر) وقال الآخرون (الخليل) وقال فريق ثالث (الخالص من كل شىء) . ــ أنظر طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٧٣ .

الهجرة والخروج من مكة ؛ أتانا بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : انه لم يأت فى هذه الساعة الا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له عن سريره ، فجلس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبى بكر الا أنا وأختى أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرج عنى من عندك . فقال : يا رسول الله انما هما ابنتاى ، وما ذاك ، فداك أبى وأمى ؟ . فقال : ان الله قد أذن فى الخروج والهجرة .

علم القرشيون بهجرة محمد وأبى بكر فثارت ثائرتهم ، وخرج أبو جهل من فوره الى بيت أبى بكر ، وطرق الباب طرقات شديدة سريعة ، وهرعت أسماء تفتح الباب ، وصاح أبو جهل فيها : أين أبوك ؟ فقالت : لا أدرى والله . فرفع يده ولطم وجهها لطمة شديدة أطاحت قرطها ، وغادرها ليبحث عن الرسول ورفيقه .

تحدثت أسماء بنت أبى بكر عن يوم هجرة الرسول وأبى بكر فقالت : لما خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . فدخل علينا جدّى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا . فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوّة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبى ، ضَعْ يدك على هذا المال . فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ولا والله

ما ترك لنا شيئا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك [1] .
وكانت أسماء تحمل الى الرسول والى أبيها الطعام والزاد خلال وجودهما فى غار جبل ثور .

مولد ابن الزبير ونشأته :

ولد عبد الله بن الزبير فى المدينة فى اليوم الثانى من شهر شعبان بعد عشرين شهرا من الهجرة (فبراير ٦٢٢ م) ، فكان بذلك أول طفل وُلد فى المدينة فى الاسلام ، كما كان أكبر أولاد الزبير .

ولما ولد عبد الله ، حملته أمه أسماء بنت أبى بكر الى الرسول « فحنكه بتمرة ؛ فكان أول من دخل فى جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكبّر الصحابة والمسلمون بمولده استكبارا . وكان مولده بقباء وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله » [2] .

أما عن فرح الرسول وتكبير الصحابة فيرجع الى أن « اليهود كانوا يقولون : سحرناهم فلا يولد لهم ولد » [3] . وكان سرور الرسول بمولد عبد الله عظيما حتى أنه قال لأمه أسماء بنت أبى بكر : « أرضعيه ولو بماء عينيك » [4] . وكان عبد الله من السابقين الى الاسلام ، فقد بايع النبى وهو ابن ثمان سنين .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٨ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٣٩٧ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٨٢ .
(٤) ابن ظفر الصقلى : أنباء نجباء الأبناء ص ٨٥ .

وكان عبد الله ربيب عائشة زوجة الرسول ، فكانت تكنى بأم عبد الله [١] .

وكان عبد الله ، وهو ما زال حدثا صغيرا ، يميل الى الامارة والزعامة ، فقد كان يلعب يوما مع الصبيان « فمر به رجل ، فصاح عليهم ففروا ، ومشى ابن الزبير القهقرى ، وقال : يا صبيان اجعلونى أميركم وشدوا بنا عليه . ففعلوا » [٢] .

وتنبأ الخليفة عمر بن الخطاب لعبد الله بن الزبير بمستقبل عظيم . فقد مر عمر بعبد الله وهو يلعب مع رفاقه من الصبيان ، وأسرع الصبيان يلوذون بالفرار ، لما كان عمر عليه من هيبة ووقار ، أما عبد الله فقد لزم مكانه ، فقال عمر له : مالك لم تفر معهم ؟ فقال عبد الله : لم أجرم فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقة فأوسع لك » [٣] .

اشترك عبد الله مع أبيه الزبير فى فتح بلاد الشام ، فشهد موقعة اليرموك (سنة ١٤ هـ = ٦٣٥ م) وكان وقتئذ فى الرابعة عشرة من عمره . كما صاحب أباه فى فتح مصر فى عهد عمر . كما اشترك فى تدوين القرآن الكريم .

اشتراك ابن الزبير فى فتح شمال افريقية :

قام عمرو بن العاص بفتح مصر فى عهد الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب . وقد اشترك الزبير بن العوام فى عمليات الفتح وأبلى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٩١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٠ .
(٣) المصدر السابق .

بلاء حسناً . وقد أمّن عمرو حدود مصر الغربية ففتح اقليم برقة سنة ٢١ هـ ثم فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ .

وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة عزل عمرو بن العاص وولّى عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٧ هـ ، ورأى سعد أن يتابع سياسة الفتح ، فيفتح بلاد افريقية ، وأذن عثمان له بذلك بعد أن استشار كبار الصحابة . وبعث عثمان له جيشاً من المدينة يقوده بعض صحابة الرسول . ولكن أخبار هذا الجيش انقطعت عن عثمان ، فبعث عثمان عبد الله بن الزبير فى جماعة من المسلمين لموافاته بأخبار ذلك الجيش .

وقف عبد الله بن الزبير على أخبار الجيش ، وأبدى عدم رضائه عن الخطة التى اتبعها الوالى عبد الله بن سعد فى الفتح ، فقد كان يقاتل الأعداء من الصباح الى وقت الظهر ، ثم يعود كل جيش الى معسكره .

وبدت مهارة ابن الزبير العسكرية ، فقد انتقد هذه الخطة العربية التى تتيح للعدو فرصة للراحة والاستعداد . وعرض على ابن سعد خطة عملية أخرى ، فنصحه بتقسيم الجيش الاسلامى الى فرقتين ،تحارب فرقة العدو فىأول النهار بينما تستريح الفرقة الأخرى وتستعد للقتال فى نصف اليوم الآخر حينما يعود العدو الى معسكره .

ترك الوالى عبد الله بن سعد قيادة الجيش لعبد الله بن الزبير ، وأعلن موافقته على خطته الحربية . حتى اذا جاء الموعد الذى

كان ينصرف الجيشان فيه الى معسكريهما ، بادرت الفرقة الاسلامية الثانية للهجوم على معسكر العدو ، فباغتتهم واجتاحت خيامهم ، وهزمتهم هزيمة ساحقة ، وقتلت ملكهم جرجير ، وحازت غنائما كثيرة حتى أن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

تحقق النصر على أيدى عبد الله بن الزبير ، وعاد الى المدينة يحمل نبأ النصر وغنائم الفتح ، وأعلن عثمان والمسلمون فرحهم واستبشارهم ، وطلب عثمان من ابن الزبير أن يخطب الناس فقال ابن الزبير : « يا أمير المؤمنين ، انى أهيب لك منى لهم » . فخطب عثمان فى المسلمين فقال : « أيها الناس ، ان الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها ان شاء الله » ، فقام ابن الزبير يروى قصة انتصار المسلمين [١] .

حرص عبد الله بن الزبير على أن يشترك فى مهام أمور الدولة العربية الاسلامية ، فقد اشترك فى مطلع خلافة عثمان بن عفان فى تدوين القرآن الكريم [٢] . كما اشترك فى الجيوش الاسلامية التى فتحت اصطخر [٣] .

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٣ ص ١٦٢ ، ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٣ ص ٧١ .

(٢) Quatremer : Memoire His. Sur La Vie d'Abd-Allah ben Zobeir, p 293.

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٤ .

ابن الزبير : صفاته وأسرته :

جمع ابن الزبير بين كثير من الصفات والسجايا الحميدة . أبرزها التقوى والورع . فقد أجمع المؤرخون على ميل ابن الزبير الى تقوى الله ، والتمسك بتعاليم الدين الاسلامى ، والمثل العليا الأخلاقية ، فكان صواما قواما ، وسمى نفسه المستجير بالرب والعائذِ بالبيت ، فكان يمضى يومه الى جانب الكعبة ، يطوف ويتبرك بها ، ويؤدى صلواته الخمس ومن ورائه أنصاره . وقد وصفه عدوه اللدود عبد الملك بن مروان بأنه « طويل الصلاة ، كثير الصيام » .

واتصف ابن الزبير بالشجاعة والبسالة ، فقد قضى معظم أيامه فى ميادين القتال . فقد اشترك فى الفتوحات الاسلامية وهو فى الرابعة عشر من عمره ، فاشترك فى فتوح الشام ومصر واصطخر وشمال افريقية فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ كما اشترك فى غزو القسطنطينية فى عهد معاوية . وقضى بقية حياته يقاتل الخلفاء الأمويين ، فقاتل جيوش يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان . وحاصرته الجيوش الأموية مرتين فى مكة ؛ فحاصره الحصين بن نمير فى عهد يزيد بن معاوية ، وحاصره الحجاج ابن يوسف الثقفى فى عهد عبد الملك بن مروان ؛ وظل يقاتل حتى لقى حتفه وأبى الاستسلام .

واشتهر ابن الزبير بالبلاغة والفصاحة ، فكان خطيبا مفوّها ، يصل الى قلوب سامعيه ، فيقنعهم ويكسب تأييدهم ، ويخاطب

عقولهم وعواطفهم . كما كان شاعرا مجيدا فكان يصوغ كثيرا من كتبه ورسائله شعرا رصينا .

وكان ابن الزبير صريحا ، لا يحب المداراة أو المكر أو الخداع ، وهى من مقتضيات السياسة أحيانا . حتى أن بعض معاصريه عابوا عليه هذه الصراحة فى القول ، كما انتقده بعض المؤرخين أيضا . وتميز ابن الزبير بالزهد ، فمال الى البساطة والتقشف ، وكان يبالغ فى زهده الى درجة اعتبرها معاصروه شحا وتقتيرا .

علمنا فضل الزبير بن العوام ، أبى عبد الله ، وأسماء بنت أبى بكر ، أمه . أما خالته أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهى غنيّة عن التعريف . وقد أسبغت عطفها وحنانها على عبد الله بن الزبير ، فكان ربيبها ، ونشأ فى دارها ، وأصبح موضع رعايتها واهتمامها ، حتى أصبحت تكنى بأم عبد الله . وعملت عائشة على أن يقوم عبد الله بدور كبير فى مجريات السياسة والأحداث ، حتى أنها عهدت له بالصلاة بشيوخ قريش يوم حرب الجمل ، فصلى خلفه أبوه الزبير وحليفه طلحة ابن عبيد الله ومروان بن الحكم وغيرهم .

كان مصعب بن الزبير أبرز اخوة عبد الله ، فكان الرجل الثانى فى الحركة الزبيرية ، وقد ارتفع ذكره فى بلاد العراق ، فتولى حكمها طوال فترة خلافة عبد الله بن الزبير ، وأخلص لأخيه كل الاخلاص ، ودافع عن مصالحه السياسية حتى لقى حتفه فى سبيلها . وقد حاول عبد الملك بن مروان ، خليفة الشام الأموى ، أن يستميل

مصعبا اليه فيحثه على خيانة أخيه ، وكانت بينهما صداقة ومودة قديمة ، ولكن مصعبا تمسك باخلاصه وولائه الى النهاية .

ومن اخوة عبد الله بن الزبير ، عـروة بن الزبير الذى كان عضد عبد الله فى بلاد الحجاز ، بينما كان مصعب عضده فى بلاد العراق . وقد استمر عروة يقاتل جيش الشام الى جانب أخيـه ، حتى اذا شعر بقرب منيّته ، دفعته عاطفة الأخوة الى الخروج الى الحجاج بن يوسف يلتمس منه الأمان لأخيه ، ولكن عبد الله أصرّ على المضى فى القتال حتى لقى حتفه .

وكان لعبد الله بن الزبير أخ عاق ، وهو عمرو بن الزبير ، الذى ناصب أخاه العداء ، وأعلن ولاءه للخليفة يزيد بن معاوية ، وقبل أن يقود جيشا لقتال أخيه عبد الله ، ولكنه دفع ثمن غدره ، فقد قبض عليه عبد الله وألقى به فى السجن .

وأشهر أولاد عبد الله بن الزبير حمزة الذى تولى حكم بلاد العراق فترة ، وخبيب ، والزبير . وكان الزبير أكثرهم شـجاعة واستبسالا ، فقد وقف يدفع عن أبيه هجوم جند الشام وشاركه فى مصيره المؤلم .

٢ - دفاع ابن الزبير عن عثمان بن عفان

ترشيح الزبير للخلافة بعد مصرع عمر

حزب زبيرى فى الكوفة

ابن الزبير يذود عن عثمان

دفاع ابن الزبير عن عثمان بن عفان

ترشيح الزبير للخلافة بعد مصرع عمر :

كان اختيار أبى بكر بطريقة الانتخاب ، فان النبى لم يعيّن من يخلفه . وكادت هــذه الطــريقة أن توجد الانقسام بين صفوف المسلمين ؛ مما جعــل أبا بكر يبعــد تفكيره عن طريقة الانتخاب ويلجأ الى طريقة التعيين ، فرشح عمــر بن الخطاب خليفة للمسلمين من بعده .

أما عمر فقد لجأ الى طريقتى الانتخاب والتعيين معا : فهو يعيّن ستة من صحابة رسول الله الذين توفى وهو عنهم راض ؛ وفى نفس الوقت يفسح المجال للمسلمين ليختاروا واحدا منهم وهؤلاء الستة هم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد ابن أبى وقاص ، والزبير بن العــوام ، وطلحة بن عبيــد الله ؛ وعبد الرحمن بن عوف .

وضع عمر أسس الشــورى ، فقرر أن يجتمع المرشــحون للخلافة ثلاثة أيام يتشاورون فى أمرهم ؛ ويصلى بالناس فى هذه الأثناء عبد رومانى يدعى (صهيب) . ولابد أن يختاروا خليفتهم فى اليوم الرابع ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا دون أن يشمله الاختيار ؛ واذا أجمع خمسة منهم أو أربعة على انتخاب أحدهم ،

وخالفهم فيه رجلَ أو اثنان ، قتلَ المعارضون . أما اذا وقف ثلاثة في جانب شخص ؛ ووقف الثلاثة الآخرون في جانب آخر ، كان رأى عبد الله بن عمر مرجحا . فان لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر ؛ اختاروا رأى الفريق الذى فيه عبد الرحمن بن عوف .

كانت هذه الخطة تدل على الديموقراطية الحقيقية ، فهو لم يدخل ابنه عبد الله ، رغم احترام المسلمين له ، بين المرشحين للخلافة ، وقال : حسب بنى الخطاب أن يتولى الخلافة واحد منهم فهو لم يشأ تطبيق النظام الملكى الوراثى الذى كان متبعا فى الدولتين الفارسية والرومانية .

حدّد عمر الاختيار فى ستة من الصحابة ؛ ولكنه كان يرى أن الذى يلى الخلافة بعده واحد من اثنين : على بن أبى طالب أو عثمان بن عفان . ورغم تأكده من ذلك ، لم يشأ حصرها فى هذا النطاق الضيّق ، فقد كان هناك بعض صحابة النبى الذين لهم فى نفوس الناس محبة واحترام ؛ كما كان يلتف حولهم كثير من المؤيدين ؛ فخاف أن يحصر الاختيار فى علىّ وعثمان ، حتى لا يخرج عن طاعة الخليفة أحد الأربعة الآخرين ، وحتى لا يؤدى ذلك الى انقسام كلمة المسلمين ، ولذا رأى أن يشركهم فى الشورى ليقطع عليهم خط الرجعة ، وليضمن وفاءهم للخليفة الجديد .

كان طلحة غائبا عن المدينة ، وانحصر الأمر بين هؤلاء الخمسة من رجال الشورى ، واشتد التنافس بينهم ، فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن تكون الخلافة له ؛ أو على الأقل لأحد من أقربائه أو ذوى عصبيته . وكان علىّ يعتقد منذ وفاة الرسول أنه

أحق المسلمين بالخلافة ، فهو ابن عم الرسول وصهره ، وأبلى بلاء حسنا فى سبيل الاسلام ، كما أنه يمثل البيت الهاشمى بيت الرسول أما عثمان فكان يأمل تولى الخلافة ، فهو أكبر المرشحين سنًّا ، وقد تزوج ابنتين من بنات الرسول ، وضحّى بثروته فى نصرة الاسلام ، كما كان يمثل البيت الأموى .

أما الزبير فقد كان يأمل أن يتولى الخلافة . ولكن لم تكد تبدأ الشورى ، حتى لاحظ أن الاختيار يدور حول علىّ وعثمان ، وأن الأنظار قد اتجهت الى هذين الصحابيين دون غيرهما ، فكان عليه أن يقف فى جانب أحدهما . وكان اختيار الزبير لعلى ابن أبى طالب بمثابة اعتراف منه بأحقية بنى هاشم بالخلافة دون غيرهم ، ولذا خشى أن تظل الخلافة محصورة فى آل على أو البيت الهاشمى ، مما يتعارض مع طموحه ومطامعه ، ويضيع عليه فرصة تولى الخلافة . ولذا مال الزبير الى تأييد ترشيح عثمان للخلافة ، فقد كان رجلا متقدما فى السن فى أواخر سنى حياته ، فالخلافة ان فاتت الزبير هذه المرة ، فقد يدركها فى المرة القادمة . كما كان عثمان سهلا ليّنا ، فلم يكن فى حزم أبى بكر وعمر .

ومال سعد بن أبى وقاص أيضا الى اختيار عثمان للخلافة ، وكان طلحة غائبا كما ذكرنا . أما عبد الرحمن بن عوف ، فكان صاحب رأى سديد قدّره عمر حق قدره ، فجعل لرأيه فى الشورى أهمية خاصة . ولذا كان عبد الرحمن هو رجل الشورى بحق . ورأى اشتداد المنافسة ، وأن الأيام الثلاثة التى حددها عمر قاربت على النهاية دون أن يصلوا الى اختيار الخليفة الجديد . فاقترح

عبد الرحمن أن يتنحى واحد منهم عن حقه فى الترشيح للخلافة على أن تكون له الكلمة الفاصـــلة ، فلم يجبه أحد . فأعلن أنه يخلع نفسه منها ، واستشار الصحابة وأمراء الأجنـــاد ، فكان بعضهم يشير باختيار على ، والبعض الآخر يشير باختيار عثمان . واختار الزبير وسعد عثمان . وانتهى أمر الشورى باختيار عثمان ؛ فقد قبل العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين أبى بكر وعمر بلا قيد أو شرط ، على حين قال علىّ أنه سيعمل بمبلغ علمه وطاقته .

كان انتصار عثمان على علىّ بن أبى طالب فى الواقع انتصارا للحزب الأموى على بنى هاشم ، وكان هذان الحزبان يتنازعان الرياسة منذ العصر الجاهلى ، ولكن الله عز وجل أعزّ بنى هاشم فجعل النبوة فيهم .

وهكذا كان هناك حزبان كبيران : الحزب الأموى بزعـــامة عثمان ، وحزب بنى هاشم بزعامة على بن أبى طالب . وبجانب هذين الحزبين الكبيرين ، كان هناك حزبان صغيران ناشئان هما حزب الزبير وكان يسانده أهل الكوفة ، وحزب طلحة وسنده أهل البصرة . ووقف حـــزبى طلحة والزبير من كفاح هذين الحزبين الكبيرين موقف المتفرج المتأمل . أما الزبير فلم يكن هواه مع أحد الحزبين ، فلم يكن يرى تأييد بنى هاشم فى كفاحهم لأن ذلك يؤدى حتما الى خلافة على بن أبى طالب دونه . كما كان يرى فى وجود الحزب الأموى منافسا لحزبه .

أهمل عثمان الزبير ، فلم يولّه حكم احدى الولايات الاسلامية ، وولى أقاربه المناصب الكبرى ، مما أثار غضب الزبير وصحابة الرسول . وشاركهم فى سخطهم أبناء الصحابة ، مثل عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، والحسن والحسين ابنى على ، ومحمد بن أبى بكر .

حزب زبيرى فى الكوفة :

فى عهد عثمان بن عفان خرج الزبير بن العوام الى الكوفة حيث نجح فى انشاء حزب زبيرى . وقد كان عمر بن الخطاب حكيما يقدر عواقب الأمور ، ولذا منع أعلام قريش من المهاجرين من الخروج الى الأمصار الا باذن منه والى أجل مسمى . ولكن عثمان سمح لهؤلاء الصحابة بالرحيل الى الأقطار المفتوحة ، حيث أنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ، ولحمتها السبق فى الاسلام وصحبة الرسول [1] . فقد التف الناس حولهم ، ملتمسين البركات من أصحاب الرسول ، طامعين فى هباتهم وأعطياتهم . ورحل الزبير الى الكوفة حيث حاز ثراء واسعا ، واستثمر أمواله ، وأغدق الصلات على أهل الكوفة ، فالتفوا حوله وتحزّبوا له ، وعملوا على دفعه الى تولى الخلافة .

وعاد انتشار الصحابة فى الأمصار عليهم بالثراء والرخاء ، فقد امتلكوا الضياع وشيدوا القصور فى الأمصار ، وسمح عثمان لهم باستبدال أملاكهم فى الحجاز بأملاك أخرى فى الأمصار . وليس

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٣٤٥ .

أدل على مقدار زيادة ثروتهم مما ذكره المسعودي (١) ، فقد روى أن الزبير « بنى داره بالبصرة .. وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية .. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار » . ولم يكن الزبير وحده الذى حاز الثراء والعقار ، بل شاركه فى هذا طلحة بن عبيد الله وبعض الصحابة .

ولكن هذا الثراء قد أدى الى حسد القبائل العربية لقريش ، وشعورها بالحرمان من كثير من الثمرات المادية التى كانت تتمتع بها قريش . ولما تولى سعيد بن العاص حكم العراق ، شعر بخطر هؤلاء الصحابة « فكتب الى عثمان بما انتهى اليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولانابتها . فكتب اليه عثمان : أما بعد ، ففضل أهل السابقة والقدمة من فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم..» (٢) .

ويرى المؤرخ (كريمر) (٣) أن العراق الذى اتخذته الأرستقراطية العربية موطنا لها طوال هذا العهد ، كان مركز تجمع لكل الاضطرابات والثورات التى قامت ضد بنى أمية . ويرى

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٦٣ .
(٣) كريمر : الحضارة الاسلامية ص ٣٤ .

المؤرخ (ميور) [1] أن الصراع كان بين قريش ونبلاء المسلمين من ناحية وبين القبائل من ناحية أخرى ، ويأخذ على عثمان أنه لم يستطع أن يحفظ التوازن بين الفريقين .

ووصف المؤرخ (الطبرى) [2] أحوال الكوفة فقال : « فكأنما كانت الكوفة يبسا شملته نار فانقطع الى ذلك الضرب ضربهم ، وفشت القالة والاذاعة » .

ابن الزبير يزود عن عثمان :

تكاتفت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية على اشتعال نيران الثورة فى قلوب أهل الأمصار ضد خلافة عثمان بن عفان . ثم جاء الدور الحاسم الذى انتهى بمقتل عثمان .

تراسل الثوار واتفقوا على الرحيل الى المدينة فى زمن واحد ، وهو وقت خروج الولاة والعمال الى المدينة فى زمن الحج . فلما اقترب هذا الموسم عام ٣٥ هـ ، خرجت وفود ثوار مصر والبصرة والكوفة من أمصارهم الى المدينة متظاهرين بالحج ، وبلغ عدد كل وفد ما بين ستمائة وألف ثائر [3] . واتفق الثوار جميعا على خلع عثمان ، ولكنهم اختلفوا فيمن يخلفه ، فكان ثوار مصر هواهم فى علىّ ، وكان ثوار البصرة يرغبون فى تولية طلحة ، بينما رغب ثوار الكوفة فى الزبير [4] .

---

(1) Muir: The Caliphate, p.225
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٦٣ .
(٣) الطبرى حـ ٥ ص ١٠٣ .
(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ١٦٩ .

وتقابل الثوار مع عثمان « فاستعتبوه فأعتبهم وأرضاهم »[1].
وكادت الأمور تنتهى الى سلام وخير ، لولا قصة الخطاب السرى الذى زعم المصريون أن عثمان أرسله الى عامل مصر يطلب فيه منه تعذيب وفد الثوار ، والذى وقع فى أيدى الثوار المصريين أثناء عودتهم الى مصر ؛ فعادوا ثانية الى المدينة ، حيث واجهوا عثمان به ؛ فنفى صدور الخطاب منه ؛ فطلبوا منه عـزل ولاته بالأمصار ؛ فرفض ذلك . فخيّروه بين عزل ولاته أو خلع نفسه أو قتله . فأبى أن يحقق لهم المطلبين الأولين . فلم يبق الا الحل الأخير ، وهو القتل ، فحاصروه أربعين يوما منعوا فيها عنه الماء والزاد ، ثم دخلوا عليه فقتلوه[2] .

لم يكن الزبير يستطيع أن يضع حدا لحماسة أهل الكوفة ؛ فقد كانت حماسة جارفة طاغية ؛ لا تنفع معها النصيحة أو تهدئة النفوس . ولكن الزبير لم يكن سلبيا ؛ فقد بعث ابنه عبد الله ابن الزبير ليدفع عن عثمان كيد الثـوار . وهو ما فعله عـلى ابن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله ؛ فقد أرسلا أولادهما ليزودوا عن عثمان . وكان من العسير على هؤلاء الصحابة الثـلاثة أن يواجهوا حماسة الثوار ؛ وقد ساء الموقف وزادت خطـورته ؛ ووصف عثمان نفسه سوء الأحوال فقال : « بلغ السيل الزبى »

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٤ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٤٢ .

وجاوز الحزام الطبيين » ، ووصف ابن كثير [1] الثورة ، فذكر أن الثوار كانوا « قريبا من ألفى مقاتل من الأبطال ، وربما لم يكن فى أهل المدينة هذه العدّة من المقاتلة ؛ لأن الناس كانوا فى الثغور وفى الأقاليم فى كل جهة » .

لم يرض الزبير أو طلحة أو على عن مقتل عثمان ، وان كانوا يرون أن يتنازل عثمان عن الخلافة . فيذكر المؤرخ ابن كثير [2] : « وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضى بقتله ، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضى بقتل عثمان رضى الله عنه ، بل كلهم كرهه ومقته وسب من فعله ، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر » .

اشترك عبد الله بن الزبير مع أبناء طلحة وعلى بن أبى طالب فى الدفاع عن عثمان ، وجاهدوا فى رد الثوار من داره ، وضربوا أمثلة للبطولة والاستبسال . وكان ابن الزبير موضع تقدير من عثمان ، فرأى أن يعهد اليه بوصيته . وفى ذلك يقول الطبرى [3] : « فكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير ، وأمره عثمان أن يصير الى أبيه فى وصيّته بما أراد ، وأمره أن يأتى أهل الدار فيأمرهم بالانصراف الى منازلهم ، فخرج عبد الله بن الزبير آخرهم . فمازال يدّعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه » .

وهكذا كان عبد الله بن الزبير آخر من غادر دار عثمان ، فقد

---

(1) البداية والنهاية حـ ٧ ص ١٩٨ .

(2) المرجع السابق .

(3) الطبرى حـ ٣ ص ٤٢ .

دافع عنه الى اللحظة الأخيرة ، ولم يخرج الى بيته الا بعد الحاح من عثمان ، وقد أراد أن يعهد اليه بوصيته ، ولم يشأ أن يشاركه مصيره المؤلم ؛ وخرج ابن الزبير الى داره يداوى جراحه .

واستفاد عبد الله بن الزبير من هذا الموقف ، وكان يفخر دائما به من فوق المنابر ؛ فقد خطب يوما على منبر مكة فقال : « والله لقد استخلفنى أمير المؤمنين عثمان على داره ، فلقد كنت أنا الذى أقاتل بهم ، ولقد كنت أخرج فى الكتيبة وأباشر القتال بنفسى ؛ فجرحت بضعة عشر جرحا وانى لأضع اليوم يدى على بعض تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خير أعمالى »(1) .

وظل عبد الله بن الزبير وفيّا لعثمان الى آخر حياته ، فأصر على تمجيد عثمان والاشادة بذكره ، رغم أن ابن الزبير لم يكن ينتمى الى البيت الأموى ، كما أنه قضى طوال حياته يناهض الدولة الأموية ويناصبها العداء ؛ وكان عثمان كما نعلم شيخ بنى أمية . بل ان ابن الزبير فقد صداقة الخوارج الأزارقة لتصميمه على امتداح عثمان ، مما أدى الى اثارة عداء الخوارج فشنوا عليه حربا شعواء قضت على نفوذه فى بلاد العراق .

---

(1) تاريخ ابن عساكر حـ ٧ ص ٤٠٢ .

٣ ـ دور ابن الزبير فى حرب الجمل

موقف عبد الله بن الزبير من خلافة على بن أبى طالب

طلائع حرب الجمل

ابن الزبير بطل حرب الجمل

موقف ابن الزبير من الصراع بين على ومعاوية

دور ابن الزبير فى حرب الجمل

موقف عبد الله بن الزبير من خلافة على بن أبى طالب :

ظهرت مشكلة الخلافة من جديد بعد مقتل عثمان . ومن البديهى أن يتطلع المسلمون الى أهل الشورى ؛ وقد أصبحوا بعد موت عبد الرحمن بن عوف ومقتل عثمان أربعة . ولكن سعد ابن أبى وقاص اعتزل الأمر وتجنب الفتنة ، فلم يبق اذا الا على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله .

واختلف الثوار فيما بينهم : فرغب أهل مصر فى علىّ ، ورغب أهل الكوفة فى الزبير ، بينما كان هوى أهل البصرة مع طلحة [1] . وكان كل فريق يختلف الى صاحبه يعرض عليه الخلافة ؛ فيمتنعون ويأبون ؛ فرأى الثوار أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس اماما ؛ وأنه لابد من أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك بترشيح أحد هؤلاء الثلاثة [2] . ولما رأى الثوار أن الغالبية العظمى تميل الى تولية علىّ ؛ عملوا على تحقيق رغبتهم بأسرع وقت حتى يعودوا الى أمصارهم .

ورأى ثوار الكوفة والبصرة أن يبايعوا لعلى بن أبى طالب

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ١٦٩ .

(٢) طه حسين : على وبنوه ص ٩ .

خضوعا لرأى غالبية المهاجرين والأنصار والثوار من جهـة ؛ ولشعورهم بأن عليا سوف يصل الى الخـلافة حتما من جهـة أخرى . فقد كان علىّ ذا شخصية قوية وسبق فى الاسلام ولقرابته من رسول الله ، فضلا عن أن اختيـــار الزبير يغضب البصرة ، وانتخاب طلحة لا يرضى الكوفة ، مما يؤدى الى انقسامهم ثم الى ضعفهم ، فرأوا أن فى اختيارهم لعلىّ تجنبا لهـذا الانقسام ؛ وتوحيدا لكلمتهم ، وارضاء لثوار مصر الراغبين فى علىّ ، وارضاء لأهل العراق الذين يتشيعون لعلىّ ، وخاصة أن عليّا يمثـل بنى هاشم أعدى أعداء بنى أمية الذين قتلوا بالأمس زعيمهم عثمان ابن عفان .

أقبل ثوار الكوفة والبصرة ، أنصـــار الزبير وطلحة بالأمس ؛ على علىّ بن أبى طالب يعرضون عليه الخلافة . وامتنع علىّ فى بداية الأمر ، ولكنهم ألحوا عليه وأرغموه على قبول البيعة . ثم رأى الثوار أن تكون بيعته عامة كبيعة من سبقه من الخلفاء ، فتوجهوا الى المهاجرين والأنصار ، فقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد أجلناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلنّ غدا عليّا وطلحة والزبير وأناسا كثيرا [1] . فأسرعوا الى البيعة لعلىّ بالخـلافة .

امتنع سـعد بن أبى وقاص ؛ وعبد الله بن عمر ، وطلحة ، والزبير ، عن البيعة لعلىّ فلم يهتم ثوار الكوفة والبصرة بسعد

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٦ .

أو ابن عمـــر ، فليس هناك فى الأمصار الاســلامية من يشايعهما أو يرشحهما للخلافة . أما طلحة والزبير فقد أرغموهما على البيعة . ثم قامت عامة الناس فبايعوا عليـًا بالخلافة [1] . وصور الطبرى [2] الموقف فقال : « وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبيهم — أى الزبير وطلحة — وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة ، وقد خشع أهل البصرة أن صاروا أتباعا لأهــل مصر وحشوة منهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظا » . وكان انتصار علىّ على طلحة والزبير ، هو أيضا انتصار لبنى هاشـم على بنى تميم وبنى أسد .

ثم بدأت مشكلة تعيين ولاة الأمصار ، فكان عـلى على ابن أبى طالب أن يعزل ولاة عثمان الذين كان ظلمهم وجورهم سببا فى قدوم الثــوار الى المدينــة ومقتل عثمان . وهنا تقدم المغيرة بن شعبة الى علىّ ينصحه بأن يثبت معاوية على الشام ، ويولى طلحة والزبير مصرى العراق ؛ حتى تستقر لعلىّ الأمور . ولكن عليـًا أبى ذلك وقال : ويحك ! ان العراقين بهما الرجال والأمـوال ومتى تملكا رقاب النــاس يستميلا السفيه بالطمع ويضربا الضعيف بالبلاء ويقويا على القوى بالسلطان ! [3] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ١٧٢ .

(٢) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٦ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسه حـ ١ ص ٦٢ .

طلائع حرب الجمل :

عزل على بن أبى طالب ولاة عثمان . وأدرك طلحة والزبير أن عليا أصبح فى حاجة الى ولاة جدد يبعث بهم الى الأمصار الاسلامية ، فقدما عليه وقالا له : هل تدرى على ما بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ! على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان . فقالا : لا ؛ ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر . قال على : لا ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون وعلى العجز والأولاد [1] .

رأى طلحة والزبير اصرار على بن أبى طالب على الاحتفاظ بسلطته كاملة ، فتقدما اليه بطلب آخر أهون شأنا . فطلب منه الزبير أن يوليه حكم الكوفة ليأتيه بجنود ، وطلب منه طلحة أن يوليه حكم البصرة ، ليجند له الجند « ليقوى بهم على شوكة الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم فى قتل عثمان رضى الله عنه » [2] .

وكان طلحة والزبير يريان فى توليتهما البصرة والكوفة خير ما يعوضهما عن ضياع آمالهما فى الوصول الى الخلافة . كما أن حكمهما لهذين القطرين يتيح لهما فرصة الابتعاد عن المدينة المنورة التى اضطربت أحوالها وسيطر الثوار على دفة سياستها . كما كانت بلاد العراق مورد المال والرجال ، فهناك يستطيعان تجنيد الأنصار ، وبث الدعاية لهما ؛ استعدادا لمعركة الخلافة القريبة

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ٤١ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٧ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

القادمة . ولعهما أرادا أن يحذوا حذو معاوية بن أبى سفيان الذى استطاع أن يثبت أقدامه فى بلاد الشـــام وأخـــذ يناوىء على ابن أبى طالب .

وكان علىّ بن أبى طالب فطنا ذكيا ، فقد أدرك غرض طلحة والزبير وسر اختيارهما بلاد العراق ليتوليا حكمها . فرفض أن يحقق طلبهما ، وقال لهما أنه يود أن يقيما الى جواره ليستشيرهما فى مهام الأمور .

بحث طلحة والزبير عن ثغرة أخرى ينفذان منها . فتقدما الى على بن أبى طالب يطلبان منه الأخذ بثأر عثمان ، واقامة الحدود على مقاتليه . وكانا يدركان صعوبة تحقيق هذه المطالب فى تلك الظروف الحرجة . ولذا أجابهما على فقال : يا اخوتاه ، انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثارت اليهم أعرابكم ، وهم خلافكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة عـلى شىء مما تريدون ؟ . فقالوا : لا . فلا والله لا أرى الا رأيا ترونه ان شاء الله ، ان هذا الأمـــر أمر جاهلية ، وان لهؤلاء القـــوة مادة [1] .

وهكذا وافق عـلىّ بن أبى طالب عـلى ما طالبه به طلحة والزبير ، وأقنعهما باستحالة تحقيقها فى هذه الظروف المضطربة ، ووعدهما بأنه سيعمل برأيهما حين « يهدأ الناس وتقع القلوب

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٦٧ .

مواقعها وتؤخذ الحقوق ، فاهدءوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا » (١) .

غضب طلحة والزبير على علىّ بن أبى طالب لأنه لم يحقق أطماعهما فى توليتهما البصرة والكوفة . وكانا قد ركنا الى الهدوء انتظارا لفرصة تسنح لهما . وجاءت هذه الفرصة حينما أعلن معاوية الخلاف والعصيان فبدآ يعلنان الثورة على خلافة علىّ ، ليرغماه على أن يحارب فى ميدانين .

قدم طلحة والزبير على علىّ بن أبى طالب يطلبان منه السماح لهما بالخروج من المدينة الى مكة ، فقال على لهما : لعلكما تريدان البصرة والشام ؟ فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة (٢) . وقد اختارا قصد مكة لأنه كان هناك عائشة زوجة الرسول تؤدى فريضة الحج ، وقد سمعت وهى فى طريقها الى المدينة ، بعد أدائها فريضة الحج ، بمقتل عثمان والبيعة لعلى ، فعادت أدراجها الى مكة ، وهناك التفت حولها كل ساخط على بيعة علىّ .

أراد طلحة والزبير أن يصبغا حركة المعارضة التى يقودانها ، وهى حركة سياسية بحتة ، بصبغة دينية . فعائشة هى أم المؤمنين ، زوجة الرسول ، وابنة أبى بكر الصديق أول من اعتنق الاسلام . ورأى طلحة والزبير أن يحددا هدفا واضحا يدعوان اليه ليكون نواة لحركتهما ، فلم يريا خيرا من الدعوة للأخذ بثأر عثمان

---

(١) المصدر السابق .
(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ٢٤٢ .

ابن عفان [1] . وفى مكة انضم الى عائشة وطلحة والزبير عبد الله ابن الزبير ، ومحمد بن طلحة ؛ وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة اللذان وليا الكوفة فى عهد عثمان ؛ وعبد الله بن عامر الذى سبق له أن ولى أمر البصرة .

رأى البعض قتال على فى المدينة ، ولكنهم أشفقوا عليها أن تكون مسرحا لمأساة أخرى ، وكفاها مأساة مصرع عثمان ؛ فضلا عن أن معظم أهل المدينة من أنصار على بن أبى طالب [2] . واقترح البعض الكوفة وهناك من يميل الى الزبير ؛ ولكن كان هناك أبو موسى الأشعرى وقد ولاه على الامارة ، وكان أهل الكوفة لا يرضون بغيره بديلا . واقترح فريق ثالث الذهاب الى الشام . وقال الزبير مؤيدا هذا الاقتراح : الشام بها الرجال والأموال وعليها معاوية وهو ابن عم الرجل — يقصد عثمان — ومتى نجتمع يولنا عليه [3] . ولكنهم سرعان ما عدلوا عن هذا الرأى ، فقد كفاهم معاوية أمر الشام [4] . وأخيرا استقر رأيهم على قصد البصرة ، فقد زعم لهم عبد الله بن عامر واليها السابق أن له بها صنائع ، وأن هنالك من يميل الى طلحة [5] . ومدّهم ابن عامر بالأموال الكثيرة ، وأعطاهم يعلى بن أمية والى عثمان باليمن

---

(1) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٩ .
(2) الطبرى حـ ٥ ص ١٦٧ .
(3) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ٦٤ .
(4) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ١٧٢ .
(5) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٤٢ .

الجمل الذى ركبته عائشة وسميت موقعة الجمل باسمه ، ثم خرجوا الى البصرة فى ثلاثة آلاف رجل [1] .

ابن الزبير بطل موقعة الجمل :

وهكذا برز حزبان كبيران ، حزب زبيرى ترأسه الزبير ابن العوام وابنه عبد الله ؛ وحزب طلحة بن عبيد الله يعاونه ابنه محمد . واستند الحزبان على تأييد شخصية كبيرة كان لها جلالها وهيبتها وهى شخصية السيدة عائشة زوجة الرسول .

وعلم على بن أبى طالب برحيل هؤلاء القوم الى البصرة ، فتناسى معاوية والشام ، وعزم على صد طلحة والزبير عن موطن المال والرجال .

وهنا تبدأ نقطة تحول هام فى التاريخ الاسلامى ، فقد خرج علىّ من الحجاز الى الكوفة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين مركزا للخلافة الاسلامية ، وبدأ شيعة علىّ بالعراق يدافعون عما وصلوا اليه . ولكن انتصار معاوية — كما سيأتى — أضاع عليهم آمالهم . كما سنرى كيف هب الحجاز وراء عبد الله بن الزبير فى سبيل عودة حاضرة الخلافة اليه . وهكذا كان خروج علىّ الى العراق بداية صراع الأمصار الاسلامية على مركز الخلافة .

سيصبح الحجاز موطن الخلافة فى عهد عبد الله بن الزبير ، بل سيكون العامل الأول لتأييد الحجازيين لابن الزبير هو حرصهم على وجود الحاضرة فى بلدهم . ولذا أبدى الحجازيون ألمهم لرحيل

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٦٨ .

على بن أبى طالب . فطلب سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد اعفاءهم من مصاحبة جيش على . وأقبل الأشتر زعيم الكوفة فقال لعلى : « يا أمير المؤمنين انّا وان لم نكن من المهاجرين والأنصار ، فانا من التابعين باحسان وان القوم وان كانوا أولى بما سبقونا اليه فليسوا بأولى مما أشركناهم فيه ، وهذه بيعة عامة ، الخارج منها طاعن مستعتب ، فعضّ هؤلاء الذين يريدون التخلف عنـــك باللســـان ، فان أبوا فأدبهم بالحبس » [1] .

وخاف الحجازيون فوات الفرصة وضياع وجود الحاضرة فى بلدهم الى الأبد ، فلما همّ على بن أبى طالب بالمسير الى العراق ؛ اجتمع أشراف الأنصار فأقبلوا حتى دخلوا على علىّ ، فتكلم عقبة بن عامر ، وكان بدويا ، فقال : يا أمير المؤمنين ان الذى يفوتك من الصلاة فى مسجد الرسول والسعى بين قبره ومنبره أعظم مما ترجوه فى العراق . فقال علىّ : ان الأموال والرجال بالعراق ولأهل الشام وثبة أحب أكون قريبا منها [2] . وهكذا تم النصر للعراق على الحجاز ، فانتقلت حاضرة الخلافة اليه . وستنتقل الحاضرة الى دمشق فى العصر الأموى ، حتى تقوم دعوة ابن الزبير ويتخذ مكة مركزا لخلافته .

وصل الزبير وابنه عبد الله ، وطلحة وابنه محمد ، والسيدة عائشة ، الى البصرة ؛ حيث أعلن أهلها ولاءهم . ورأى علىّ

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

ابن أبى طالب أن يستميل أهل الكوفة حتى لا ينضموا الى أعدائه . ولكن أبا موسى الأشعرى واليه على الكوفة رغب عن الفتنة وقتال اخوان له فى الدين ، متناسيا بيعته لعلىّ ، مما أثار غضبه فعزله وولىّ قرظة بن كعب الأنصارى . واستأذن الأشتر من علىّ فى الرحيل الى الكوفة لتأديب أبى موسى ، وهناك أغار على بيت المال وقصر الامارة واستولى عليهما ، فخرج أبو موسى الى مكة . واستحث حجر بن عدىّ أهل الكوفة على مناصرة على فاستجابوا لندائه (١) .

بالغ طلحة والزبير وابن الزبير فى حسن ظنهم بأهل البصرة ، فقد كان فريق كبير منهم يتشيعون لعلىّ . وعاب بعضهم عليهم اخراج عائشة رضى الله عنها من بيتها . وشعر طلحة والزبير بضعف حماس أهل البصرة ، فعمدوا الى الصلح مع عثمان ابن حنيف أمير علىّ فى البصرة ، على أن يكون لعثمان « دار الامارة ومسجدها وبيت المال ، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا حتى يقدم علىّ ، فان اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وأن يتفرقوا ويلحق كل قوم بأهوائهم » (٢) .

ولكن هذا الصلح كان الى حين ، فما كاد طلحة والزبير يعلمان أن عثمان قد نزع سلاحه ، حتى أغارا عليه ، وهو يصلى بالناس صلاة العشاء ، فقبض جندهما عليه وضرباه ضربا مبرحا ، وهاجموا

(١) الطبرى حـ ٥ ص ١٥٩ .
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ١٧٢ .

بيت المال ، وأدت هذه التصرفات الى انصراف أهل البصرة عن طلحة والزبير [١] .

كان طلحة والزبير يعلنان للناس أنهما انما خرجا طلبا لثأر عثمان . ولكن كان من بين المسلمين كثير يرون أنه لا حق لهما فى ذلك . نرى هذا واضحا فى كتاب سعد بن سور الى طلحة والزبير : « فان يك عثمان قتل ظالما فما لكما وله ؟ وان كان قتل مظلوما فغيركما أولى به ، وان كان أمره أشكل على من يشهده ، فهو على من غاب عنه أشكل » [٢] .

وقد خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير وقال لهما : ان ظفرتما لمن تجعلان الأمر ، أصدقانى ؟ قالا : نجعله لأحدنا أينا اختاره الناس . قال : بل تجعلونه لولد عثمان ، فانكم خرجتم تطلبون دمه . فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام !! [٣] . ولذا تخلّى الأمويون عن تأييد طلحة والزبير وحزبهما .

سار علىّ حتى اقترب من البصرة والتقى الجمعان بمكان يقال له (الخريبة) فى النصف الثانى من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ؛ فدارت موقعة الجمل التى انتهت بمقتل طلحة والزبير ، ومصرع عشرة آلاف مسلم [٤] . وبايعت البصرة عليا ، واستعمل عليها عبد الله بن العباس ثم خرج قاصدا الكوفة ودانت له جميع الأمصار عدا الشام .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ٧٤ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ٤٨ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٧ ص ٢٣٦ .
(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ٧٦ .

قام عبد الله بن الزبير بالدور الأول فى حرب الجمل . وقد كان لنشأته أثر كبير فى توجيه أطماعه نحو الخلافة . فقد كان أبوه الزبير ابن عمة الرسول وحواريه . كما كان ربيب أم المؤمنين عائشة ، وكان أول طفل يولد فى الاسلام ، وفرح الرسول لولادته . وكان ابن الزبير فى صدر حياته يأمل فى تولى أبيه الخلافة ، حتى اذا شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال عمل على أن يصل هو الى الخلافة ، ولم ير بأسا أن يستعين بأبيه فى تحقيق أطماعه . وقد صلّى أبوه خلفه ، اذ جعلته خالته عائشة اماما للجند ، وقد عاب بعض المسلمين على الزبير صلاته خلف ابنه .

وقد بدأ طموح عبد الله بن الزبير الى الخلافة منذ كان أميرا على بيت عثمان يوم الدار . وخاصة أن عثمان عهد اليه بوصيته دون الآخرين . فاتخذ من هذا حجة على عهد عثمان له بالخلافة كما عهد الرسول الى جده أبى بكر أن يصلى بالناس أثناء مرضه . ووجد عبد الله فى خالته عائشة أم المؤمنين نصيرا ومعينا . فقد كان ربيبها حتى لقد كانت تكنى بأم عبد الله ، وقيل كناها بذلك الرسول بابن أختها عبد الله [1] .

وكانت عائشة لا تميل الى تولية على بن أبى طالب الخلافة ، وكانت تفضل عليه ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، أو زوج أختها أسماء وهو الزبير بن العوام ، أو ابن أختها عبد الله بن الزبير ،

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ٩١ .

وقد كانت تدفع بعبد الله الى الأمام لينافس سائر أولاد الصحابة ، وخاصة أولاد على بن أبى طالب .

تحدث المؤرخ (ابن الأثير) [1] عن تكريم عائشة لابن أختها عبد الله بن الزبير وتقديمه على أبيه الزبير ، وعلى طلحة ، وسائر قواد حرب الجمل ، فقال : « وخرجت عائشة ومن معها من مكة ؛ فلما خرجوا أذّن مروان بن الحكم ، ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير ، فقال : على أيكما أسلّم بالامرة وأوذن بالصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير : على أبى عبد الله — يعنى أباه الزبير — وقال محمد بن طلحة : على أبى محمد — يعنى أباه طلحة — . فأرسلت عائشة الى مروان ، وقالت له : أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصلّى بالناس ابن أختى — تعنى عبد الله بن الزبير — » .

وكانت عائشة تحب عبد الله بن الزبير كثيرا ، فيذكر ابن عساكر [2] : « ولم يكن أحب اليها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أبيها ، من ابن الزبير ؛ وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها » .

ويذكر المؤرخ (كاترمير) [3] انه لم يكن بين العرب الطامعين فى الخلافة فى القرن الأول الهجرى ، باستثناء علىّ ، رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .

وكان ابن الزبير فى عهد على بن أبى طالب يرى أحقيته بالخلافة ،

---

(١) الكامل حـ ٣ ص ٨٨ .

(٢) تاريخ ابن عساكر حـ ٧ ص ٤٠٢ .

(٣) Quatremére : Memoire Hi 8·sɪ.ʻd.·.62

وقد عملَ على تحقيق غَرضه ، فعملَ على تدعيم حزب آل الزبير وطلحة وعائشة سعيا وراء الخلافة ، وكان يد هذا الحزب ولسانه الناطق ، وكان لا يألو جهدا فى جمع كلمته .

لقى طلحة والزبير حتفهما فى موقعة الجمــل ، ولو كانا قد انتصرا على علىّ بن أبى طالب لتنافسا على الخلافة وتطاحنا من أجلها . فقد قال أحد أنصارهما وهو معاذ بن عبيد : والله لو ظفرنا لاقتتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر [1] .

موقف ابن الزبير من الصراع بين على ومعاوية :

كانت أطماع عبد الله بن الزبير فى السلطة والخلافة هى التى دفعته لتدعيم حــزب أبيه الزبير وصاحبه طلحة ، وحث خالته عائشة على الانضمام اليهما ، ولكن الهزيمة التى لحقت بهــذا الحزب أرغمت ابن الزبير على أن يرجىء أطماعه الى حين ، وكانت الهزيمة صدمة قاسية له ؛ فقد فَـقَـدَ أباه الزبير ؛ وحليفه طلحة ، كما أصيب ابن الزبير بعدّة جراح ، ولم يخلّصه من الأسر سوى شفاعة عائشة له عند علىّ ، فعفا عنه . وزاد من يأس عبد الله أن ظهر على مسرح السياسة رجل قوى الشكيمة طامع فى الخلافة هو معاوية بن أبى سفيان .

ووقف عبد الله بن الزبير من صراع عــلى ومعاوية موقف

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٨٨ .

المتفرج ، وهو يأمل أن تنتهى الحرب بالقضاء على واحد منهما واصابة قوى الآخر بالضعف .

اشتبك على ومعاوية فى موقعة صفين التى انتهت بالتحكيم ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار على أبا موسى الأشعرى . وبعث معاوية فى طلب عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ليحضرا التحكيم ، فأجاباه كارهين ، اذ لم يكن واحد منهما مقتنعا بأحقية معاوية فى الخلافة ، كما غضبا أشد الغضب لموقف معاوية وعمرو ابن العاص من علىّ فى التحكيم [1] . ورغم ذلك ، فقد شهد ابن الزبير التحكيم وكان أحد الخمسة الذين وقعوا اتفاق أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص [2] .

وكان مصرع على بن أبى طالب على يد أحد الخوارج هو نهاية لصراعه مع معاوية . فبايع المسلمون ولده الحسن بن على ؛ ولما هزمت جيوش الحسن أمام جند الشام ، نزل عن الخلافة لمعاوية حقنا للدماء ، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين . ولذا بدأ دور جديد فى حياة ابن الزبير ، وهو دور صراعه مع معاوية والدولة الأموية .

(١) Quatremere : Memoire Hist . . . , p .300

(٢) هؤلاء الخمسة هم : عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وجبير بن مطعم ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام .

٤ - موقف ابن الزبير من قيام الدّولة الأمويّة

ابن الزبير في صدر الدّولة الأمويّة

موقف ابن الزبير من خلافة معاوية

ابن الزبير زعيم حزب المدينة

ابن الزبير زعيم حزب أبناء الصّحابة

معاوية يحاول استمالة ابن الزبير

ابن الزبير يشترك في غزو القسطنطينيّة

معارضة ابن الزبير البيعة ليزيد بولاية العهد

موقف ابن الزبير من قيام الدولة الأموية

ابن الزبير فى صدر الدولة الأموية :

اختلف موقف عامة المسلمين من خلافة معاوية ، بين التأييد والمعارضة . أما المؤيدون ، فقد بايعه بعضهم بقلبه وايمانه ؛ والبعض الآخر مكرها أو سعيا وراء منافع شخصيته . أما هؤلاء الذين بايعوا عن ايمان وعقيدة ، فقد رأوا فى حزب بنى أمية حزب الدين والنظام [1] . ورأوا أنه ما دام الحسن قد نزل عن الخلافة لمعاوية ، فقد أصبحت خلافته أمرا محتوما ، فعليهم السمع والطاعة له ، واحترام اجماع الأمة . ويعتبر معظمهم بيعة معاوية بيعة صحيحة . ورأت هذه الجماعة أن بيعة معاوية توافق تماما ما جرت عليه القبائل العربية فى الجاهلية ، فقد كانوا يختارون من يلى السابق فى الأهمية بمجتمعهم ، واتبع هذا المبدأ فى اختيار — أو تعيين — الخلفاء الثلاثة الأول : أبو بكر وعمر وعثمان . ويمكن أن نعتبر أيضا أن على بن أبى طالب وصل الى الخلافة فى الزمن الذى قدمته الظروف الى الصف الأول ، دون أن يكون لذلك أى علاقة مع الارث أو التخصيص ، ولذا كان من الطبيعى

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٠ .

أن تؤول الخلافة بعد على الى معاوية ، فقد كان أبرز شخصية فى ميدان السياسة [1] .

وكان معاوية جديرا بالخلافة ، فقد كان « مربى دول ، وسائس أمم ، وراعى ممالك » [2] . وكان له من الخبرة والجربة ما يؤهله للخلافة ، فقد كان كاتب وحى الرسول ، ووالى عمر وعثمان على الشام لمدة عشرين سنة ، فتحنك فى الادارة ، وأصبح اماما فى صناعته [3] .

وبجانب هذه الفئة المؤمنة بخلافة معاوية ، توجد فئة أخرى دفعتها الرغبة أو الرهبة الى البيعة لمعاوية . فقد أغدق معـاوية الأموال على رجالات الدولة ومعظم الأحزاب . وهناك من دفعتهم الرهبة الى البيعة لمعاوية ، وان كرهوا ذلك ، « فكان الرجـل يحضر فيقول : والله يا معـاوية انى لأبايعك وانى لكاره لك . فيقول : بايع ، فان الله قد جعل فى المكروه خيرا كثيرا » [4] .

والى جانب هؤلاء الراغبين والراهبين ، توجد فئة من عـامة المسلمين أعلنت عداءها صراحة لمعاوية وبنى أمية ، وفى مقدمتهم القبائل العربية المستقرة فى العراق وخاصة تميم وباهلة وبكر . كما اتحد الخوارج والشيعة على كراهية معاوية وبنى أمية رغم عداء هذين الحزبين بالأمس . لكن معاوية نجح فى القضاء على هذه

---

(١) رونلدسن : عقيدة الشيعة ص ٨٢ .
(٢) الفخرى ص ٧٨ .
(٣) كرد على : الادارة الاسلامية ص ٦٥ .
(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٢ .

العقبات ، بالدهاء والسياسة تارة ، وبالتهديد أو ببذل الأموال تارة أخرى ، كما لجأ الى الدعاية لنفسه ، فبث القصاص في المساجد والمجتمعات يدعون له ولأهل الشام ، ويقطعون المسلمين ويقصون عليهم ما يليّن قلوبهم [1] . وأثمرت هذه السياسة فركن معظم المعارضين الى الهدوء ، ولعلهم أدركوا عبث مقاومتهم لخلافة معاوية التى فاز بها رغما عنهم .

موقف ابن الزبير من خلافة معاوية :

كان عبد الله بن الزبير وأهالى الحجاز من أشد المعارضين للدولة الأموية وخلافة معاوية . فقد آلمهم انتقال حاضرة الدولة العربية الاسلامية من المدينة بالحجاز الى دمشق بالشام . فقد رأى معاوية أن المدينة لم تعد تصلح لأن تكون حاضرة الدولة الاسلامية كما كانت فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان . وقد أدرك على بن أبى طالب حقيقة الأمور فنقل حاضرة خلافته الى الكوفة حيث شيعته وأنصاره . ثم نقل معاوية الحاضرة بدوره الى دمشق حيث أنصاره .

ويرى المؤرخ (توماس أرنولد) [2] أنه ما دامت الحكومة المركزية فى المدينة فالنفوذ الاسلامى هو المسيطر ، اذ كان بامكان أصحاب النبى المخلصين أن يحاولوا تنظيم المجتمع الجديد حسب

---

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ص ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢) الخلافة ص ١٠ - ١١ .

تعاليم الرسول ، ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة الدولة ، اعتبر العرب أنفسهم طبقة حاكمة سامية .

وكان وجود ابن الزبير وأبناء صحابة الرسول فى المدينة وغيرها من مدن الحجاز ، دافعا لمعاوية فى وضع سياسة متميزة لحكم بلاد الحجاز ، تختلف تماما عن سياسته فى حكم سائر الأقطار الاسلامية . ولكن هذه السياسة أثارت مشاعر أهل الحجاز ومهدت الطريق أمام ابن الزبير ليكتسب ولاء أهل الحجاز .

فقد اتبع معاوية سياسة فريدة فى حكم بلاد الحجاز ، فكان يحرص على تولية أقاربه الأمويين على المدن الحجازية ، وحرص فى نفس الوقت على الايقاع بينهم ، متبعا سياسة « فرّق تسد » .

ففى سنة ٥٤ هـ عزل معاوية عامله على المدينة سعيد بن العاص واستعمل بدله مروان بن الحكم ، وسبب ذلك أن معاوية غضب على مروان فأمر سعيدا بهدم داره ومصادرة أمواله ، فأبى سعيد تحقيق أمره . فعزل معاوية سعيدا وولى بدله مروان وأمره بهدم دار سعيد ومصادرة أمواله . فلما همّ مروان بتنفيذ أوامر الخليفة عاتبه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية اليه فامتنع عن هدم الدار[١].

وكتب سعيد الى معاوية كتابا يعاتبه فيه ، جاء فيه : « العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض ، فأمير المؤمنين فى حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الأولاد ذلك ، فوالله

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٣ ص ٢١٢ .

لو لم نكن بنى أب واحد الا ما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقا علينا أن نرعى ذلك »[1]

وكتب معاوية الى سعيد معتذرا ، لكنه لم يلبث أن عزل مروان سنة ٥٨ هـ ، وولّى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان . ويرى أحد الكتّاب[2] أن سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية ايقاع الخلاف بين أقاربه الذى يخشى تفوذهم على يزيد وحفدته من بعده ، فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة الى عطفه وعنـايته .

لكن معاوية لم يقع فيما وقع فيه عثمان ، فلم يطلق يد مروان ابن الحكم أو غيره من أقربائه شئون الخلافة ، فلم يول أحدهم أحد الأمصار الكبيرة كالعراق مثلا ، فقد كان يخاف أن يسيروا فى الطريق الذى سار فيه لتوطيد أمره فى الشام واكتفى بأن أوطأ لذوى قرباه الحجاز ، فكان يولى أحدهم الطائف أولا ، فان رأى فيه خيرا ولاّه مكة بعدها . ولعله رأى أن أقاربه من بنى أمية خير من يراقبون حركات أبناء الصحابة المقيمين فى الحجاز ، وخاصة الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . كما أن هؤلاء الولاه الأمويين يكونون أرفق لهم وألين معاملة من ولاته الآخرين وخاصة المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هذا التبديل والتغيير ، بالاضافة الى شدة الولاة الأمويين ، ثغرات نفذ عبد الله بن الزبير الى التمهيد

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢١٨ .
(٣) عمر أبو النصر : السياسة عند العرب ص ٩٨ .

لخلافته فى الحجاز ، وتكوين حزب كبير من الساخطين على الحكم الأموى .

استفاد عبد الله بن الزبير من نقل معاوية الحاضرة الى دمشق ، ويبين المقرى [1] أثر هـذا الانتقـال ، فيقول عن معاوية أنه « لم يزل مستوطنا بالشام بمدينة دمشق الى أن تمكنت الخوارج فى أقصى البلاد وتداخل الأمر بين العراقيين والحجازيين واليمانيين والشاميين ، وتفاقم بين كل منهم البغض والعداوة ، ولم يقدر لهم معاوية بشىء ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

ابن الزبير زعيم حزب المدينة :

كان أهل المدينة يتمسكون بالسنن النبوية ، والتقاليد العربية العتيدة ، ولذا لم يرضوا عن صبغ الدولة الأموية بصبغة زمنية دنيوية ، واقتباس بعض النظم الرومانية . ونجح عبد الله بن الزبير فى الاستفادة من آراء أهل المدينة ، فقد استطاع أن يجمعهم حوله ويؤلف منهم حزبا قويا متماسكا .

ووقعت حادثة استفاد منها ابن الزبير فى اثارة مشاعر أهل المدينة ضد معاوية . فيروى المؤرخ أبو المحاسن [2] أنه فى السنة الخمسين بعد الهجرة « أراد معاوية نقل منبر النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة وأن يحمل الى الشام وقال : لا يترك هو وعصا النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهم قتلة عثمان . فطلب العصا

(١) المقرى : الجمان فى أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ١٤٠ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٨ – ١٣٩ ..

وهي عند سعد القرظ ، وحرك المنبر فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية ، فأعظم الناس ذلك فتركه » . وكان لهذا الحدث أسوأ الأثر فى نفوس أهل الحجاز قاطبة ، وشعر معاوية بخطئه فاعتذر وزاد فى المنبر ست درجات .

كما استفاد ابن الزبير من مظاهر المُلك التى صبغت الدولة الأموية ، ويلخص المؤرخ اليعقوبى [1] هذه المظاهر فيقول : « وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرط والبوابين فى الاسلام ، وأرخى الستور واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه بالحراب ، وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء وسخر الناس فى البناء .. وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك » . ويرى المؤرخ (نيكلسن) [2] أن الأمويين كانوا ملوكا بالفعل خلفاء بالاسم . ولذا لا عجب أن قارن أهل المدينة بين معاوية وبين زعيمهم عبد الله ابن الزبير ، وقد اشتهر بينهم بالزهد والصلاح والبساطة .

واهتم معاوية بسبّ على بن أبى طالب من فوق المنابر ، مما أثار مشاعر الشيعة خاصة ومشاعر أهل الحجاز عامة . وعلى الرغم من أن ابن الزبير قد اشترك مع أبيه الزبير فى حرب الجمل ضد على بن أبى طالب ، الا أن ابن الزبير لم يحدث أن أساء الى على بن أبى طالب بعد مصرعه ، بل كان صديقا لابنه الحسين ابن على ، وكان يحرص على شهود مجالسه .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) Lit. Hitst. of the Arabs' p. 181

ابن الزبير زعيم حزب ابناء الصحابة :

كان أخشى ما يخشاه معاوية على الخلافة الأموية ، هو طمع الطامعين فى الخلافة من أصحاب الرسول وأبنائهم الذين اتخذوا من المدينة مقاما لهم ومركزا لحركاتهم ، ونجحوا فى تكوين حزب قوى متماسك يعارض الحكم الأموى دائما ، ويحاول هدم الدولة الأموية .

تزعم حزب أبناء الصحابة الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . وكان ابن الزبير أكثر طموحا من الحسين الى الخلافة فى عهد معاوية ، فقد آثر الحسين الركون الى الهدوء بعد تنازل الحسن ابن على عن الخلافة لمعاوية . وحفظ معاوية لهما صنيعهما ، فيروى الدينورى [1] أنه « لم ير الحسن ولا الحسين طول حياة معاوية منه سوءا فى أنفسهما ولا مكروها ولا قطع عنهما شيئا مما كان شرط لهما ولا تغيّر لهما عن برّ » .

أما سائر أبناء الصحابة فقد اتبع معهم معاوية سياسة الحلم وادرار المال فيذكر صاحب الفخرى [2] : « فلا يزال أشراف الناس مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وأبان ابن عثمان ، وناس من آل أبى طالب — رضى الله عنهم — يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٣٨ .
(٢) الفخرى ص ٩٢ .

عنهم أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية ، والصلات الجمة » .

ولم يكن معاوية يعمل على تدعيم حكمه أو خلافته فحسب ، بل كان يعمل على انشاء دولة أموية قوية كبرى ، واستمرار البيت الأموى فى حكم الدولة العربية الاسلامية . ولذا عمل على القضاء على الحركات المعارضة ، واستخدم فى سبيل ذلك شتى الوسائل ، فأغدق الأمـوال ، ووهب المناصب ، وجيّش الجيوش ، وبث العيون والأرصاد والشرطة فى الولايات ، وقرّب الشعراء اليه فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء ، وحث القصـاص عـلى قص القصص فى المساجد ، تدعو المسلمين الى طاعة أولى الأمـر . ولذا سكتت الأحزاب الى حكمه وركنت الى الهدوء ، عدا حزب أهل المدينة بزعامة عبد الله بن الزبير .

معاوية يحاول استمالة ابن الزبير :

نجح معاوية فى حث الحسن والحسين بن على على أن يركنا الى الهدوء والسلام . وبقى أمامه خصم عنيد هو عبد الله بن الزبير الذى انفرد بزعامة حزب أهل المدينة وحزب أبناء الصحابة . وبذل معاوية كل جهد لاسـتمالة ابن الزبير وحثه على طاعة الدولة الأموية .

فكان معاوية اذا لقى ابن الزبير يقول له : مرحبا بابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يأمر بمنحه مائة ألف درهم [١] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر حـ ٧ ص ٣٩٨ .

حتى اذا لم يُجْدِ سلاح المال ، لجأ الى سلاح الاقناع . فكان معاوية يعقد المجالس مع ابن الزبير ، فيتناظران ، ويحاول كل منهما ابراز تقدمه وفضله . ويصف صاحب العقد الفريد [1] أحد هذه المجالس .

قال معاوية لابن الزبير فى هذا المجلس : تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى ! فقال ابن الزبير : لِمَ لا أكون أحق به منك يا معاوية ، وقد اتبع أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان ، واتبع الناس أباك على الكفر . فقال معاوية له : غلطت يا ابن الزبير ، وبعث الله ابن عمى نبيا فدعا أباك فأجابه ، فما أنت الا تابع لى ضالا كنت أو مهديا .

وهكذا تفاخر ابن الزبير بسبق أبيه الزبير فى الاسلام على أبى سفيان ، والد معاوية . وقد قاد أبو سفيان — كما نعلم — جيوش الوثنيين التى قاتلت الرسول والمسلمين فى الغزوات . بينما أعتبر معاوية الرسول صلى الله عليه وسلم ابن عمه ، اذ أن بنى أمية هم أبناء عمومة بنى هاشم .

وفى مجلس آخر ، تناظر معاوية وابن الزبير ، وتفاخرا ، وساق كل منهما الحُجج والأسانيد ، ثم رأيا أن يحتكما الى واحد ممن حضروا هذا المجلس ، وهو أبو جهم بن حذيفة . فقال أبو جهم لمعاوية : نعم أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وأسماء خير من هند . وأبوك أبو سفيان ، وأبوه الزبير ، ومعاذ

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ١١٦ .

الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير . وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله ان شاء الله .

وهكذا تفاخر معاوية وابن الزبير بالآباء والأمهات . واذا كان هذا رأى أبى جهم وقد وجد من الشجاعة ما جعله يبوح به فى حضرة معاوية ، دون حرج أو تردد ، فماذا كان رأى عبد الله ابن الزبير وأنصاره من حزب المدينة وأبناء الصحابة ؟ !

أما رأى معاوية فى ابن الزبير ، فانه يتمثل فى هذه القصة التى رواها ابن عساكر [1] : « وكان معاوية سائرا فى طريق مكة فنام ومعه ابن الزبير . فلما استيقظ قال له : أتنام وأنا معك ؟ أما تخاف أن أقتلك ؟ ! فقال له : لست من قتّال الملوك ؛ انما يصيد كل طير قدره ، وانما أنت يا ابن الزبير ثعلب رواغ تدخل من جحر وتخرج من جحر » . وقد شبّه معاوية خصمه ابن الزبير بالثعلب ، فقد تميّز بالدهاء والمكر والحيلة والذكاء .

حاول معاوية استمالة ابن الزبير ، فاتخذ سلاح المال ، ثم سلاح الاقناع والمناظرة ، ثم لجأ الى سلاح الدهاء والحيلة . فحاول أن يوقع بين زعيمى حزب أهل المدينة وأبناء الصحابة ، عبد الله بن الزبير والحسين بن على ، فقد دخل الحسين بن على قصر معاوية وكان فى حضرته عبد الله بن الزبير ، فرحّب معاوية بالحسين وأجلسه معه على سريره ، ثم أشار له على ابن الزبير وقال : ترى هذا القاعد ؟ فانه ليدركه الحسد لبنى عبد مناف .

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٤٤ .

فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن ان شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبى سفيان فعلته !! [1] .

وخير ما يمثل سياسة الحلم والدهاء التى اتبعها معاوية مع ابن الزبير ، قصة تذهب الى أن ابن الزبير لجأ الى معاوية شاكيا أحد ولاته وقد أحرق دارا له ، فطلب معاوية من ابن الزبير أن يقدّر ثمن هذه الدار ليدفعه له تعويضا عنها ، فقدّرها بمائة ألف درهم ، وأتى بشاهد شهد له بذلك . حتى اذا انصرف ابن الزبير قال معاوية لمن حضروا مجلسه : والله لأعرف داره ، وما هى الا خصائص قصب ، ولكنهم يقولون فنسمع ، ويخادعوننا فننخدع !

واذا كان ابن الزبير طامعا فى الخلافة ، واذا كان قادرا على أن يقف من معاوية موقف المجادل المناظر ، الا أن ابن الزبير لم يكن يستطيع أن يشن حربا أو يرفع راية العصيان ضد معاوية ، فلم يكن لابن الزبير بعد من القوة الحربية ما تمكنه من قتال معاوية أو معارضته . كما أن الدولة الأموية لا تزال فى عنفوان قوتها . ويرى المؤرخ (وليم ميور) [2] أن معاوية كان مطمئنا من ناحية ابن الزبير ويرى أنه لن يطالب بالخلافة طالما كان الحسين بن على على قيد الحياة .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) The Caliphate p. 386

ابن الزبير يشترك فى غزو القسطنطينية :

مما يزيد اعجابنا بعبد الله بن الزبير ، أنه ما من حرب تهدف الى نشر الاسلام الا اشترك فيها . وقد رأيناه يشترك فى موقعة اليرموك الى جانب أبيه الزبير بن العوام ، وكان عبد الله حينئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، وذلك فى عهد أبى بكر . كما صحب عبد الله أباه الزبير فى فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب . ثم رأينا ابن الزبير بطل المسلمين فى فتح افريقية فى عهد عثمان ابن عفان ، وقد مر بنا الدور الكبير الذى قام به فى هذه الحروب .

ورغم ما كان من عداء ابن الزبير لمعاوية ، ورغم معارضته للدولة الأموية ، فانه يتناسى دائما هذه الخصومة السياسية ليلبى دعوة الواجب ، ويستجيب لنداء الجهاد فى سبيل الاسلام . ولذا نراه فى سنة ٥٠ هـ يشترك مع الجيش الاسلامى الذى وجّهه معاوية لغزو القسطنطينية ، ورضى أن يعمل جنديا تحت قيادة يزيد بن معاوية .

نجح جيش معاوية فى القضاء على حركات المردة ، واستطاع أسطوله محاصرة القسطنطينية حصارا شديدا ، برغم النار الحربية التى اخترعها الروم أثناء ذلك الحصار واستخدامها ضد المسلمين . ولم يلجأ معاوية الى رفع الحصار الا حين أحس بدنو أجله ، وأن الحكمة تقتضى وجود القوات الحربية للمحافظة على سلامة البيت الأموى خشية الفوضى والاضطراب [١] .

---

(١) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٦٧ .

معارضة ابن الزبير البيعة ليزيد بولاية العهد :

كانت فكرة بيعة معاوية لابنه يزيد بولاية العهد نقطة تحول في موقف ابن الزبير من خلافة معاوية ومن الدولة الأموية . فقد ركن ابن الزبير الى الهدوء في الفترة الأولى من خلافة معاوية ، مكتفيا — كما رأينا — بابداء سخطه مشافهة . وكان ابن الزبير يعلم أن تنازل الحسن بن على لمعاوية كان مشروطا بجعل الخلافة شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ، ولذا بات ابن الزبير يترقب موت معاوية ، فقد ينجح حينئذ فى الوصول الى الخلافة فيستفيد من هذه الشورى ، وقد نجح فى تكوين حزب مناصر له فى المدينة خاصة وفى الحجاز عامة ، كما يستطيع أن يضم اليه كل الساخطين على الحكم الأموى .

ولذا أعلن ابن الزبير معارضته الشديدة للبيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد . فقد كان يزيد فى عنفوان شبابه ، وقد تطول خلافته فتضيع الفرص على ابن الزبير لتحقيق أطماعه . كما أن البيعة ليزيد تجعل الخلافة وراثية ، ومحصورة فى البيت الأموى ، مما يقضى على آمال ابن الزبير وسائر أبناء الصحابة فى تولى الخلافة . ولذا لا عجب أن تزعم ابن الزبير حركة المعارضة لاحباط البيعة ليزيد .

كان صاحب فكرة البيعة ليزيد هو المغيرة بن شعبة ، فقد أراد معاوية عزله عن الكوفة وتعيين سعيد بن العاص مكانه . ففكر المغيرة فى وسيلة تحفظ له منصبه وتقربه من معاوية ، فاقترح عليه أخذ البيعة لابنه يزيد ، وذكره بالأحداث التى وقعت بعد

عثمان [1] . وأبدى معاوية سروره لهذا الاقتراح وأعاد المغيرة الى ولايته مكافأة له على اخلاصه للبيت الأموى .

أخذ معاوية يمهد الأمور ؛ باقناع العراق والحجاز بالبيعة ليزيد . أما العراق ، فأمره سهل هيّن ؛ فهناك ولاة قد قبضوا على ناصية الأمور بقبضة من حديد . أما الحجاز ؛ فهو موطن الصحابة وأولادهم ، وقد مر بهم سوابق اختيار الخلفاء الراشدين ، مما يحملهم على الوقوف موقف المعارضة .

وبدأ معاوية بالعراق ؛ حيث المغيرة والى الكوفة ، وزياد والى البصرة . وأرسل المغيرة عشرة من أهل الكوفة وعلى رأسهم ولده موسى ومنحهم بعض الأموال ليؤكدوا لمعاوية أن الكوفة تقبل البيعة ليزيد [2] . ولكن زياد بن أبيه لم يكن كزميله المغيرة فأبى عليه اخلاصه أن يوافق معاوية على تحقيق هذه الفكرة ؛ فكان يرى أن يزيد بن معاوية غير جدير بالخلافة لما هو عليه من « تهاون مع ما قد أولع به من الصيد » [3] . وقدم رسول زياد على معاوية فأبلغه أن زيادا يرى التؤدة والتروى فى الأمر . واذا كان هذا رأى زياد وهو أعظم ولاة الأمويين اخلاصا ؛ فماذا يكون رأى ابن الزبير وهو فى مقدمة المناوئين للدولة الأموية ؟

ورأى معاوية أنه تسرع فى الاقتناع بفكرة المغيرة ، وأن من الخير أن يتبع نصيحة زياد فى التروى والتأنى . وعلم معاوية أن

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٨ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٦٩ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٧٠ .

أخلاق ابنه يزيد وسجاياه ستكون عقبة فى البيعة له ، فطلب معاوية منه أن يقوّم أخلاقه ، واستجاب يزيد لنداء أبيه فكف عن كثير مما كان يصنع

وأراد معاوية أن يستطلع رأى أهل الحجاز ، فرحل الى المدينة سنة ٥٠ هـ متظاهرا بالحج . ودعا اليه زعماء الصحابة من أمثال عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير . ولم يدع الحسن أو الحسين ابنى على بن أبى طالب . واقترح معاوية عليهم أن يعهد بولاية العهد لابنه يزيد ، فهبوا فى وجهه يبدون معارضتهم واستنكارهم .

وكان عبد الله بن الزبير هو لسان أبناء الصحابة الناطق ، يعبر عن معارضتهم لفكرة البيعة ليزيد فقال : « أما بعد . فان هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية وانصف عن نفسك ، فان هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله ابن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ خلّف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما وما هما ، فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » (١) .

ونهج أبناء الصحابة نهج ابن الزبير ، فأعادوا حديثه ، وحاكوه فى معارضته لاقتراح معاوية ، حتى اذا انتهوا من التعبير عن آرائهم

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٢٦ .

قال معاوية لهم : « قد قلت وقلتم ، وانه قد ذهب الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب الىّ من أبنائهم ، مع ان ابنى اذا قاولتموه وجد مقالا ، وانما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة . ثم رجع الملك الى بنى عبد مناف فلا يزال فيهم الى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا ابن الزبير وأنت يا ابن عمر منها . فأما ابنا عمى هذان — الحسن والحسين — فليس بخارجين من الرأى ان شاء الله » [1] .

ويئس معاوية من هؤلاء الصحابة ، فعاد أدراجه الى الشام ؛ ولم يهتم بأخذ البيعة منهم لابنه يزيد بولاية العهد ، ولم يقطع عنهم صلاتهم وأعطياتهم ، وترك أمر البيعة ليزيد رهنا للظروف ، وبات يترقب فرصة مواتية .

ثم جاءت الفرصة المواتية ، فأخرج معاوية هذه الفكرة الى حيز التنفيذ . أما عن الأسباب التى دفعت بمعاوية لاحياء المشروع القديم ؛ فقد اختلف المؤرخون فيها . فيرى ابن الأثير [2] أن وفاة زياد بن أبيه هى سبب عودة الفكرة ، بينما برر ابن قتيبة [3] ذلك بوفاة الحسن بن على . ونحن نوافق على رأى ابن قتيبة ، فلم يكن معاوية يخشى من معارضة زياد بن أبيه وقد ضمن ولاءه منذ ولاّه حكم العراق وآخاه فألحقه بأبيه أبى سفيان .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) الكامل حـ ٣ ص ٢١٥ .

(٣) الامامة والسياسية حـ ١ ص ١٢٧ .

ورأى ابن قتيبة أقرب الى الواقع ، فمعاوية لم يكن يضمن نجاح مشروع البيعة ليزيد بولاية العهد طالما كان الحسن بن علي على قيد الحياة . فقد نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة بشرط جعلها شورى بين المسلمين بعد وفاته ، حتى اذا مات الحسن شعر معاوية أنه في حلّ من هذا الشرط . وكان معاوية في رحلته الاستطلاعية الى الحجاز ، لم يدع الى مجلسه الحسن والحسين ، رغم دعوته سائر أبناء الصحابة . فقد كان من العسير على معاوية أن يواجه الحسن بطلب البيعة منه ليزيد .

وبعد وفاة الحسن بن علي ، خلا الجو لمعاوية ، فأخذ البيعة ليزيد في الشام ، وكتب ببيعته الى الأمصار الاسلامية ، ثم أراد أن يحصل على بيعة أهل الحجاز .

كتب معاوية الى مروان بن الحكم الوالي الأموي في المدينة المنورة ، يطلب منه أخذ البيعة من أهلها ليزيد ، فثار الصحابة في وجهه يعارضون المشروع ويهدمونه من أساسه . وعبّر عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق عن رأيهم فقال : « تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ؟ ! » [1] . حتى اذا وجد مروان بن الحكم أنه عاجز عن اقناعهم ، بعث الى معاوية ينبئه بذلك ، فعزله معاوية وولّى بدله سعيد بن العاص . وفي الحق ، أن مروان بن الحكم قد تهاون في حمل هؤلاء المعارضين على البيعة ليزيد ، فقد كان هو نفسه طامعا في الخلافة كما سنبين ذلك فيما بعد .

(1) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٦ .

ورأى معاوية أن يعيد الكرّة بعد أن أخفق واليه مروان ، فطلب من واليه الجديد سعيد بن العاص أن يدعو أهل المدينة الى البيعة ليزيد . ورأى سعيد أن يأخذ الناس بالعزم والشدة ، اذ أنه خشى أن يكون مصيره كمصير سلفه مروان . فاستجاب لدعوته كثير من الناس بدافع الرهبة من سطوته ، ولم يخالفه سوى بنو هاشم .

قاد عبد الله بن الزبير حركة المعارضة فى المدينة لمشروع البيعة ليزيد ، ويتضح هذا فى خطاب سعيد بن العاص الى معاوية ، فقد جاء فيه : « .. وانى أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء لا سيما أهل البيت من بنى هاشم ، فانه لم يجبنى منهم وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته وابائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم الا بالخيل والرجال ، أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى هذا ، والسلام » [١] .

اقترح سعيد بن العاص على معاوية اقتراحين ، أحدهما انفادة الجيوش لارغام ابن الزبير وأهل المدينة على البيعة ، وثانيهما أن يقدم معاوية بنفسه الى المدينة ليقنعهم بالحجة والبيان . وكان معاوية حليما صبورا ، كما كان ذكيا فطنا ، فأدرك أن البيعة لا تكون كرها حتى لا ينقضونها بعد وفاته ، ورأى أن يلجأ الى الاقتراح الثانى .

وانتهز معاوية فرصة موسم الحج ليخرج الى الحجاز ليأخذ

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٢٩ .

بيعة أهلها بنفسه . ورأى معاوية أن يستفيد من الفترة السابقة لحلول موسم الحج ، فكتب رسائلا الى أبناء الصحابة وطلب من واليه سعيد بن العاص أن يبعث بردودهم عليها اليه .

وكتاب معاوية الى عبد الله بن الزبير يستدعى الاهتمام حقا . فقد كان الكتاب الوحيد الذى كتب بالشعر ، على حين كانت سائر الكتب نثرا . وكان معاوية يدرك فصاحة ابن الزبير واجادته نظم الشعر ، فظن أن الشعر قد يكون أوقع وأشد تأثيرا فى نفسه . وقد حملت أبيات معاوية الى ابن الزبير تحذيرا له ، فهو يخبره أنه وان كان قد تسامح معـــه فيما مضى ، فهو يحذّره عاقبة اللؤم والغش . وكان رد ابن الزبير على معاوية شعرا أيضا ، فهو ينكر على معاوية حلمه معه ويحذره من تنفيذ ما يهدده به ، ويتوعده بأنه سيلقى أسدا فى عرينه ، ويشبه ابن الزبير نفسه بالأســد ، والمدينة المنورة بالعرين . ثم يختم ابن الزبير رسالته بتهديد معاوية فيقــول :

وأقسم لولا بيعة لك لم أكن   لأنقضها لم تنج منى مسلما (١)

ولما رأى معاوية صلابة عود أبناء الصحابة ، رأى أن يقدم الى المدينة لأخذ البيعة ليزيد بعد أن بايعه أهل العراق والشام . فقدم الى المدينة زمن الحج ، يدفعه الرغبة لأخذ البيعة ليزيد . فلما خرج أبناء الصحابة الى لقائه ، أساء لقاءهم وسبّهم ، وكان أشد تحاملا على عبد الله بن الزبير ، فقال معاوية له : لا مرحبا

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٢٠ .

ولا أهلا ، خبٌ ضبٌ تلعة يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره » [1] . وهكذا وصف معاوية ابن الزبير بأنه (خب) أى الرجل الخداع ، وأنه (تلعة) وهو المكان المرتفع الذى يصعب الوصول اليه .

رفض معاوية أن يأذن لأبناء الصحابة بالدخول عليه ، فرحلوا عن المدينة الى مكة . وقصد معاوية الى السيدة عائشة زوجة الرسول رضى الله عنها ، وتوجه لها بالشكوى من أبناء الصحابة ، وهدّد بقتلهم ، وقال لعائشة : « .. ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم ، أفترين أن أنقض بيعة تمت ؟ » [2] واجتهدت السيدة عائشة فى أن تهدّىء من ثورة غضبه ، ونصحته أن يعامل أبناء الصحابة بالرفق حتى يوافقوه على طلبه ، فوعدها معاوية بذلك .

رحل معاوية من المدينة الى مكة . وهناك التقى بأبناء الصحابة فأحسن لقاءهم ، ومنحهم صلاته وهباته ، وكأن نصائح عائشة قد أثمرت . ولكن أبناء الصحابة لم يحيدوا عن معارضتهم وعزموا على أن يصارحوه برأيهم ، واتفقوا على أن ينوب عنهم عبد الله ابن الزبير فى مخاطبة معاوية والتعبير عن معارضتهم .

أصبح ابن الزبير لسان أبناء الصحابة الناطق ، ودعاهم معاوية الى مجلسه ، وقال لهم : قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم ، وحملى ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٢٦ – ٢١٧ .
(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ٢١٧ .

وتقسمونه ، لا يعارضكم فى شيء من ذلك . وسكت أبناء الصحابة ، فقد تعاهدوا أن يعبِّر ابن الزبير وحده عن آرائهم . وأدرك معاوية هذه الحقيقة ، فتوجه اليه بالحديث فقال : هات لعمرى انك لخطيبهم . فقال ابن الزبير : نعم ، نخيّرك بين ثلاث خصال . فقال معاوية : اعرضهن . فقال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر . فتساءل معاوية : ما صنعوا ؟ ! فأجاب ابن الزبير : قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر . فقال معاوية : ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف . فقال ابن الزبير : صدقت ، واصنع كما صنع أبو بكر ، فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أمية فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أمية . فقال معاوية : هل عندك غير هذا ؟ فأجاب ابن الزبير : لا [1] .

أدرك معاوية أن سياسة الحلم وبذل الأموال لم تعد تجدى ، فرأى أن يحيد عن هذه السياسة الى سياسة الشدة والحزم . فأمر معاوية المنادى أن ينادى فى الناس ليجتمعوا بالمسجد لأمر يهمهم ، فتوافدوا عليها ، وقصد الصحابة حول المنبر . ثم دعا معاوية صاحب حرسه وقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما .

---

(1) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٢١٧ .

ثم صعد معاوية المنبر وأخبر الناس أن أبناء الصحابة قد رضوا وبايعوا ليزيد ، ثم طلب منهم البيعة ، فبايع الناس كلهم . ثم ركب معاوية رواحله وغادر مكة الى المدينـــة حيث بايعه أهلها ، ثم غادرها الى الشام ، حيث بدأ سياسة جديدة تنطوى على مجافاة بنى هاشـــم .

عاب المؤرخون على معاوية أنه اختار ابنه يزيد دون سائر أبناء الصحابة ، رغم ما اشتهر به من لهو ولعب . ولكن معاوية كان مدفوعا فى اختيار يزيد بعاطفته الأبوية التى حجبت عنه كل عيوب ابنه . كما رأى أن يجنى ابنه ثمار جهوده التى بذلها ، فقد تولى امارة الشام عشرين عاما ، ثم تولى الخلافة عشرين عاما أخرى . وبرر معاوية ما أقدم عليه بقوله : « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيته من فضله فبلّغه ما أملت وأعنه ، وان كنت انما حملنى حب الوالد لولده وأنه ليس ما صنعت به أهلا ، فأقبض قبل أن يبلغ ذلك » (١) .

ولام الأمويون معاوية لأنه لم يختر أحد أولاد عثمان بدلا من يزيد ، فقال له سعيد بن عثمان بن عفان : « يا أمير المؤمنين علام تبابع ليزيد وتتركنى ، فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وأنك انما نلت ما أنت فيه بأبى » (٢) . فأرضاه

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٨٠ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٢٨ .

معاوية بأن ولاه حكم خراسان . كما لام بعض الأمويين معاوية لاغفاله مروان بن الحكم شيخ بنى أمية وأعلن مروان العصيان وقال : « .. فأقم الأمر يا بن أبى سفيان واهدأ من تأميرك الصبيان واعلم أن لك فى قومك نظرا وان لهم على مناوأتك وزرا » (١)

وهدأ معاوية من ثورة غضبه ومنّاه الأمانى فقال له : « .. فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفى كل شدة عضده ، واليك بعد عهده ، فقد وليتك قومك ، وأعظمنا فى الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ومحسن رفدك » (٢) . وأخذ عبد الله بن الزبير يرقب هذه الانقسامات بعين ملؤها السرور والحبور .

كان تحويل الخلافة من نظام الشورى والانتخاب الى نظام ملكى وراثى ، أمرا بدا غريبا فى نظر ابن الزبير ، وقد أبدى عجبه من أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ومعاوية لا يزال على قيد الحياة ، مما يتنافى مع التقاليد العربية القديمة ، فقال ابن الزبير : « أتريد أن تبايع ليزيد ؟ أرأيت ان بايعناه ، أيكما نطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ؟ ان كنت مللت الخلافة فأخرج منها وبايع ليزيد فنحن نبايعه !! » (٣) .

ويعلق المؤرخ السيد أمير على (٤) . على موقف ابن الزبير فيقول : وقد كان لعبد الله بن الزبير ، الذى يسميه معاوية ثعلب

(١) المصدر السابق .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٢٨ .
(٣) المصدر السابق حـ ١ ص ١٣٧ .
(٤) مختصر تاريخ العرب ص ٧٠ .

قريش ، عين ترنو الى الخلافة ، أما الباقون فكانوا يبغضون يزيد لهنات ينقمونها عليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان اهمال معاوية لرأى ابن الزبير ؛ وارغامه له على البيعة سببا فى خلق معارض شـديد البأس ، وسنرى كيف كان ابن الزبير شوكة دائمة فى جنب خلافة يزيد والدولة الأموية .

٥ - ثورة ابن الزبير على خلافة يزيد بن معاوية

ابن الزبير في وصية معاوية ليزيد

يزيد يحاول الفوز ببيعة ابن الزبير

ابن الزبير العائذ بالبيت

موقف ابن الزبير من ثورة الحسين بن علي

عوامل انتشار دعوة ابن الزبير

موقف أبناء الصحابة من الدعوة لابن الزبير

أهل المدينة يعلنون ولاءهم لابن الزبير

ثورة ابن الزبير على خلافة يزيد بن معاوية

ابن الزبير فى وصية معاوية ليزيد :

وُلد يزيد فى العام السادس والعشرين للهجرة ، وكان أبوه واليا على الشام فى عهد عثمان بن عفان . فشب فى وسط مظاهر المُلك والترف ، بعيدا عن بساطة الحجاز . وكان أبوه يرشحه للخلافة منذ حداثته ، فولاّه امارة الحج مرتين ، وولاه الصائفة مرة ، وأرسله فى الجيش الذى غزا القسطنطينية .

ولما مرض معاوية مرضه الأخير ، وشعر بقرب وفاته ، أراد أن يوصى ابنه وولى عهده يزيد [١] . فأخذ يذكره بأنه قد مهّد له الطريق ، وذلّل له الصعاب ، فكفاه شر أعدائه الروم ، ثم رحل الى الحجاز فكفاه معارضة أبناء الصحابة ، وخلّف له دولة واسعة مترامية الأطراف ، فيقول معاوية : « يا بنى انى قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحد » [٢] .

وأراد معاوية أن يلخص لابنه يزيد حالة الأمصار الاسلامية وأهواءها فى كلمات موجزة ليتخذها دستورا ومنهجا له ، فوضع

(١) يذكر بعض المؤرخين أن يزيد كان غائبا وقت وفاة أبيه ، فعهد معاوية بوصيته الى الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وطلب منهما ابلاغها ليزيد عند عودته .

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٢ .

فى هذه الكلمات خلاصة خبرة أربعين عاما فى الامارة والخلافة .

ورأى معاوية أن يحــذر ولده من ثلاثة أشخاص ، فى مقدمتهم عبد الله بن الزبير ، وأخذ يحلّل نفسية كل منهم فى دقة تجعلنا نؤمن أن معاوية كان عالما بعلم النفس .

قال معاوية لابنه يزيد : « أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غلب . وانظر أهل العراق ، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الىّ من أن تشهر عليك مائة ألف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوّك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فأردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخــلاقهم . واننى لست أخــاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين [٣] فليس ملتمسا شيئا قبلك . وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وانا له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن أهل العراق تاركينه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فأصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير خبّ ضبّ ، فاذا شخص لك فالبدلة الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل واحقن دمــاء قومــك ما استطعت » [٢] .

---

(٣) وقذه الدين : شغله الدين .

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٢٣٨ (طبعة الحسينية) .

وهكذا مات معاوية وهو لا يزال على رأيه الأول فى عبد الله ابن الزبير ، وهو أنه العدو الأول ليزيد والبيت الأموى . وكان معاوية يرى أن ابن الزبير أكثر طموحا الى الخلافة من الحسين ابن على وعبد الله بن عمر ، فهو يقول لابنه يزيد « .. وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فان أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فظفرت به ، فقطعه اربا اربا .. » [1] .

يزيد يحاول الفوز ببيعة ابن الزبير :

كان همّ يزيد منذ أصبح خليفة المسلمين ، أن يأخذ البيعة من الأمصار الاسلامية فلبّت نداءه ، ولم يستعص عليه سوى بلاد الحجاز حيث يعيش أبناء الصحابة ، الذين نجحوا فى أن يجمعوا أهلها على آرائهم فى بيعة يزيد . وكما يقول المؤرخ الدينورى [2] « لم تكن ليزيد همّة الا بيعة هؤلاء النفر » .

كتب يزيد الى الوالى الأموى بالمدينة المنورة ؛ الوليد ابن عقبة بن أبى سفيان ، كتابين . أما الكتاب الأول ، فيخبره يزيد فيه بموت معاوية ويطلب منه أن يأخذ له البيعة من أهل المدينة عامة ومن أبناء الصحابة خاصة . وكان هذا الكتاب يسيل رقة وعذوبة ، فقد رأى أن يجرّب سياسة اللين والتسامح التى نصحه بها أبوه معاوية ، وقد تجدى أكثر مما تعود به سياسة العنف والشدة ، فيقول يزيد فى هذا الكتاب : « .. ان أهل قومنا ورجالنا

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٣ .
(٢) الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم والاستعداد بهم ، واتباع أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثال لديهم من الاقبال عليهم ، والتقبّل من محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قومنا من قبلك من رجالنا بيعة منشرحة بها صدوركم طيبة غليها أنفسكم . وليكن أول من بايعك من قومنا وأهلنا الحسين بن على وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر ، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة » [1] .

أما الكتاب الثانى ، فلم يكن سوى « صحيفة كأنها أذن الفأرة » [2] . وقد جاء فى هذا الكتاب ما أراد يزيد أن يسرّه لواليه ، مما لا يستطيع الجهر به للناس ، فهو يقول فيه : « أما بعد . فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » [3] .

فلما ورد هذان الكتابان على الوليد ، ذُهل لوفاة معاوية التى كانت مفاجأة له ، كما قدّر دقة موقفه وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، فرأى ألا يتحملها وحده ، بل رأى أن يشاركه فيها شيخ بنى أمية مروان بن الحكم ، ولو أن هذا لم يكن محبّبا الى نفسه فقد « كان الذى بينهما متباعدا » [4] فدعا الوليد مروان وأطلعه على الكتابين ، فأبدى مروان دهشته لنبأ وفاة معاوية ،

(١) الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٤٦ .
(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .
(٤) الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٠ (طبعة الحسينية) .

ثم أشار على الوليد برأيه : « أرى أن تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة ، فان فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وان أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية . فانهم ان علموا بموته وثب كل رجل بناحية وأظهر الخلاف ودعا الى نفسه — يقصد ابن الزبير والحسين — أما ابن عمر فلا يرى القتال ولا يحب أن يلى على الناس الا أن يدفع اليه هذا الأمر عفوا » [1] .

وأراد الوليد أن يأخذ البيعة من الحسين وابن الزبير باعتبارهما يتزعمان المعارضين . فبعث غلاما صغيرا هو عبد الله بن عمرو ابن عثمان يستدعيهما اليه ، فوجدهما فى مسجد المدينة . وأبدى الحسين وابن الزبير دهشتهما لهذه الدعوة ، وأخذا يفكران فى الدافع اليها ، حتى فطنا الى أن وفاة معاوية هى الدافع الوحيد . ولذا أخذا يفكران فى موقفهما من هذه الدعوة ، واتفقا على أن يذهب الحسين الى دار الوالى لاستطلاع الأمر ، فقد كان الوليد لا يجرؤ على أن يلحق الضرر بالحسين ، باعتباره حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وخشى الحسين أن يكون فى هذا الأمر مكيدة ، فاصطحب معه أهله ورجاله وطلب منهم أن ينتظروا بالباب ، وأن يعبئوه اذا استنجد بهم . ثم دخل الحسين على الوليد ، فقرأ له كتاب يزيد ونعى له معاوية ، ودعاه الى البيعة ليزيد . فترحم الحسين على معاوية ثم قال : أما البيعة فأنا مثلى لا يبايع سرا ، ولا يجترى

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٦ .

بها منى سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا » [1] .

وسمح الوليد للحسين بالانصراف ، ولامه مروان على ضياع هذه الفرصة ، وأشار عليه بحبس الحسين حتى يبايع والا ضرب عنقه [2] ولكن الوليد ، رغم انتمائه للحزب الأموى ، واخلاصه للخليفة ، أبى أن يقتل الحسين رضى الله عنه ، فقال لمروان : ويحك أتشير علىّ أن أقتل الحسين ؟ ! فوالله ما يسرّنى أن لى الدنيا وما فيها ، وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه الا خفيف الميزان يوم القيامة ! » [3] .

أما عبد الله بن الزبير ، فقد وعد الوليد بالحضور اليه ، ولكنه أسرع الى داره فكمن فيها متحرزا بأصحابه وأنصاره من أهل المدينة . وبعث الوليد فى طلبه مرات ، وكان ابن الزبير فى كل مرة يعدهم بالحضور ، حتى اذا استحثه أعوان الوليد قال ابن الزبير : والله قد استربت بكثرة الارسال وتتابع هذه الرجال ، فلا تعجلونى حتى أبعث الى الأمير من يأتينى برأيه وأمره . وبعث عبد الله أخاه جعفر بن الزبير الى الوليد فقال له : رحمك الله ، كف عن عبد الله فانك قد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك ، وهو آتيك غدا ان شاء الله ، فمر رسلك فلينصرفوا عنه [4] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٤٧ .
(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٥٠ .
(٤) الطبرى ، حـ ٤ ص ٢٥٢ .

وازاء الحاح الوليد وخوف عبد الله بن الزبير من لقائه ، رأى أن يرحل الى مكة حيث يجد الأمن والطمأنينة بجوار بيت الله الحرام ، وخرج عبد الله بن الزبير وأخوه جعفر ، وتجنبا الطريق المعتاد الذى يجتازه المسافرون من المدينة الى مكة عادة . وعلم الوليد برحيل ابن الزبير وأخيه ، فبعث بعض رجاله فى أثرهما للقبض عليهما ، ولكنهم أخفقوا تماما ، ولم يكرر الوليد المحاولة ، فقد انشغل بالحسين عن ابن الزبير .

وكان فرار ابن الزبير من وجه الوليد ، وعدم بيعته ليزيد ، مما مهد الطريق أمام نجاح دعوته . وبعد رحيل ابن الزبير ، تفرغ الوليد للحسين بن على ، فأخذ يبعث برسله لاستدعائه ، والحسين فى كل مرة يعدهم بالحضور فى صباح اليوم التالى . ولكنه كان قد انتوى أن يحذو حذو ابن الزبير فيرحل من المدينة الى مكة . ولم يجد الوليد من أبناء الصحابة سوى عبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، فاستدعاهما اليه ، فبايعا ليزيد كما بايع سائر الناس (١) . وقد أثار اخفاق الوليد فى الحصول على بيعة ابن الزبير والحسين غضب يزيد فعزله عن ولاية المدينة وأضاف حكمها الى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على مكة(٢).

ابن الزبير العائذ بالبيت :

وجد ابن الزبير فى مكة الأمن والطمأنينة التى افتقدها فى المدينة ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٤٨ .

لهم « أنا عائذ بالبيت » [1] حتى اذا شعر بقوته بدأ ينـاوىء الأمويين ، وبدا هذا واضحا فى أنه « لم يكن يصلّى بصلاتهم ، ولا يفيض بافاضتهم ، كان هو وأصحابه ناحية ، ثم يفيض بهم وحده ، ويصلى بهم وحده » [2] .

وقد رأى عمرو بن سعيد بن العاص ما حل بسلفه الوليد ابن عقبة نتيجة تساهله وتسامحه مع الحسين وابن الزبير . ورأى أن يتبع سياسة الشدة والعنف ، وأن يبدأ بابن الزبير . ووجد أن خير من يوليه الشرطة هو عمرو بن الزبير ، لما كان يعلمه من عدائه وكراهيته لأخيه عبد الله . وكان عمرو بن الزبير عند حسن ظن الوالى ، فأرسل الى نفر من أهل المدينة ، فضربهم ضربا شديدا لهواهم فى أخيه عبد الله ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابنه محمد ابن المنذر [3] .

ولم يكن اضطهاد عمرو بن الزبير أنصار أخيه مما يثنيه عن المضى فى مناهضة الدولة الأموية . فمنع الحارس بن خالد المخزومى نائب عمرو بن سعيد فى مكة من أن يصلّى بالناس [4] . وغضب الخليفة يزيد بن معاوية وأقسم ألا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير الا اذا أتى اليه وفى عنقه جامعة من فضة [5] .

---

(1) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٧ .
(2) الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٤ .
(3) ابن الأثير : العامل حـ ٤ ص ٨ .
(4) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٤٩ .
(5) الجامعة : هو ما يوضع فى العنق .

وأراد عمرو بن سعيد أن ينال رضا الخليفة فيقبض على عبد الله بن الزبير ويرسله الى الخليفة فى دمشق وفى عنقه جامعة من فضة . فبعث عمرو بن الزبير على رأس جيش للقبض عليه . ولم يرض مروان بن الحكم عن هذه السياسة ، رغم أنه كان شيخ بنى أمية فى الحجاز ، فتقدم مروان الى عمرو بن سعيد ينهاه عما شرع فيه ويقول : لا تغز مكة واتق الله ولا تحل حرمة البيت ، وخلّوا ابن الزبير فقد كبر هذا وله بضع وستون ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن .. فقال عمرو بن الزبير : والله لنقاتلنه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم . فقال مروان : والله ان ذلك ليسوءنى [1] .

وأدرك كثير من المسلمين خطورة غزو عبد الله بن الزبير فى مكة ، البلدة الحرام ، فتقدم أحد زعمائهم ، وهو أبو شريح الخزاعى الى عمرو فقال له : لا تغزو مكة فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (انما أذن لى بالقتال فيها ساعة من نهار ، ثم عادت كحرمتها بالأمس) . فقال له عمرو : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ !! [2] .

وتقدم عمرو بن الزبير فى مقدمة ألفى رجل قاصدا أخيه عبد الله بن الزبير ، غير عابىء بحرمة البيت الحرام ، أو بعاطفة الأخوة ، بل كان كل همه الانتقام من أخيه وارضاء الوالى الأموى . ويتضح ذلك فى خطاب عمرو بن الزبير الى أخيه عبد الله ، فقد

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٢٥٥ .
(٢) بن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٨ .

١

جاء فيه : « بر بيمين الخليفة ، واجعل فى عنقك جامعة من فضة لا ترى ولا يضرب الناس بعضهم بعضا ، واتق الله فانك فى بلد حرام » (١) .

وتحقق النصر لعبد الله بن الزبير ، فقد نجح هو وأنصاره من هزيمة جيش أخيه عمرو ، وألقى القبض عليه ، وحكم أنصاره عليه بالسجن .

كان يزيد بن معاوية قد اشتهر بين المسلمين بميله الى اللهو والترف والصيد . وقد استفاد ابن الزبير من هذه الصفات ، واتخذها سلاحا للدعاية ضد خلافة يزيد ، ولقيت هذه الدعاية ترحيبا كبيرا من المسلمين لما يعرفونه عن ابن الزبير من تقوى وزهد وصلاح . ونجح ابن الزبير فى أن يحرك العاطفة الدينية عند أهل الحجاز ، ثم عرف كيف يستخدمها فى تحقيق برنامجه السياسى .

واذا كانت نشأة ابن الزبير الدينية ، وبيئة الحجاز التى شب فيها ، قد أكسبته ما كان عليه من صلاح وتقوى ، فان يزيد بن معاوية قد نشأ فى بيئة مختلفة تماما ، مما كان له أكبر الأثر فى أخلاقه وطباعه . فقد وُلد يزيد من امرأة بدوية تزوج بها معاوية قبل توليته الخلافة ، غير أنها لم تحتمل المعيشة فى دمشق فردها معاوية الى أهلها ، فنشأ يزيد على ما عودته عليه أمه من حياة البدو ، وحب اللهو وعدم مراعاة القوانين (٢) .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٤١٧ .

وشب يزيد فى بيئة شامية تختلف تماما عن بيئة الحجاز التى عاش فيها عبد الله بن الزبير ، وشتان بين الحجاز حيث الزهد والتقشف والتمسك بتعاليم الاسلام وأحكامه ، وبين دمشق حاضرة الشام فى عهد البيزنطيين ، وقد نالت قسطا كبيرا من الحضارة والمدنية .

موقف ابن الزبير من ثورة الحسين بن على :

لما استقرت الخلافة لمعاوية ، كان الحسين يتردد عليه مع أخيه الحسن ، فيكرمهما معاوية ويحسن استقبالهما ، ويمنحهما الصلات والعطايا . ولما توفى الحسن ، كان الحسين يفد الى معاوية فى كل عام فيعطيه ويكرمه . واشترك الحسين فى الجيش الذى أنفذه معاوية لغزو القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية سنة ٥١ هـ .

وكان مروان بن الحكم شيخ بنى أمية فى الحجاز يدرك أن الحسين بن على لابد أن يخرج الى العراق حيث يعلن ثورته على الدولة الأموية ، فقال لمعاوية : تخرجه معك الى الشام فتقطعه عن أهل العراق وتقطعهم عنه . فقال معاوية لمروان : أردت والله أن تستريح منه وتبتلينى به ، فان صبرت عليه صبرت على ما أكره ، وان أسأت اليه كنت قد قطعت رحمه [١] . وكان معاوية اذا لمس مراسلة أهل العراق للحسين يرسل له الكتب يذكره ببيعته ويحذره فى رفق ، فيقول له : « ان من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٢ ص ١١٦ .

بالوفاء ، وقد أنبئت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعـوك الى الشقاق ، وأهل العراق قد جربت ، وقد أفسدوا على أبيك وأخيك ، فاتق الله واذكر الميثاق » [1] .

وجعل معاوية للحسين بن على نصيبا فى وصيته لابنه يزيد فقال عنه : « أنظر حسين بن علىّ بن فاطمة بنت رسول الله ، فانه أحب الناس الى الناس ؛ فصل رحمه وارفق به ، يصلح لك أمره ، فان يكن منه شىء فانى أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .. » [2] .

ولما توفى معاوية وخلفه يزيد ، عارض الحسين ، كما عارض ابن الزبير ، البيعة له . وحذا الحسين حذو ابن الزبير ، فرحل من المدينة الى مكة ، حيث أقبل أهلها عليه مرحبين متبركين .

ورأى ابن الزبير التفاف المسلمين حول الحسين الذى نجح فى تحريك عاطفتهم الدينية . وبحث ابن الزبير عن طريق آخر — غير طريق القرابة من الرسول — ليحرك عاطفة المسلمين الدينية ، حتى تنجح سياسته . فكان أن لاذ بالكعبة وسمى نفسه (العائذ بالبيت) وقام يصلى بجوار الكعبة ليلا ونهارا ، فيطيل السجود ، ويكثر من التسبيح وذكر الله ، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه . وكان وجود ابن الزبير الى جوار الكعبة يتيح له فرصة اجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون الى الكعبة

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٦٢ .
(2) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٦٢ .

للطواف والتبرك بها وأداء العمرة ، حيث يبث دعوته السياسية فيهم ، ويثير فيهم روح السخط على خلافة يزيد .

وأدى انتصار عبد الله بن الزبير على جيش أخيه عمرو ابن الزبير الذى بعثه الوالى الأموى لقتاله الى ازدياد أنصاره ، واشتهر أمره وذاع صيته فى بلاد الحجاز جميعها . ولكن كان الحسين بن على منافسا خطيرا له ، فقد التف حوله كثير من المسلمين . وان كان الحسين وابن الزبير يتفقان فى معارضة الخلافة الأموية ، الا أنهما اختلفا فى الوسيلة .

وصف المؤرخ ابن كثير (١) الموقف فى مكة ، فقال : « انتصر عبد الله بن الزبير على من أراد هلاكه من اليزيديين ، وضرب أخاه عمرا وسجنه واقتص منه وأهانه ، وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز ، فاشتهر أمره وبعد صيته ، ومع هذا كله ليس هو معظما عند الناس مثل الحسين ، بل الناس انما ميلهم الى الحسين لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه » .

وشعر ابن الزبير بمنافسة الحسين ، ولكنه كان صديقا حميما له ، وحرص دائما على الابقاء على صـلات المودة والصداقة ، ما دام يجمعهما هدف مشترك . وكان ابن الزبير ممن يفدون على الحسين ، ويجلسون اليه ، ويستمعون الى حديثه .

رأت شيعة العراق أن الفرصة قد حانت لاحيـاء الخلافة

---

(٢) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٥٠ .

العلوية ونقل حاضرة الخلافة الى الكوفة ، فاجتمعت الشيعة فى منزل زعيمهم سليمان بن صرد واتفقوا على « أن يكتبوا الى الحسين يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر اليه ، ويطردوا النعمان بن بشير » (1) . وتتابعت كتب أشراف الكوفة على الحسين حتى بلغت خمسين كتابا . وأمام هذه الكتب والوعود ؛ رأى الحسين أن يستجيب للدعوة ، ولكنه أراد أن يتحقق من صدق مقالة الشيعة ، فرأى أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم ابن عقيل بن أبى طالب ليمهد له الطريق ويعرف أهواء الناس .

وقدم مسلم الى الكوفة . فالتفّت حوله الشيعة وبايعوه ، وساعد على نجاحه فى مهمته أن النعمان بن بشير والى الكوفة لم يبادر الى الضرب على أيدى الشيعة . ولكن بعض بنى أمية لم يعجبهم سكوت النعمان عن هذه الفتنة ، فكتبوا الى يزيد بأمره ، فعزله ، وولى عبيد الله بن زياد والى البصرة (2) . ونجح ابن زياد فى القبض على مسلم وقتله ، فقد ألقى به من أعلى قصر الامارة ، فمات ، ثم صلبه ، فكان « أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم » (3) .

ولما علم يزيد بمقتل مسلم ، كتب الى ابن زياد يثنى عليه ويخبره أنه علم بعزم الحسين على الخروج الى العراق ، ويأمره

---

(1) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٣ .
(2) الجهشيارى : الكتاب والوزراء ص ٣١ .
(3) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ٩ .

بصـــده عنها [1] . وهكذا انتهت الجولة الأولى لنزاع الشيعة بالعراق وبنى أمية بالشام بقتل مسلم ، وبقيت الجولة الثانية والتى ستنتهى بقتل الحسين ، فيتم النصر لبنى أمية .

خــرج الحسين من مكة الى الكوفة فى ٨ من ذى الحجــة سنة ٦٠ هـ وحاول الكثيرون أن يثنوه عن عزمه ويذكروه بتخاذل أهل الكوفة عن نصرة أبيه وأخيه ، ولكنه أصر على الرحيل ، وعندما بلغ القادسية علم بقتل مسلم فآثر العودة ، ولكن اخوة مسلم أصرّوا على السير قدما للأخذ بثأره . وأرسل ابن زياد عمر بن سعد بن أبى وقاص لقتال الحسين ولكنه تباطأ فى قتاله ؛ فبعث شمر بن ذى الجوشن والحصين بن نمير وشبث بن ربعى فى جيش عدته عشرون ألفــا ما بين فارس وراجل [2] ، ليقاتلوا الحسين وكان فى تسعين نفسا ما بين رجل وامرأة وطفل . وقاتلهم الحسين فى كربلاء حتى قتل [3] .

لا شك أن ابن الزبير قد استفاد من مصرع الحسين بن على . فقد أثارت فاجعة كربلاء مشاعر المسلمين فى كل مكان ، وجعلتهم يسخطون على يزيد بن معاوية والدولة الأموية ، وتعالت أصوات الاحتجاج والمعارضة ، ونجح ابن الزبير فى أن يجمع هــؤلاء الساخطين حوله ويؤلف منهم حزبا قويا متماسكا . وهذا ما جعل بعض المؤرخين يذهبون الى أن ابن الزبير كان قرير العين اذ غادر الحسين مكة ، وأنه شجعه على الخروج الى الكوفة .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢١٣ .
(٢) ابن الصباغ : الفصول المهمة ص ١٥٧ .
(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ٢ ص ٦ .

ولكن المؤرخ الطبرى [1] وهو من ثقاة المؤرخين ، يذكر أن ابن الزبير عرض على الحسين أن يقيم فى مكة ولا يرحل الى الكوفة ، وعرض عليه تقديم المساعدة ، فيذكر الطبرى أن ابن الزبير كان يقول للحسين : ان شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر ، فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك . فقال له الحسين : ان أبى حدثنى أن بها كبشا يستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش . فقال له ابن الزبير : فأقم ان شئت وتولينى أنا الأمر فتطاع ولا تعصى . فقال الحسين : وما أريد هذا أيضا .

وهكذا عرض ابن الزبير على الحسين خدماته وجهوده ، بل عرض عليه أن ينضوى تحت رايته وأبدى له استعداده لمبايعته ، ولكن الحسين أبى ذلك برغم الحاح ابن الزبير ، وأصر على الرحيل الى الكوفة . وكان الحسين يعتقد أن بقاءه فى مكة فيه هلاك له ، فكان يقول : « والله لأن أقتل خارجا منها بشبرين أحب الىّ من أن أقتل خارجا منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا بى حاجتهم ، والله ليعتدى علىّ كما اعتدت اليهود فى السبت » [2] .

ولم يكن خروج الحسين من مكة راجعا الى وجود ابن الزبير فيها ، انما كان ذلك لأن مكة لم تعد تصلح لأن تكون مركزا لحركة سياسية ، فقد غدت عرضة لغزوات الجيوش الأموية . فقد

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ١٧ .

بعث الخليفة يزيد بن معاوية بجيش لقتال ابن الزبير بقيادة عمرو ابن الزبير . ورأى الحسين أن وجوده بين شيعته بالكوفة قد يوفر له الأمن والطمأنينة ، ويهيىء لحركته السياسية سبل النجاح . الى جانب قلة موارد الحجاز ، بينما كانت بلاد العراق — كما وصفها أبوه — مورد المال والرجال .

حاول كثير من المسلمين [1] أن يحثوا الحسين على البقاء فى الحجاز ، فقال له عبد الله بن مطيع : فاياك أن تقرب الكوفة ، فانها بلدة مشئومة ، بها قُتل أبوك وخُذل أخوك واعتل بطعنة كادت تأتى على نفسه ، الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى اليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم فداك عمى وخالى ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك ! [2] .

استفاد ابن الزبير من بعض العيوب التى شابت تنظيم حركة الحسين السياسية ، فعمل ابن الزبير على تلافيها ، والاستفادة من تجارب الماضى .

كان الحسين وعبد الله بن الزبير زعيمى المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية ، وقد سبق الحسين صاحبه فى القيام بالدور الايجابى فى مقاومة البيت الأموى ، ولكن لم يقدر له النجاح واستشهد فى كربلاء . وخلفه ابن الزبير فى زعامة حركة المقاومة .

---

(١) ومنهم عبد الله ابن العباس ، وعمر بن عبد الرحمن بن الحرث وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهم .

(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ١٦ .

عزم ابن الزبير على أن يتخذ من الحجاز مركزا لحركته السياسية ، بعد أن لمس تخاذل الكوفة عن نصرة الحسين ، كما كان يعلم أن بلاد العراق كانت تزخر بالأحزاب الكثيرة المتنافسة المتناحرة ، وخاصة الشيعة والخوارج والمرجئة الى جانب حركات الموالى ، وغيرها . وأراد ابن الزبير أن يعمل بنصيحة عبد الله ابن مطيع للحسين حين نصحه بالمكوث فى الحجاز فقال له : الزم الحرم ، فانك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا . ولكن ابن الزبير لم يهمل أمر العراق ، فقد كان فى حاجة الى الرجال والأموال ؛ ولذا عمل على بسط نفوذه على بلاد العراق ، وان لم يرحل اليها أو يتخذها مركزا لحركته . وعمل ابن الزبير بنصيحة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب للحسين بن على اذ قال له : أقم فى هذا البلد — أى الحجاز — حتى ينفى أهل العراق عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، وكن عن الناس فى معزل ، وأكتب اليهم وبث دعاتك فيهم ، فانى أرجو اذا فعلت أن يكون ما تحب[1] . ولذا اهتم ابن الزبير بتنظيم دعوته ، وبث دعاته فى بلاد العراق .

استفاد ابن الزبير من نصائح بعض زعماء المسلمين للحسين ابن على . فقد قال عبد الله بن العباس للحسين : فان أبيت الا أن تخرج ، فسر الى اليمن فان بها حصونا وشعبا ، وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عند الناس فى عزلة ، فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعاتك . ولذا فان ابن الزبير حينما علم

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٦٠ .

بخروج بعض أهالى اليمن ومعارضتهم للدولة الأموية ، ناصرهم وأيدهم ، وقد وقفوا الى جانبه فى حصار مكة الأول .

أدرك عبد الله بن الزبير مدى تأثير ضعف الوالى الأموى أو قوته فى نجاح حركة سياسية أو اخفاقها . فقد كان تساهل والى المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان مع الحسين وابن الزبير مما جعلهما ينجوان من قبضته فيفران من وجهه الى مكة . بينما كان عمرو بن سعيد بن العاص واليا حازما ، وقد رأيناه يوجه جيشا بقيادة عمرو بن الزبير لقتال أخيه . وكان تساهل النعمان ابن بشير الوالى الأموى بالكوفة مما مهد الطريق أمام مسلم ابن عقيل مبعوث الحسين للفوز ببيعة أهل الكوفة . ولكن حزم عبيد الله بن زياد كان عاملا هاما فى مأساة كربلاء .

ولذا عمل عبد الله بن الزبير على أن يكون الولاة الأمويين فى بلاد الحجاز ممن تميزوا بالتساهل والتسامح . فقد أثار ابن الزبير عاصفة من الاشاعات جعلت الخليفة الأموى يزيد بن معاوية يعزل واليه عمرو بن سعيد بن العاص ويولى بدله الوليد بن عتبه ابن أبى سفيان وقد لمس ابن الزبير تساهله معه ومع الحسين ابن على . ولكن الوليد استفاد من تجارب الماضى ، فحاد عن تسامحه الى سياسة الحزم والشدة . ولجأ ابن الزبير الى الحيلة والدهاء ، فأوقع بين الوليد والخليفة يزيد ، فعزله يزيد وولى بدله عثمان بن محمد بن أبى سفيان وهو « فتى غر حدث غمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضرسه التجارب وكان

لا يكاد ينظر فى شيء من سلطانه ولا عمله » [1] . وكان ضعف هذا الوالى الجديد فى مقدمة العوامل التى ساعدت على نجاح حركة ابن الزبير .

اكتفى الحسين بأن أعلن الثورة على الدولة الأموية ، ولكنه لم يبايع لنفسه بالخلافة ، وربما لم تمهله الأيام حتى يأخذ البيعة من الناس . وكانت هذه البيعة تضفى على ثورته صبغة شرعية ضرورية لتوفر أسباب النجاح . ولذا بادر ابن الزبير بالبيعة لنفسه بالخلافة ليبدو أمام أنصاره كخليفة شرعى يدافع عن حقه فى الخلافة ، وليس ثائرا أو عاصيا . وبدا ابن الزبير فى خطبه ومكاتباته واثقا من نفسه ، مصرا على حقه ، متمسكا بخلافته . فكان يبدأ خطاباته للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بهذه العبارة : « من أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .. » .

عوامل انتشار دعوة ابن الزبير :

كان الحسين بن على وعبد الله بن الزبير زعيمى حركة المعارضة لخلافة يزيد بن معاوية خاصة ، وللخلافة الأموية عامة . حتى اذا استشهد الحسين ، قاد ابن الزبير لواء المعارضة . وتكاتفت عدة عوامل على انتشار دعوة ابن الزبير ونجاحها .

أولا : زهد الصحابة فى الخلافة : كان عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، ومحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، قد أبدوا معارضتهم لمعاوية حينما طالبهم بالبيعة

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٥ .

ليزيد ، كما تلكأوا فى البيعة بعد وفاة معاوية ، ولكن الوليد ابن عتبة نجح فى الحصول على بيعتهم أخيرا ، وركنوا الى الهدوء والطاعة ، حتى بعد مقتل الحسين ، فخلا الجو لابن الزبير .

ثانيا : تعدد ولاة الحجاز وضعف الحامية الأموية به : كانت الحامية الأموية فى الحجاز على درجة كبيرة من الضعف حتى أن عمرو بن سعيد بن العاص لم يجد من يرسله لقتال عبد الله ابن الزبير سوى أخاه عمرو بن الزبير ، فبعثه فى نفر قليل فكان مصيره الاخفاق . ولم يكن هؤلاء النفر من الجند المدربين على القتال ، بل كانوا من رجال الشرطة الذين لا يصلحون الا للقبض على الخارجين على القانون ، دون الخارجين على الدولة . وانّا لنعجب من سياسة معاوية نحو الحجاز ، فبينما نراه يعين دهاة العرب على الأمصار ، مثل المغيرة بن شعبة والى الكوفة وزياد بن أبيه والى البصرة ، نراه يهمل أمر الحجاز ، فيعيّن بعض الولاة الذين لا يتصفون بالعزم والحزم أمثال مروان ابن الحكم والوليد بن عتبة ، مكتفيا باخلاصهم للبيت الأموى الذى ينتسبون اليه . وأوقع معاوية بين هذين الواليين حتى شغلا بهذا النزاع عن تلك الحركات السياسية التى أخذت فى الظهور ، فلم يقضوا عليها وهى فى المهد . ثم زاد يزيد الطين بلّة ، فهو يغيّر ويبدّل فى ولاته ، مما أدّى الى اضطراب السياسة الأموية فى الحجاز

واذا أردنا دليلا على ضعف الحامية الأموية ، فاننا لا نجد

خيرا من اعتراف عمرو بن سعيد بن العاص الوالى الأموى ؛ فقد دافع عن نفسه أمام اتهام يزيد له بالاهمال فى القبض على ابن الزبير فقال : « ان جلّ أهل مكة وأهل المدينة كانوا قد مالـوا اليه — ابن الزبير — وحـووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم سرا وعلانية ، ولم يكن معى جند أقوى بهم عليه لو ناهضته .. » [1] . ويذكر المؤرخ فان فلوتن [2] أن الأمويين كانوا يختارون عمالهم وولاتهم من بين أولئك الممهدين فى النعمة والترف ، والذين تعودوا الاستمتاع بما فى الحياة من عبث ولهو دون أن يذوقوا عنـاء العمل ومشقته .

ثالثا : سياسة الأمويين الاقتصادية فى الحجاز : لا شك أن استقرار الأحوال الاقتصادية فى قطر من الأقطار ، يؤدى حتما الى استقرار الأحوال السياسـية فيه واذا علمنا أن البيئـة الحجازية فقـيرة ، لأدركنا أن أى نقص فى سـياسة الأمويين الاقتصادية نحو الحجاز سيؤدى حتما الى زيادة بؤس أهله . كما أن معاوية قد تعمّد اضعاف الحجاز سياسيا واقتصاديا ، فلم يبذل للحجازيين فى العطـاء ، مما اضطرهم الى بيع ممتلكاتهم التى اشتراها منهم بأبخس الأثمان . ولما ظهرت حركة ابن الزبير رأى أهل الحجاز أنها تخلصهم من هذه السياسة الأموية . قال بعض أهل المدينة : « .. ان هـذه الأمـوال كلها لنا ونالتنا المجاعة ؛

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٦٧ (طبعة الحسينية) .
(٢) السيادة العربية ص ٢٥ .

فاشتراها — يقصد معاوية — بجــزء من مئة من ثمنها » [1] .
وروى اليعقوبى [2] أنه حينما أرسل يزيد الى عبد الله بن عباس بعض المال مكافأة له على امتناعه عن البيعة لابن الزبير ، كتب اليه يقول : « .. فلعمرى ما تؤتينا مما فى يدك من حقنا الا القليل ، وانك لتحبس عنا منه العريض الطويل » . وحــاول يزيد أن يحسّن الأحوال الاقتصادية فكتب الى أهل المدينة : « .. فان أقرّوا بالطاعة ونزعوا من غيّهم وضلالهم ، فلهم علىّ عهد الله وميثاقه أن لهم عطاءين فى كل عام ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتى ، عطاء فى الشتاء وعطاء فى الصيف ، ولهم علىّ عهدان : أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا ، والعطاء الذين يذكرون أنه احتبس عنهم فى زمان معاوية فهو علىّ لهم وافرا كاملا [3] .. » .
وهذه الرسالة تدل على أن معاملة أهل الحجاز كانت تخالف معاملة الأمويين لأهل الشام .

رابعا : السخط العام على الحكم الأموى : تحولت الخلافة من طريق الشورى والانتخاب الى التعيين والوراثة مما أغضب كثيرا من المسلمين . كما استعان معــاوية ببعض الولاة قساة القلوب من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ، كما قصروا المناصب الهامة على الأمويين . فكره المسلمون الحكم الأموى ؛

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٥١ .
(٢) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٢٢١ .
(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٥١ .

وساعدوا كلَ الخارجين على الأمويين ، وفى مقدمتهم عبد الله ابن الزبير .

خامسا : عبث يزيد وتقوى ابن الزبير : كان ابن الزبير صالحا تقيا ، فكان كما وصفه المؤرخ ابن الأثير [١] : « .. فليله قائم حتى الصباح ، وليله راكع حتى الصباح ، وليله ساجد حتى الصباح » . أما يزيد بن معاوية فكان كما وصفه عبد الله بن الزبير : « يزيد الخمور ، ويزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القرود ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات » [٢] .

سادسا : مصرع الحسين : بعد مصرع الحسين فى كربلاء ، أظهر ابن الزبير دعوته ، فوقف يخطب فى المسلمين ، فهاجم يزيد فى أخلاقه وسجاياه واقباله على الملذات ، ثم بكى حسينا واستبكى الناس عليه ، ومدحه وأطنب فى مدحه ، وسبّ أهل الكوفة ولامهم على تخاذلهم عن نصرة الحسين [٣] . وما كاد ينتهى من خطبته حتى هبّ المسلمين طالبين منه أن يبايع لنفسه ، ولكنه رأى ألا يجيبهم الى ذلك . وربما كان يعتقد أن الوقت لم يحن بعد ليعلن نفسه خليفة ، وربما أراد أن يظهر للمسلمين زهده فى الخلافة . قال الطبرى [٤] : « فثار اليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا

(١) الكامل حـ ٤ ص ١٥٠ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف حـ ٤ ص ٣٠ .
(٣) انظر الخطبة فى تاريخ الطبرى حـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٤) تاريخ الطبرى حـ ٤ ص ٣٦٤ .

الأمر . قد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائذ بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا » .

ورأى ابن الزبير أن يكتفى بلقب (العائذ بالبيت) . ويروى ابن عساكر [1] ان سبب تمسكه بالاحتماء بالكعبة دون الخروج الى الأمصار الاسلامية فيقول : « الذى دعا عبد الله بن الزبير الى التعوذ بالبيت شيء سمعه من أبيـه حين سـار من مكة الى البصرة ، وذلك أن الزبير التفت الى البيت بعدما ودع وتوجه يريد الركوب ، وأقبل الى ابنه عبد الله وقال : أما والله ما رأيت مثلها لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

وما كادت أنباء التفاف الناس حول ابن الزبير وطلبهم منه البيعة لنفسه تصل الى أسماع الخليفة يزيد حتى استشاط غضبا ، وأقسم أن يوثقه فى سلسلة [2] . وعلم مروان بن الحكم ، شيخ بنى أمية بالحجاز ، بأمر هذه السلسلة من عامل البريد ، ورأى استحالة تنفيـذ طلب الخليفة ، فقـد استفحل شأن ابن الزبير وانتشرت دعوته ، ولذا رد السلسلة الى عامل البريد وأنشد :

خـذها فليست للعـزيز بخطة وفيها مقال لامرىء متضعف

وقد شهدنا بالأمس عمرو بن سعيد بن العاص ، والى يزيد ، يبدى شدة وحزما ، فبعث بجيش يقوده عمرو بن الزبير لقتال عبد الله بن الزبير . ولكنه اليوم رأى عدم جدوى انفاذ جيش لقتال ابن الزبير ، وتحقيق رغبة الخليفة فى أن يوثق ابن الزبير

(١) تاريخ ابن عساكر حـ ٧ ص ٤٠٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٤٣ .

فى سلسلة . فيقول المؤرخ ابن الأثير [1] : « وعمرو بن سعيد يومئذ عامل مكة ، وهو أشد شيء على ابن الزبير ، وهو مع ذلك يدارى ويرفق » .

ومن الطريف أن عمرو بن سعيد أراد أن يعرف ما تخبئه الأقدار لعبد الله بن الزبير . فكتب رسالة الى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان صديقا له ، وكان ابن عمرو قد قرأ كتب دانيال واشتهر بالعلم . فطلب عمرو منه أن يخبره عن مستقبل ابن الزبير . فكتب عبد الله بن عمرو اليه يقول : « لا أرى صاحبك الا أحد الملوك الذين تتم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك . فلم يزد عند ذلك الا شدة على ابن الزبير وأصحابه مع الرفق بهم والمدارة لهم »[2].

تلاقى عبد الله بن الزبير مع عامل البريد الذى بعثه يزيد بن معاوية . وأنذره عامل البريد أن مصيره سيكون مصير الحسين . فقال ابن الزبير له : ان الحسين بن على خرج الى من لا يعرف حقه ، وان المسلمين قد اجتمعوا على . فقال عامل البريد : فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك [3] .

موقف أبناء الصحابة من الدعوة لابن الزبير :

ورأى ابن الزبير أنه لابد من أن ينال بيعة هذين الزعيمين الكبيرين ، وكان لهما منزله كبرى بين أبناء الصحابة وأهل مكة .

(1) الكامل حـ ٤ ص ٤٣ .
(2) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) حـ ٢ ورقة رقم ٣٢ .
(3) تاريخ اليعقوبى حـ ٣ ص ٢٢٠ .

وبدأ بعبد الله بن عمر بن الخطاب . ولم تكن مهمة ابن الزبير معه سهلة ميسورة ، فقد بايع ابن عمر من قبل ليزيد بن معاوية ، وكان من العسير أن يقنع ابن الزبير ابن عمر أن ينكث بيعته ليزيد . والتقى ابن الزبير بزوجة ابن عمر ، وهى صفية بنت أبى عبيد الثقفى « وذكر لها أن خروجه كان غضبا لله ورسوله وللمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه يزيد بالفىء » . وطلب ابن الزبير من صفية أن تسأل زوجها البيعة له . وتحدثت صفية لزوجها ، فقال : أما رأيت بغلات معاوية التى كان يحج عليها الشهباء ، فان ابن الزبير ما يريد غيرهن [1] ! . يقصد أن ابن الزبير يرمى الى تولى الخلافة .

أما عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فكان قد بايع ليزيد ، فلم يشأ أن ينكث بيعته ، ولذا رفض البيعة لابن الزبير . فقد آثر السلامة والبُعد عن تيارات السياسة .

وكان لامتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير رنة فرح وسرور فى نفس الخليفة يزيد بن معاوية . فكتب يزيد له رسالة يشكره فيها ويعرض عليه أن يكون عونا له ضد ابن الزبير . ولكن امتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير لم يكن نتيجة اخلاصه ليزيد أو اقتناعه بأحقية بنى أمية بالخلافة . فقد كتب ابن عباس الى يزيد رسالة جاء فيها : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك بذكر دعاء ابن الزبير اياى الى نفسه وامتناعى عليه فى الذى دعانى اليه من

---

(١) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) حـ ٢ ورقة رقم ٣٢ .

بيعته ، فان يك ذلك كما بلغت فلست حمدك أردت ولا ودك .. وسألتنى أن أحث الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير ، فلا ولا سرورا ولا حبورا ، وأنت قتلت الحسين بن على .. » [1] .

وشاءت الأقدار أن تساعد ابن الزبير ، فان الوليد بن عتبة ابن أبى سفيان ، لم ينس أنه كان واليا على المدينة فترة طويلة فى عهد معاوية ، وأن يزيد قد عزله عنها لاتهامه بالتساهل مع ابن الزبير والحسين ، ورأى أن ولاية عمرو بن سعيد قد طالت ، وبدأ يتطلع الى العودة الى الحكم ، فبعث الى يزيد يتهم عمرا بالتهاون فى مناهضة ابن الزبير . وكانت كل الشواهد تدل على صدق هذا الاتهام ، فاستجاب يزيد له وعزل عمرو بن سعيد وعيّن الوليد بن عتبة بدله . وخرج عمرو الى الشام ولقى الخليفة ، وأخذ يدافع عن نفسه . وهذا الدفاع خير ما يصوّر لنا مقدار اتساع حركة ابن الزبير ونجاحها ، فيقول : « يا أمير المؤمنين ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . وان جل أهل مكة والحجاز قد كانوا مالوا معه ، وهووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم اليه بعضا سرا وعلانية ، ولم يكن معى جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرنى فيحترز منى . وكنت أرفق به وأداريه لأستمكن منه فأثب عليه ، مع أنى قد ضيقت عليه وصنعته من أشياء كثيرة لو تركت وأتاها كانت له معونة . وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا الى باسمه واسم أبيه

(١) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٢٢١ .

ومن أى بلد هو وما جاء به وما يريد . فان كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغرا فان كان ممن لا أتهم خليت سبيله . وقد بعثت الوليد وسآتيه من عمله وأثره ما لعلك تعرف به فضل مبالغتى فى أمرك ومناصحتى لك ، والله لا يضيع لك وبكيت عدوك يا أمير المؤمنين » (١) .

قصد الوليد بن عتبة المدينة وأراد أن يثبت للخليفة أنه أبعد همّة من سلفه عمرو بن سعيد ، ولكن ابن الزبير أدرك حماسته ووقف على أغراضه . فكان كلما طلبه الوليد تمنّع واحترز فلا يستطيع اليه سبيلا . وشاءت المقادير أن تجعل الوليد بين نارين : ابن الزبير الذى أخذت حركته تزداد يوما بعد يوم ، ونجدة بن عامر الحنفى الذى ثار باليمامة بعد مصرع الحسين ، وخالف يزيد ولم يخالف ابن الزبير وان لم ينطوى تحت لوائه (٢) . ولكن نجدة كان « يلقى ابن الزبير فيكثر محادثته حتى يظن الناس أنه سيبايعه » (٣) .

ورأى عبد الله بن الزبير أن يقاوم الوليد بن عتبة بالمكر والحيلة ، فكتب الى الخليفة يزيد بن معاوية : « انك بعثت الينا رجلا أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوى لعظة الحكيم ، ولو بعثت الينا رجلا سهل الخلق ليّن الكتف ، رجوت أن يسهل

---

(١) الطبرى حـ ٣٦٧ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ٢١٥ .
(٣) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) حـ ٢ ورقة ٣٢ .

من الأمور ما أنت وعر منها وأن يجتمع ما تفرق . وانظر فى ذلك ، فان فيه صلاح خواصنا وأعوامنا ان شاء الله والسلام » .

وجازت حيلة ابن الزبير على يزيد ، فعزل الوليد بن عتبة عن المدينة بعد أن تولى حكمها فترة طويلة فخبرها ووقف على أحوالها . وولى يزيد بدله عثمان بن محمد بن أبى سفيان وقد وصفه المؤرخ ابن الأثير [1] بأنه « فتى غر حدث غمر لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ، لا يكاد ينظر فى شيء من سلطانه ولأعماله » .

هدف يزيد من عزل يزيد تغيير سياسة العنف والشدة التى اتبعها عمرو بن سعيد والوليد بن عتبة بعد أن رأى اخفاق هذه السياسة . ورأى يزيد أن يجرّب سياسة جديدة تقوم على اللين والحكمة . ولكن الوالى الجديد عثمان بن محمد لم يكن جديرا بنصبه كما أجمع المؤرخون . وبدأ عثمان عهده بأن أرسل وفدا من أهل المدينة الى يزيد ، وظن أن اكرام يزيد لهم يقنعهم بأحقيته بالخلافة دون عبد الله بن الزبير ، فيعود أهل المدينة ويكونوا لسانا ناطقا معبرا عن رغبات يزيد ، ويناهضوا دعوة ابن الزبير .

أهل المدينة يعلنون ولاءهم لابن الزبير :

قدم وفد أهل المدينة على الخليفة يزيد فى دمشق ، وترأس الوفد عبد الله بن حنظلة الغسيل ، والمنذر بن الزبير ، وعبد الله ابن أبى عمرو بن خوص وهم مَن أشراف المدينة . وبالغ يزيد فى

---

(1) الكامل حـ ٤ ص ٤٤ .

الحفاوة بهم واكرامهم ، ولكنهم ما كادوا يعودون الى المدينة حتى بادروا الى هجاء يزيد والتشهير به ، فقالوا : انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان ، وانا نشهدكم انا قد خلعناه [1] .

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل ، أحد رؤساء الوفد ، فقال : جئتكم من عند رجل لو لم أجد الا بني هؤلاء ، لجاهدته بهم ، فقد أعطاني وأكرمني ؛ وما قبلت منه عطاءه الا لأتقوى به ! وأعلن أهل المدينة أنهم يخلعون طاعة يزيد [2] .

أما المنذر بن الزبير ، فانه لم يرجع الى المدينة ، بل ذهب الى زيارة صديقه الحميم القديم عبيد الله بن زياد بالعراق . ولما علم الخليفة يزيد بموقف أهل المدينة منه ، أرسل الى ابن زياد يأمره بسجن المنذر . ولكن ابن زياد خالف أمر الخليفة ويسّر للمنذر سبل الفرار .

وهذا يدل دلالة واضحة على ضياع رهبة الخليفة يزيد من قلوب ولاته ، واستهانتهم بأوامره . وكان ابن زياد من أخلص الولاة الأمويين .

وما كاد المنذر بن الزبير يعود الى المدينة حتى أخذ يحرض الناس على يزيد ، فقال : انه قد أجازني بمائة ألف ؛ ولا يمنعني

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٣٦٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٤٥٠ .

ما صنع به أن أخبركم خبره ، والله انه ليشرب الخمر ، والله انه ليسكر حتى يدع الصلاة (1) .

حاول محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، أن يدافع عن يزيد بن معاوية ، مما أثار غضب أهل المدينه ، وظنوا أنه فى دفاعه عن يزيد انما يكره الدعوة الزبيرية ، فعرضوا عليه أن يولوه حكم المدينة ، فأبى ابن الحنفية ذلك ، بل رحل عن المدينة الى مكة .

غضب الخليفة يزيد بن معاوية لتنكر أهل المدينة له ، واقدامهم على سبه وشتمه ، وأراد أن يحذرهم ويهديهم الى سواء السبيل ، فبعث مندوبا عنه هو النعمان بن بشير الأنصارى ، وقال يزيد له : آت الناس وقومك فردهم عما يريدون فانهم ان لم ينهضوا فى هذا الأمر لم يجترىء الناس على خلافى وبها من عشيرتى من لا أحب أن ينهض فى هذا الفتنة فيهلك .

وقدم النعمان بن بشير الى المدينة ، ودعا الناس اليه ، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، ووضح لهم أنه لا طاقة لهم بأهل الشام . فقال له عبد الله بن مطيع : ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا ؟ وقام عراك شديد بين أهل المدينة والأمويين الذين قدموا مع النعمان .

وعاد النعمان الى دمشق وقد أخفق فى مهمته تماما ورأى يزيد أن يعيد الكرة ، فينذر أهل المدينة ويحذرهم وينصحهم .

---

(1) المصدر السابق .

فكتب رسالة الى أهل المدينة ، وأمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأها عليهم ، وفى ختام الرسالة يهدد يزيد أهل المدينة فيقول : « .. فوالله لئن وضعتكم تحت قدمى لأطأنكم وطأة أقيل بها عدوكم وأتركم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود وأنه لا يأتينى منكم أدل على خلافكم .. » . ولكن أهل المدينة ما كادوا يسمعون هذه الرسالة حتى انهالوا على الوالى والخليفة شتما وسبّا .

اتفق أهل المدينة على خلع طاعة الخليفة يزيد بن معاوية ، وثاروا على الوالى الأموى عثمان بن محمد وعلى الأمويين المقيمين فى المدينة وكان عددهم ألف رجل ، فاضطروا جميعا الى الاحتماء ببيت مروان بن الحكم شيخ بنى أمية . وبعث الأمويون رسالة الى الخليفة يزيد يستنجدون به . وما لبث أهل المدينة أن طردوا الأمويين عن بلدتهم ، وخرج وراءهم الصبيان وسفهاء الناس يرمونهم بالحجارة .

وقرأ يزيد رسالة الأمويين فثار غضبه وأيقن أن سياسة اللين والتسامح لم تعد تجدى مع أهل المدينة ، ورأى أن يحيد عنها الى سياسة الحزم والعنف ، وأنشد هذا البيت :

لقد بدلوا الحلم الذى من سجيتى
فبدلت قومى غلظة بليان

وكان هذا ايذانا ببداية دور جديد ، فقد بدأت المقاومة الايجابية لعبد الله بن الزبير ، وبدأت هذه المقاومة بواقعة الحرة ، وانتهت بحصار ابن الزبير فى مكة .

٦- خلافة ابن الزبير وسيطرته على الدولة الإسلامية

مقاومة يزيد الإيجابية لدعوة ابن الزبير.

واقعة الحرة

غزو ابن الزبير فى الكعبة

الأمويون يعرضون الخلافة على ابن الزبير

نقد وتحليل لرفض ابن الزبير الخلافة الأموية

تنازل معاوية الثانى عن الخلافة

البيعة لابن الزبير بالخلافة

بيعة الحجاز لابن الزبير

بلاد العراق تبايع لابن الزبير

البيعة لابن الزبير فى مصر

البيعة لابن الزبير فى الولايات الإسلامية

نفوذ ابن الزبير بالشام

مؤتمر الجابية

خلافة ابن الزبير وسيطرته على الدولة الاسلامية

مقاومة يزيد الايجابية لدعوة ابن الزبير :

رأى يزيد أن سياسة الحلم واللين لم تعد تجدى ؛ ورأى العودة الى سياسة العنف والشدة . فقد لمس اتساع نطاق الحركة الزبيرية ، فقد نجح عبد الله بن الزبير فى السيطرة على بلاد الحجاز. كما أن أهل المدينة قد تمادوا فى عصيانهم لخلافته وأوقعوا الأذى بالأمويين بالمدينة .

تحدث المؤرخ المسعودى [1] عن خلع أهل المدينة طاعة يزيد ابن معاوية وولائهم لعبد الله بن الزبير ، فقال : « ولما شمل الناس جور يزيد وعماله وعمهم ظلمه .. أخرج أهل المدينة عامله عليهم — وهو عثمان بن محمد بن أبى سفيان — ومروان بن الحكم وسائر بنى أمية ؛ وذلك عند تمسك ابن الزبير واظهار الدعوة لنفسه ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ، وكان اخراجهم لما ذكرنا من بنى أمية وعامل يزيد عن اذن ابن الزبير ، فأغتنمها مروان منهم اذ لم يقبضوا عليهم ويحملوهم الى ابن الزبير فحثوا السير نحو الشام » .

---

(١) مروج الذهب حـ ٣ ص ١٦ — ١٧ .

تعجب يزيد من اقدام الأمويين على الفرار من المدينة دون الدفاع عن مصالحهم ، فسأل رسول بنى أمية اليه : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ؟ قال : بلى والله وأكثر . فقال يزيد : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ؟ فأجاب الرسول : يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم فلم يكن يجمع الناس طاقة [1] .

رأى يزيد أن يبعث جيشا آمويا للقضاء على حركة عبد الله ابن الزبير فى الحجاز ، فيبدأ الجيش باخضاع المدينة ، ثم يواصل الزحف الى مكة معقل ابن الزبير .

وفكر يزيد فيمن يوليه قيادة هذا الجيش ، فاختار عمرو بن سعيد ولكنه رفض قيادة الجيش ، وقال : « فقد كنت ضبطت لك الأمور والبلاد ، فأما الآن اذا صارت دماء قريش تهرق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك » [2] . فاختــار يزيد واليه بالعــراق عبيد الله بن زياد ولكنه أبى أن يقود الجيش أيضا وقال : والله لا جمعتها للفاسق ، أقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو مدينته والكعبة [3] ! .

وتذكر يزيد وصية أبيه معاوية له ؛ فقد قال معاوية : ان لك من أهل المدينة يوما ؛ فان فعلوا فأرمهم بمسلم بن عقبة فانه رجل قد عرفت نصيحته . واستدعى يزيد مسلم بن عقبة ، فهرع اليه

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٣٧٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٤٨ .
(٣) الفخرى ص ١٠١ .

رغم مرضه وشيخوخته ، وأمره يزيد أن يسرع فى التوجه الى الحجاز لنجدة الأمويين هناك .

تردد كثير من أهل الشام فى الانضمام الى جيش مسلم لغزو الحجاز وقتال ابن الزبير . فبعث مسلم مناديه ينادى فى طرقات دمشق : سيروا الى الحجاز على أخـــذ أعطياتكم كملا ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته . وخـــرج مسلم فى اثنى عشر ألف جندى [1] .

واقعــة الحرة :

انفرد يزيد بقائده مسلم بن عقبة فرسم له خط سيره وسياسته مع ابن الزبير ، فقال : ان حدث بك حدث فأمر الجيش الى حصين ابن نمير ، فانهض باسم الله الى ابن الزبير ، واتخذ المدينة طريقا اليك ، فان صدّوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم وانهبها ثلاثا ، فاذا قدمت المدينة فمن عاقك عن دخولها أن نصب لك الحرب فالسيف السيف ، اجهز على جريحهم واقبل على مدبرهم ، واياك أن تبقى عليهم ، وان لم يتعرضـــــوا لك فامض الى ابن الزبير [2] . ثم خرج يزيد يستعرض الجيش ثم أنشد :

أبلغ أبا بكر اذا الليـــل سرى   وهبط القوم على وادى القرى

أجمع سكران من القوم ترى   أم جمع يقظان نفى عنه الكرى

أما أبو بكر ، فهو عبد الله بن الزبير . أما السكران ، فيقصد يزيد به نفسه ، مثلما كان ابن الزبير يسميه دائما .

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٤٨ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ١ ص ١٥٢ .

وعلم أهــل المدينة بمسير مسلم بن عقبة اليهم ، فحاصروا الأمويين فى دار مروان بن الحكم ، وهددوهم بالقتل ان امتنعوا عن أن يقسموا لهم ألا يغدروا بهم أو يطلعوا الجيش الأموى على أحوالهم . وسمح أهل المدينة لهم بالرحيل ، فخرجوا عن المدينة حتى قدموا على الجيش الأموى . وحاول مسلم أن يقف منهم على أحوال المدينة ، ولكن عمرو بن عثمان بن عفان رفض اذ تعهد لأهل المدينة ألا يغدر بهم . أما مروان بن الحكم فلم ير بأسا من احاطة مسلم علما بكل ما أراد معرفته .

وقدم مسلم الى المدينة ، فأمهل أهلها ثلاثة أيام ، ثم سألهم عما عزموا عليه ، فأعلنوا اصرارهم على القتال وكانوا قد اتخذوا خندقا كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وأبدى أهل الشام حرجا فى قتال اخوتهم المسلمين من أهل المدينة ، فأخذ مسلم يثير حماستهم ، ونجح الجيش الأموى فى هزيمة أهل المدينة ، ثم بدأ الأمويون ينكلون بأعدائهم ، ووصف المؤرخون الكثير من أعمال العنف والقسوة ، فيذكرون أن الأمويين أحرقوا معظم أحيـاء المدينة ، وقتلوا النساء والأطفال ، ونهبوا المنازل . فيذكر المؤرخ الطبرى : « وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون الأمـوال فأفزع ذلك من كان بها من الصـحابة [1] . وقال اليعقوبى [2] : « فلم يبق بها كثير أحد الا قتل » ويعدد ابن قتيبة

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ٥١ .

(٢) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٢٢٣ .

قتلى الحرة فيقول : « قتل يوم الحرة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا ، ولم يبق بدرى بعد ذلك ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالى والعرب عشرة آلاف » وتحدث ابن الأثير [١] عن معاملة مسلم لأهل المدينة فقال : « دعا مسلم الناس الى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهلهم من شاء فمن امتنع من ذلك قتله » .

غزو ابن الزبير فى الكعبة :

لما فرغ مسلم القائد الأموى من تأديب أهل المدينة على هذا النحو ، قصد ابن الزبير الذى كان قد تحصن فى مكة . وغادر مسلم المدينة بعد أن استخلف عليها روح بن زنباع الجذامى . ولكنه فى الطريق ثقل عليه مرضه ، وشعر بدنو أجله ، فدعا اليه حصين بن نمير وعهد اليه بقيادة الجيش كما أمره الخليفة يزيد بذلك . ثم قال مسلم : اللهم انى لم أعمل قط بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله عملا أحب الىّ من قتل أهل المدينة ولا أرجى عندى فى الآخرة [٢] .

وما كاد عبد الله بن الزبير يعلم بقدوم الحصين بن نمير عليه حتى تحصّن فى الكعبة ، بعد أن أحكم مراصد مكة . وأبدى المسلمون جميعا سخطهم لاقدام الجيش الأموى على غزو الكعبة ومكة . وبدا هذا السخط واضحا فى قدوم كثير من النجدات

---

(١) الكامل حـ ٤ ص ٥١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٥٢ .

من كل مكان . فجاءه أهل المدينة الذين نجوا من قبضة مسلم ابن عقبة . ثم جاءه نجدة بن عامر الحنفى الذى ثار فى اليمامة على الحكم الأموى [1] . وقدم الخوارج الأزارقة على ابن الزبير يريدون مؤازرته ، فقبل مساعدتهم برغم مخالفتهم له فى مبادئه . كما انضم الى ابن الزبير شخصية كبيرة من أبرز شخصيات ذلك العصر ، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى . وأخيرا جاءت الى ابن الزبير نجدة لم يكن يتوقعها وقد انفرد المؤرخ البلاذرى [2] بذكر خبرها ، فقال : « أرسل النجاشى جماعة من الحبش للدفع عن الكعبة ، وأعان ابن الزبير بهم فضمهم الى أخيه مصعب ابن الزبير فكانوا يقاتلون معه » .

ثم بدأ القتال بين جيش ابن الزبير والجيش الأموى . فخرج المنذر بن الزبير فبارز رجلاً من أهل الشام ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة أدت الى موتهما . واستمر القتال بين الفريقين بقية شهر المحرم ، وشهر صفر كله ، حتى اذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، رمـوا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار [3] .

وكان عبد الله بن عمير الليثى ، قاضى ابن الزبير ، اذا توقف القتال فترة بين الفريقين ، يصعد الى الكعبة فينادى بأعلى صوته : يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذى كان مأمنا فى الجاهلية

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ ص ١٦٥ .
(٢) انساب الأشراف ، القسم الثانى من حـ ٤ ص ٥١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٥٢ .

يأمن فيه الطير والصيد ، فاتقوا الله يا أهل الشام . فصيح جند الشام : الطاعة الطاعة ، الكرة الكرة ، الرواح قبل المساء . وما لبثت أن اشتعلت النيران فى الكعبة (١) .

الأمويون يعرضون الخلافة على ابن الزبير :

ظل جيش الحصين بن نمير يحاصر ابن الزبير حتى كان اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ حيث توفى الخليفه يزيد ابن معاوية . وقد علم عبد الله بن الزبير بهذا النبأ قبل أن يعلم به الجيش الأموى ، فناداهم ابن الزبير فقال : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ ! فلم يصدق حصين بن نمير مقالته وظن أنها خدعة . ولكن سرعان ما جاء نبأ ذلك من الشام فلما تحقق حصين من موت الخليفة ، اتفق مع ابن الزبير على عقد مؤتمر فى (الأبطح) .

التقى ابن الزبير بحصين بن نمير ، وكل منهما على صهوة جواده ، فراث فرس الحصين ، فجاء حمام الحرم يلتقط روثا الفرس ، فكف الحصين فرسه عن هذا الحمام وقال : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم . فقال ابن الزبير : تتحرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين فى الحرم ! .

عرض الحصين على ابن الزبير الخلافة على أن يخرج معهم الى دمشق بالشام حيث يتولاها هناك ، فقال الحصين : أنت أحق بهذا الأمر ، هلم لنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام ، فان هذا

---

(١) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ٢٢٤ .

الجند الذين معى من وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم . فقال له : أنا لا أهدر الدماء ؛ والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم . وأخذ الحصين يكلم ابن الزبير سرا وهو يجهر ويقول : والله لا أفعل . فقال له الحصين : قبّح الله من يعدك بعد هبا وآيبا ؛ فقد كنت أظن أن لك رأيا ، وأنا أكلمك سرا وتكلمنى جهرا ، وأدعوك الى الخلافة وأنت لا تريد الا القتل والهلكة [1] !!

أبدى ابن الزبير استعداده لقبول الخلافة على أن يتولاها فى الحجاز . فبعث الى الحصين يقول له : أما أن أسير الى الشام فلست فاعلا وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لى هنا فانى مؤمنكم وعادل فيكم . فأجاب الحصين : أرأيت ان لم تقـدم بنفسك ووجدت هنالك أناسا كثيرا من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس ما أنا صانع [2] !! .

نقد وتحليل لرفض ابن الزبير الخلافة الأموية :

عاب بعض المؤرخين على عبد الله بن الزبير أنه رفض ما عرضه الحصين عليه ، وظنوا أن الطريق قد أصبح ممهدا أمامه وأنه كان يستطيع الوصول الى الخلافة لو أنه استمع الى ما أشار به الحصين عليه . فقد مات الخليفة يزيد ، وخلفه ابنه معاوية الثانى

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٣ ص ٥٥ .
(٢) الطبرى حـ ٤ ص ٣٨٦ .

وقد كان صغير السن ضعيف الشخصية . وقد عرض قائد جيوش الشام على ابن الزبير الطاعة والبيعة ؛ وتعهد له بتمهيد الطريق . وفى مقدمة هؤلاء المؤرخين ابن الأثير [١] الذى قال : « ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد » . كما قال أبو الفدا [٢] : « ولو سار ابن الزبير مع الحصين الى الشام أو صانع بنى أمية ومروان لاستقر أمره » . وقال السيد أمير على [٣] : « ولو كان ابن الزبير قد غادر مكة وسارع الى الشام لاستطاع أن يقوض دعائم الأسرة الأموية ويستخلص الخلافة لنفسه ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم ويلموا شعثهم » .

ولكننا نؤيد ابن الزبير فى رفضه ما عرضه الأمويون عليه . فأهل الشام لا يدينون بالولاء الا للأمويين ، وليس لابن الزبير فى الشام عصبية وأنصار يعتمد عليهم كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيرا من الحكم الأموى ، وناصر الحجازيون ابن الزبير لأنه أصبح المعارض الوحيد للحكم الأموى ، فماذا يكون موقفهم منه لو رأوه يرحل مع الأمويين الى حاضرتهم وعلى رأس جيشهم ؟ لا شك أنهم كانوا يتخلّون عنه ، فيفقد بذلك أنصاره وجنده .

وكان ابن الزبير حريصا على مشاعر الحجازيين ؛ فهم أنصاره وعصبيته ، نرى هذا واضحا فى حواره مع الحصين ؛ فكان الحصين

---

(١) الكامل حـ ٤ ص ٥٥ .
(٢) المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ٧٥ .
(٣) مختصر تاريخ العرب .

يكلمه سرا بينما يجيبه ابن الزبير جهرا . ولم يكن ذلك سذاجة منه كما ظن الحصين ، فقد كان أنصاره يجلسون على مقربة منه ، فأراد أن يُسمعهم ما يسرّ خاطرهم ، فتعمّد أن يسمعهم قوله للحصين انه لا يرضى الا بقتل عشرة من أهل الشام مقابل كل رجل يقتل من أهل الحجاز . وكانت حركة ابن الزبير قبل كل شيء ، هى حركة الحجاز التى تهدف الى عودة الحاضرة والنفوذ الى الحجاز كما كانت الحال فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان .

ولم يكن ابن الزبير يأمن لوعود الحصين ، ذلك القائد الذى اشترك فى مذابح الحرّة والتنكيل بأهل المدينة ، ثم قدم يغزو الكعبة ، وقد يكون قد اعتقد أنها مكيدة جديدة . كما أن تعهد الحصين لابن الزبير بأخذ البيعة من أهل الشام له ليس كافيا ، فالحصين لا يمثل البيت الأموى ، ولم يكن لسان الأمويين الناطق بآرائهم . وكان هناك شيخ بنى أمية مروان بن الحكم الذى ما زال يترقب الفرص للوثوب الى عرش الخلافة .

تنازل معاوية الثانى عن الخلافة :

توفى يزيد بن معاوية وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، وخلفه ابنه معاوية الثانى ؛ ولم يتجاوز بعد الثامنة عشرة . وكان شابا ضعيفا ، غلب عليه الزهد والتقشف ، وكان يعتنق مبادىء القدرية ، ويعتقد أن معاوية سلب علىّ بن أبى طالب حقه فى الخلافة ، وأن أباه يزيد بالتالى لم يكن له حق فيها . فقد صعد

المنبر فقال : « أيها الناس ، ان جدّى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار فى قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياه . ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه . ان من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم وخرب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم » .

وهكذا زلزل معاوية الثانى أركان الدولة الأموية ، وسلب جدّه معاوية وأباه يزيد حقهما فى الخلافة ، وعدّد أخطاءهما بصورة كفت المعارضين الدولة الأموية وخاصة عبد الله بن الزبير مئونة مهاجمة الأمويين .

أراد معاوية الثانى أن يفسح المجال لخلافة ابن الزبير ، بدون قصد ، فنزل عن الخلافة ، كما أنه لم يعيّن من يخلفه ، كما لم يحدّد طريقة لاختيار خليفته [1] . وكانت أيام معاوية الثانى فى الخلافة أربعين يوما قضاها كلها فى فراش المرض . فبعد أن أظهر للناس زهده فى الخلافة ونزوله عنها ، لزم بيته ولم يخرج منه حتى وافاه الأجل .

شعر الأمويون بحرج موقفهم ، وخشوا أن يموت معاوية

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ٩ .

الثانى دون أن يعهد لأحد منهم بالخلافة ، فيتخذ ابن الزبير من ذلك فرصة سانحة لتحقيق أغراضه فيدب الشقاق بين أفراد البيت الأموى ، وتضطرب الأمور ويقدم الناس على البيعة لابن الزبير أميرا للمؤمنين ، فتوجهوا الى معاوية وألحوا عليه فى اختيار ولى لعهده لكنه أبى ذلك عليهم . وأبدى بنو أمية غضبهم عليه ؛ ويذهب بعض المؤرخين الى أنهم سمّوه ، ويذهب البعض الآخر الى أنهم طعنوه [1] .

كانت وفاة معاوية وعدم عهده بالخلافة لأحد من أفراد بيته ، سببا فى تفرق كلمة بنى أمية وانقسامهم على أنفسهم اذ تنافسوا على الخلافة وتهافتوا عليها تهافتا أدّى الى ضعفهم وعلو شأن عبد الله بن الزبير . ويصور المؤرخ المسعودى [2] تنافس الأمويين على الخـلافة ، وأثر ذلك فى تفرق كلمتهم ، فيقول انه لما مات معاوية الثانى « صلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ليكون الأمر من بعده . فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة ؛ فقدم عثمان بن عتبة بن أبى سفيان فقالوا : نبايعك ؟ قال : على أن لا أحارب ولا أباشر قتلا . فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ودخل فى جملة ابن الزبير » .

البيعة لابن الزبير بالخلافة :

كان أنصار ابن الزبير قد طلبوا منه فى خلافة يزيد أن يبايع لنفسه بعد مصرع الحسين ، فنصحهم بالتروى والانتظار ؛ فقد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ٢٣٧ .
(٢) مروج الذهب حـ ٣ ص ٢٠ .

كانت فى عنقه بيعة ليزيد ، وان كان ابن الزبير يستطيع أن يتحلل منها لأن معاوية أخذها منه تحت تهديد السيف ؛ الا أنه رأى ألا يتعجّل . وبعد وفاة يزيد جاءه الحصين بن نمير قائد جيش الشام وعرض عليه أن يبايعه ويسير معه الى الشام ، فأبى كل ذلك . وكان ابن الزبير طوال عهد يزيد لا يدعو الا للشورى ؛ وكان يلقب نفسه (العائذ بالبيت) . أما الآن فصار يدعو الناس الى بيعته ، ولقب نفسه (أمير المؤمنين) [1] .

وان كان ابن الزبير قد رأى بالأمس أن يتبع سياسة التأنى والروية ، فقد رأى اليوم أن يتبع سياسة العجلة وانتهاز الفرص ؛ فقد صارت الأمور ممهدة له : خليفة ضعيف كاره للخلافة ، وحزب أموى منقسم على نفسه ، وولاة طامعون فى الدولة ، ورعايا ساخطون على حكامهم . فأعلن ابن الزبير نفسه خليفة وسارع الناس الى بيعته . وصف البلاذرى [2] الموقف فقال : « فلما مات معاوية مال أكثر الناس الى ابن الزبير ، وقالوا هو رجل كامل السن ، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان ، وهو ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت أبى بكر بن أبى قحافة ، وله فضل فى نفسه ليس لغيره » .

بيعة الحجاز لابن الزبير :

أعلنت بلاد الحجاز خاصة وشبه الجزيرة العربية ولاءها لعبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . وبدأ ابن الزبير بأخذ البيعة

(١) اليعقوبى حـ ٣ ص ٢ .
(٢) أنساب الأشراف حـ ٤ ص ٦٥ .

من أهلَ مكة حيث كان يقيم بها ، فهرعوا الى بيعته . ثم طلب البيعة من أهل المدينة فكانوا كأهل مكة فى التسابق الى البيعة ، فقد تطلعوا الى الخلاص من الحكم الأموى ، وقد كانت فظائع الحرة لا تزال ماثلة فى أذهانهم .

وأراد ابن الزبير أن يرضى مشاعر أهل المدينة ، فكتب الى واليه الجديد الذى عهد اليه بحكم المدينة أن ينفى جميع الأمويين من المدينة ، فأخرجهم جميعا وسمح لهم بمصاحبة أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورحلوا الى دمشق بالشام . ولكن نفيهم وان أرضى أهل المدينة ، الا أنه أضر بمصالح ابن الزبير ، فقد أتاح لهؤلاء الأمويين أن يفروا من قبضته . فقد خرج هؤلاء الأمويين وعلى رأسهم شيخهم مروان بن الحكم حيث بدأوا ينسجون المكائد ضد ابن الزبير ، ويعملون على دفع مروان الى الخلافة فيخلقون منافسا كبيرا لابن الزبير .

ويرى المؤرخ اليعقوبى (1) أن نفى الأمويين من المدينة عاد بالضرر على الحركة الزبيرية ، فيقول « وأخذ مروان بالخروج فأتى عبد الملك ابنه وهو عليل مجدر . فقال له : يا بنى أن ابن الزبير قد أخرجنى . قال : فما يمنعك أن تخرجنى معك ؟ فقال : كيف أخرجك وأنت على هذا الحال ؟ قال : لفنى فى القطن فان هذا رأى لم يتعقبه ابن الزبير . فخرج وأخرج عبد الملك ، وتعقّب ابن الزبير الرأى فعلم أنه قد أخطأ فوجه يردهم ففاتوه » .

---

(1) تاريخ اليعقوبى حـ ٣ ص ٣ .

حرص عبد الله بن الزبير أن يكون له مظاهر الخلافة ، فولّى الولاة والعمال على المناطق التى امتد نفوذه اليها . فولّى أخاه عبيد الله بن الزبير واليا على المدينة ، كما عهد الى عبد الله بن مطيع بأن يأخذ له البيعة من المسلمين

بلاد العراق تبايع لابن الزبير :

كان أهل العراق لا يهتمون طوال تاريخهم الا بتحقيق استقلال بلادهم [1] . وقد أصبحت هذه الأمنية حقيقة واقعة يوم نقل على ابن أبى طالب حاضرة خلافته الى الكوفة ، ثم ضاعت هذه الآمال بعد مصرعه ، فحاولوا استرجاع التاريخ باستدعاء الحسين ، ولكن كربلاء حرمتهم من هذا الزعيم ، فصبروا حتى يظهر منقذ يحقق لهم الاستقلال .

ونظر أهل العراق الى العالم الاسلامى ، فوجدوا خليفتين ؛ أحدهما فى الحجاز وهو عبد الله بن الزبير ، وآخر بالشام وهو مروان بن الحكم . فكان عليهم أن يختاروا طاعة أحدهما . وهم فى الحقيقة يكرهون البيعة لهما على السواء ، ففى بيعتهم لابن الزبير اعتراف منهم ببقاء الحاضرة فى الحجاز ، فتظل الحالة كما كانت عليه فى خلافة عثمان . وفى بيعتهم لمروان استمرار للحكم الأموى فى العراق ، ذلك الحكم الذى عانوا منه الكثير على يد زياد وابنه عبيد الله ، وهم لم ينسوا موقف معاوية من علىّ ؛ وموقف ابنه يزيد من الحسين . ورأوا أن يختاروا أهون الأمرين .

---

(١) Wellhausen : The Arab Kingdom, P. 19

ولا شك أن البيعة لابن الزبير أفضل من البيعة لمروان ، فهو سيعتبر هذه البيعة تفضيلا له على منافسه ، بينما يعتبر مروان بيعتهم له أمرا واجبا طبيعيا ، لأن خلافته تعد استمرارا للدولة الأموية التى وضع أسسها معاوية بن أبى سفيان .

رأى أهل العراق فى خلافة ابن الزبير فرصة للتخلص من الحكم الأموى ، واستقر رأيهم على مؤازرته كلما أمكن لهم ذلك . فوفد عدد كبير منهم الى مكة وحاربوا فى صفه أثناء حصار الكعبة ومكة فى عهد الخليفة يزيد بن معاوية [١] ، ثم بويع لمروان بالخلافة فامتنعوا عن البيعة له وخلعوا طاعة بنى أمية ، وبايعوا لابن الزبير . ولم تكن بيعتهم الا لتحقيق مصالح بلادهم .

أبت البصرة والكوفة الا أن تكون مركزا للحوادث فى التاريخ الاسلامى [٢] ، فلعبت كل منهما دورا فى ترجيح احدى كفتى ابن الزبير ومروان فيما يتعلق بالبصرة ، كان موت يزيد ومعاوية الثانى صدمة عنيفة لعبيد الله بن زياد ، فخفت قبضته ولانت سطوته ، لأن الموقف أصبح مضطربا ولم يعد هناك خليفة قوى من بنى أمية يستند اليه فى حكمه وسلطانه [٣] . فرأى أن يستند الى حب أهل العراق ، فبدأ يتقرب اليهم . لكن مسعاه فى هذا السبيل لم يتحقق لأن البصرة أصبحت مسرحا للعصبية القبلية

---

(١) الطبرى حـ ٧ ص ١٦ .

(٢) Joseph Hell : The Arab Civilization, P. 60.

(٣) Khuda Buksh : Cont. to the Hist. of Islamic Civil., V. II, P185 .

بين مضر وربيعة والأزد [1] . وانتهز الخوارج هذا الاضطراب فبدأوا يعيثون فى البصرة فسادا [2] .

رأى عبيد الله بن زياد أن يبدأ بطلب البيعة من أهل البصرة ، فهو يعرف أنهم أقل انتصارا لآل البيت من الكوفة ؛ فدعاهم الى الاجتماع فى المسجد ، افتتح الاجتماع بكثير من اللباقة والاعتدال خلافا لعاداته السابقة ، وأشار فى خطبته الى ما قامت به أسرته من خدمات فى العراق والبصرة بصفة خاصة ، وكيف بذل جهده للعمل على رفع شأن أهلها ، فقد أصبح عدد المقاتلة ثمانين ألفا بعد أن كانوا سبعين ألفا ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر أمور الشام [3] .

ولا شك أن أهل البصرة قد انشرحت صدورهم لما أظهره عبيد الله بن زياد من ضعف واستكانة ورغبة فى الاتفاق معهم ؛ فبايعوه على أن يلى أمرهم ريثما يتفق الناس . ولما كان أهل البصرة لم يتفقوا على أحد منهم ، فى حين فاجأهم ابن زياد بطلب البيعة له فقد رضوا بما عرضه عليهم ريثما يتفقون فيما بينهم ، وريثما ينالون ما فى بيت المال وما وعدهم به من عطاء وصلات . وعبّر أهل البصرة عن حقيقة شعورهم بعد خروجهم من المسجد ،

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف حـ ٥ ص ١٨٨ .
(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٧٩ .
(٣) الطبرى حـ ٧ ص ١٨ .

فقد مسحوا بأيديهم فى الحيطان وقالوا : أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ؟ ! [1] .

ظل عبيد الله بن زياد أميرا للبصرة لفترة قصيرة ، ثم أخذ سلطانه فى الضعف ، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأى فيرد عليه ، ويأمر بحبس المخطىء فيحال بين أعوانه وبينه . بل كان يصعد المنبر فيحصبونه ويرمونه بالحجارة ويسبونه [2] . ولم يجمع أهل البصرة رأيهم الا على نبذ طاعة ابن زياد ، فقد رأت عامة الناس أن فى بقاء حكم ابن زياد الضعيف ما يهددهم بخطر الخوارج ، وقصدت الشيعة الى الأحنف بن قيس لينهض بهم فأبى ، فقالوا : أنت سيدنا . فقال : لست بسيدكم ، انما سيدكم الشيطان ! [3] . وغضب الموالى على ابن زياد لتفضيل العرب عليهم ، بل ان الخوارج أنفسهم ، ومن ورائهم القراء ، خرجوا لطرد ابن زياد . ورأى ابن زياد أن ينجو بحياته ، فخرج هاربا الى الشام [4] .

على أن خروج ابن زياد من البصرة لم يقض على متاعب أهلها ، فقد اشتعلت نيران العصبية بين مضر واليمن . وآثروا أن يعيدوا قصة التحكيم ، فاختارت كل فئة من يمثلها ، ولكن

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٩ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٥٦ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ١٩ .
(٣) ابن المثنى : النقائض حـ ١ ص ١٠٢ .
(٤) الطبرى حـ ٧ ص ٢١ .

الحكمين اختلفا ، فرأى المضرى فى بنى أمية ، ورأى اليمانى فى بنى هاشم ، ثم اتفقا أخيرا على اختيار عبد الله بن حارث ، وهو مضرى هاشمى يجمع بين الصفتين فأرضى الفريقين [1] .

لكن هذا الاختيار لم يؤد الى القضاء على الفوضى فى البصرة ؛ ففى أقل من ستة أشهر أقاموا عليهم نحو من أربعة أمراء من بينهم . ورأت البصرة أن تبحث عن خلاص من هذا الضيق ، ووجدته أخيرا ، فقد ظهر فى سوق البصرة رجل يقول : أيها النـــاس ، هلمّوا الىّ أدعكم الى ما لم يدعكم اليه أحد ، أدعوكم الى العائذ بالحرم . يعنى عبد الله بن الزبير [2] .

فكتب أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير يعلمونه أنه « امام لهم ويسألونه أن يوجه اليهم رجلا من قبله يتولى الأمر بها ، فدعا وجوه أهل البصرة فاستشارهم فى رجل يوليه حرب الخوارج ؛ أعداء البصرة الألداء ، فأجمعوا على اختيار المهلب بن أبى صفرة ؛ فلقى هذا الاختيار قبولا منه ، وتنفس أهل البصرة الصعداء . ولكن حكم ابن الزبير لم يستقر تماما الا بعد أن بعث الى البصرة أخاه مصعب بن الزبير حاكما عليها ، وكان ذو شخصية قـوية وحزم وعزم .

كان خطر الخوارج والعصبية القبلية هما العاملان اللذان دفعا أهل البصرة الى مراسلة عبد الله بن الزبير ، فالخوارج تمتاز بالشجاعة والاقدام ، ولا يمكن اخضاعها الا بجيوش عظيمة العدة

(١) الطبرى حـ ٧ ص ٢٠ .
(٢) الطبرى حـ ٧ ص ٢٣ .

والعدد ، ذات قيادة منظمة ، وهذا لا يتوافر لعبيد الله بن زياد ، ولا يمكن أن يقوم بهذا العبء الجسيم الا الخليفة الجديد عبد الله بن الزبير . أما العصبية القبلية فقد أنهكت قوى أهل البصرة وهم فى حاجة لتوفير جهودهم لقتال الخوارج ، فاصطلحت الأزد ومضر وتراضوا على بيعة ابن الزبير [١] ، وارتاحت تميم لبيعة ابن الزبير فهى قبيلته وعشيرته [٢] .

أما عن موقف الكوفة من حركة عبد الله بن الزبير ، فان ابن زياد مع حرصه على اخذ البيعة له من أهل البصرة ، اكتفى بأن بعث رسولا من قبله الى الكوفة لتحقيق هذا الغرض حتى لا يثير شعور أهلها من الشيعة . ولم يكد رسوله يفد الى الكوفة ويدعو الى بيعته حتى ألقى به فى غياهب السجن . كذلك اعترضت نساء الكوفة على تولية عمر بن سعد بن أبى وقاص أميرا لهذه المدينة فخرجن باكيات نادبات . وألهب هذا البكاء والنواح شعور أهل الكوفة فأسرعوا الى عزل عمر ، وقام خطيبهم فقال : « لا حاجة لنا من بنى أمية ، ولا من امارة ابن مرجانة ، انما البيعة لأهل الحجاز » [٣] .

فاختاروا عامر بن مسعود وكتبوا بذلك الى عبد الله بن الزبير ، فأقرهم على اختيارهم ، وظل ابن مسعود أميرا عليهم حتى عزله ابن الزبير وولى عبد الله بن يزيد .

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ٢٢ .
(٢) Khuda Buksh Cont. to the Hist. of Isl. Civil,, V. II, p.186.
(٣) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٣١ .

البيعة لابن الزبير فى مصر :

بعث عبد الله بن الزبير دعاته الى مصر لنشر الدعوة له وأخذ البيعة من أهلها . وقد لمس المصريون الفوضى التى سادت الدولة الأموية بعد موت يزيد بن معاوية وتنازل معاوية الثـانى عن الخلافة ، وتنافس البيت الأموى على الخلافة ، كما كان بعض المصريين ساخطين على الحكم الأموى فى مصر . وكان يتـولى حكم مصر فى ذلك الحين الوالى الأموى سعيد بن يزيد (٦٢ — ٦٤ هـ) .

وكان من أسرع الناس فى مصر الى البيعة لابن الزبير من يدينون بمبادىء الخوارج [١] ، فقد شاهدوا الخوارج الأزارقة يرحلون من العراق الى مكة ، وساعدوا ابن الزبير خلال حصار جيش يزيد بن معاوية الكعبة .

ولما شعر عبد الله بن الزبير أن مصر قد دانت له بالطـاعة واعترفت بخلافته ، بعث اليها بأحد رجاله ليتولى حكمها ، وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى . وقد رحل معه الى مصر بعض الخوارج الذين كانوا مع ابن الزبير ، فى شهر شعبان من سنة ٦٤ هـ . فيقول أبو المحاسن [٢] : « ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج ، وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر ، ودعوا الناس لبيعته ، فتابعهم الناس وأصبحت مصر منذ ذلك الحين ولاية تتبع خلافة ابن الزبير .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة حـ ١ ص ١٦٥ .

البيعة لابن الزبير فى الولايات الاسلامية :

بايع النعمان بن بشير لابن الزبير بحمص ، وأصبحت حمص تدين بالطاعة لابن الزبير . ولا ندهش لتحول هذا الوالى الأموى عن طاعة الأمويين الى طاعة ابن الزبير ، فقد كان النعمان فى عهد الخليفة يزيد بن معاوية مقتنعا بأحقية ابن الزبير بالخلافة وان لم يجهر بهذا الرأى . فقد أوفده يزيد الى ابن الزبير ليفاوضه فى البيعة له والانقياد لخلافته ، فخلا النعمان بابن الزبير ، فتوجه ابن الزبير اليه بالسؤال : أنشدك الله ، أنا أفضل عندك أم يزيد ؟ فقال : بل أنت . فقال ابن الزبير : فوالدى خير أم والده ؟ فأجاب النعمان : والدك . فقال : فأمى خير من أمه ؟ قال : بل أمك . فقال ابن الزبير : فخالته خير أم خالتى ؟ قال : بل خالتك . قال : فعمتى خير أم عمته ؟ قال : بل عمتك ، أبوك الزبير ، وأمك أسماء ابنة أبى بكر ، وخالتك عائشة ، وعمتك خديجة بنت خويلد . فسأله ابن الزبير : أفتشير علىّ بمبايعة يزيد ؟ . قال النعمان : أما اذا استشرتنى ، فلا أرى ذلك ، ولست بعائد اليك بعد هذا أبدا !! [1] .

أصبحت قنسرين تدين بالطاعة لابن الزبير ، فقد أعلن زفر ابن عبد الله الكلابى فيها الثورة ، وبايع لعبد الله بن الزبير ؛ وأقبل عليه أهل قنسرين يعلنون ولاءهم للخلافة الزبيرية [2] .

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٧٣ .
(٢) الطبرى حـ ٤ ص ٤٠٩ .

وامتدت الدعوة للخلافة الزبيرية الى فلسطين ، فقد بايع نائل ابن قيس لابن الزبير بفلسطين ، وأخرج منها الوالى الأموى روح بن زنباع الجزامى [1] .

وأعلنت بلاد اليمن ، وخراسان ، والجزيرة طاعتها لعبد الله ابن الزبير ، وبعث ولاته عليها بعد طرد الولاة الأمويين . كما كان نجدة بن عامر الحنفى الثائر على الأمويين باليمامة حليفا لابن الزبير .

أما الأردن ، فكان الاقليم الوحيد الذى أصر على الاخلاص لبنى أمية ، فلم يبايع ابن الزبير . وكان زعيم حركة المعارضة هناك حسان بن مالك بن بجدل الكلبى ، وكان عاملا لمعاوية ولابنه يزيد ، وكان هواه مع الأمويين ، فسار الى الأردن واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجزامى ، فطرده منها نائل بن قيس — كما ذكرنا — وبايع لابن الزبير . وأخذ حسان يدعو أهل الأردن الى طاعة بنى أمية ونبذ دعوة ابن الزبير . وبايعوه على شروط ، وهى ألا يدعو الى خلافة ابنى يزيد بن معاوية وهما عبد الله وخالد ، وأن يدعو لخلافة مروان بن الحكم فقالوا له : نحن نبايعك على أن تقاتل من خالفك وأطاع ابن الزبير ، على أن تجنبنا هذين الغلامين — يعنى ابنى يزيد عبد الله وخالدا — فأنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبى [2] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ٨ ص ٢٣٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٦١ — ٦٢ .

نفوذ ابن الزبير بالشام :

كان اختلاف بنى أمية وتفرق كلمتهم ثغرة أراد ابن الزبير أن ينفذ منها للوصول الى بسط نفوذه فى بلاد الشام والبيعة له هناك : وكان ابن الزبير يعلم بما بين قيس وكلب من التعصب ؛ وأراد أن يستغل تلك العصبية لمصلحته : وقد قرّب معاوية وابنه يزيد قبيلة كلب فأصبحت تتولى المناصب الكبرى ، مما أثار أحقاد قيس ، ولذا رأى ابن الزبير أن يعتمد على قيس ، وعهد الى الضحاك بن قيس الفهرى ؛ وهو من قيس ، أن يأخذ له البيعة من أهل الشام .

ولكن الضحاك بن قيس كان يطمع فى تولى الخلافة ، ورأى أن الوقت لم يحن بعد لتحقيق أطماعه ، فآثر أن يتخذ من دعوة ابن الزبير سلّما يرقى به الى الخلافة . ونجح الضحاك فى نشر الدعوة لابن الزبير فى أرجاء الشام ، عدا اقليم الأردن الذى آثر البقاء على طاعة الأمويين .

انقسم أهل الشام على أنفسهم ؛ فريق يؤيد ابن الزبير ، وفريق آخر استمر على ولائه للدولة الأموية ؛ ويصور المؤرخ الطبرى[1] الموقف : « فقام بعضهم الى بعض فى المسجد فاقتتلوا ؛ قيس تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعـو الى بنى أمية ثم الى خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد. وكان من الأجناد ناس يهوون بنى أمية ، وناس يهوون هوى ابن الزبير » .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤١١ .

وأدرك الحصين بن نمير ، عند عودته من غزو الكعبة بعد وفاة يزيد ، هذا الانقسام الذى أصاب الأمويين فأراد أن يحذرهم وينذرهم ، فقال لهم : نراكم فى اختلاط فأقيموا أميركم ، قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء !! [1] .

شعر الأمويون بخطر دعوة الضحاك لخلافة ابن الزبير ، فقد انتشرت الدعوة الزبيرية فى جميع الولايات الاسلامية ، وكان الأمويون يحرصون على بقاء بلاد الشام معقل الخلافة الأموية بعيدة عن النفوذ الزبيرى . ولكن الضحاك نجح فى أخذ البيعة لابن الزبير من كثير من أهل الشام وخاصة من القيسيين .

ورأى الأمويون أن يضعوا نصيحة الحصين بن نمير موضع التنفيذ ، فعزموا على اختيار خليفة أموى يجمع شملهم ويوحّد كلمتهم . وعرض الأمويون الخلافة على كثير من أبناء البيت الأموى فكان كل منهم يتهرب منها ويأبى توليها فى هذه الظروف الدقيقة الحرجة . ولكن كان عليهم أن يسرعوا فى توحيد صفوفهم ، حتى لا تخرج الخلافة من الأمويين بالشام الى ابن الزبير بالحجاز .

اجتمع الأمويون ، فقال بعضهم : ان المُلك كان فينا أهل الشام ، أفينتقل ذلك الى أهل الحجاز ؟ لانرضى بذلك !! هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر فى هذا الأمر ؟ . فقال الفريق الآخر : نعم ! . فعرضوا الخلافة على خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو غلام حدث السن ، فتردد فى قبولها وقال : أستخير الله وأنظر

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٦١ .

ويئس الأمويون منه ، فعرضوا الخلافة على عمرو بن سعيد ، فأخذ يسبهم ويقول : والله لا أفعل ، لا أفعل !! فقصدوا مروان بن الحكم يطلبون منه قبول تولى الخلافة ، فقال : أستخير الله وأسأله أن يختار لأمة محمد خيرها وأعدلها ما شاء الله [1] .

مؤتمر الجابية

انتشرت دعوة عبد الله بن الزبير فى جميع الأقطار الاسلامية ، عدا الأردن ، وعظم أمره الى حد جعل مروان بن الحكم يفكر فى أن يقصد ابن الزبير مبايعا له ، لولا أن نهاه عبيد الله بن زياد عن ذلك فقال : استحييت لك ما تريد ، أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنعه ؟ ! [2] .

ورأى بنو أمية فى مروان الشخصية المنشودة التى يستطيعون أن يرشحوها للخلافة ، فكان يؤهله لها كبر سنّه وسبقه فى الاسلام ، ودفاعه عن عثمان ، فرأوا فيه مرشحا يستطيعون أن ينافسوا به ابن الزبير ، وخاصة أن مروان كان يفوقه سنّا . وخلا الجو لمروان ، حيث ان زعماء الأمويين كعمرو بن سعيد ابن العاص ، وخالد بن يزيد بن معاوية ، قد تخلفوا عن طلب الخلافة . وأراد الأمويون أن يقطعوا على أنصار هذين الزعيمين فرصة المعارضة مستقبلا ، فرأوا أن يعقدوا مؤتمرا فى الجابية يتداولون فيه فيمن يولونه الخلافة الأموية ليقاوم خلافة عبد الله

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ١١ .

ابن الزبير ، ثم يبايعه جميع أفراد البيت الأموى ، وكان مروان ابن الحكم هو المرشح الأول .

ولكن كان أمامهم عقبة كبرى ، وهى دعوة الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير ، ورأوا عجزهم عن اخضاعه بالقوة ، فلجأوا الى المكيدة . فأرسلوا ابن زياد الى الضحاك فحسّن له أن يدعو الى نفسه بدلا من دعوته لابن الزبير ، وما زال ابن زياد يغريه حتى عمل بنصيحته ، فدعا الناس الى مبايعته . وكان ذلك بمثابة القضاء على مكانته السياسية فى قلوب أنصاره ، فقد انفض الناس من حوله ، بعد أن علموا نكثه لبيعة ابن الزبير ، وتقلّبه فى الأهواء ، تحقيقا لمصلحته الشخصية . يصور ابن كثير [1] الموقف فيقول : « فدعا الضحاك الى نفسه ثلاثة أيام ، فنقم الناس عليه ذلك وقالوا : دعوتنا الى بيعة رجل فبايعناه ثم خلعته بلا سبب ولا عذر ، ثم دعوتنا الى نفسك ، فنرجع الى البيعة لابن الزبير » . ورأى الضحاك أن يشترك فى مفاوضات الجابية عسى أن تنتهى الى اختياره للخلافة ، فأرسل الى بنى أمية يعتذر اليهم عما بدر منه آنفا ، ثم رحل الى الجابية [2] .

بدأ مؤتمر الجابية ، وقام فريق من بنى أمية يرشح مروان ابن الحكم للخلافة ، بينما رشح فريق ثان خالد بن يزيد بن معاوية ؛ ورشح فريق ثالث عمرو بن سعيد بن العاص . وبعد جدال طويل عنيف اتفقوا على تولية مروان بن الحكم ومن بعده خالد ثم

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٤١ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١ .

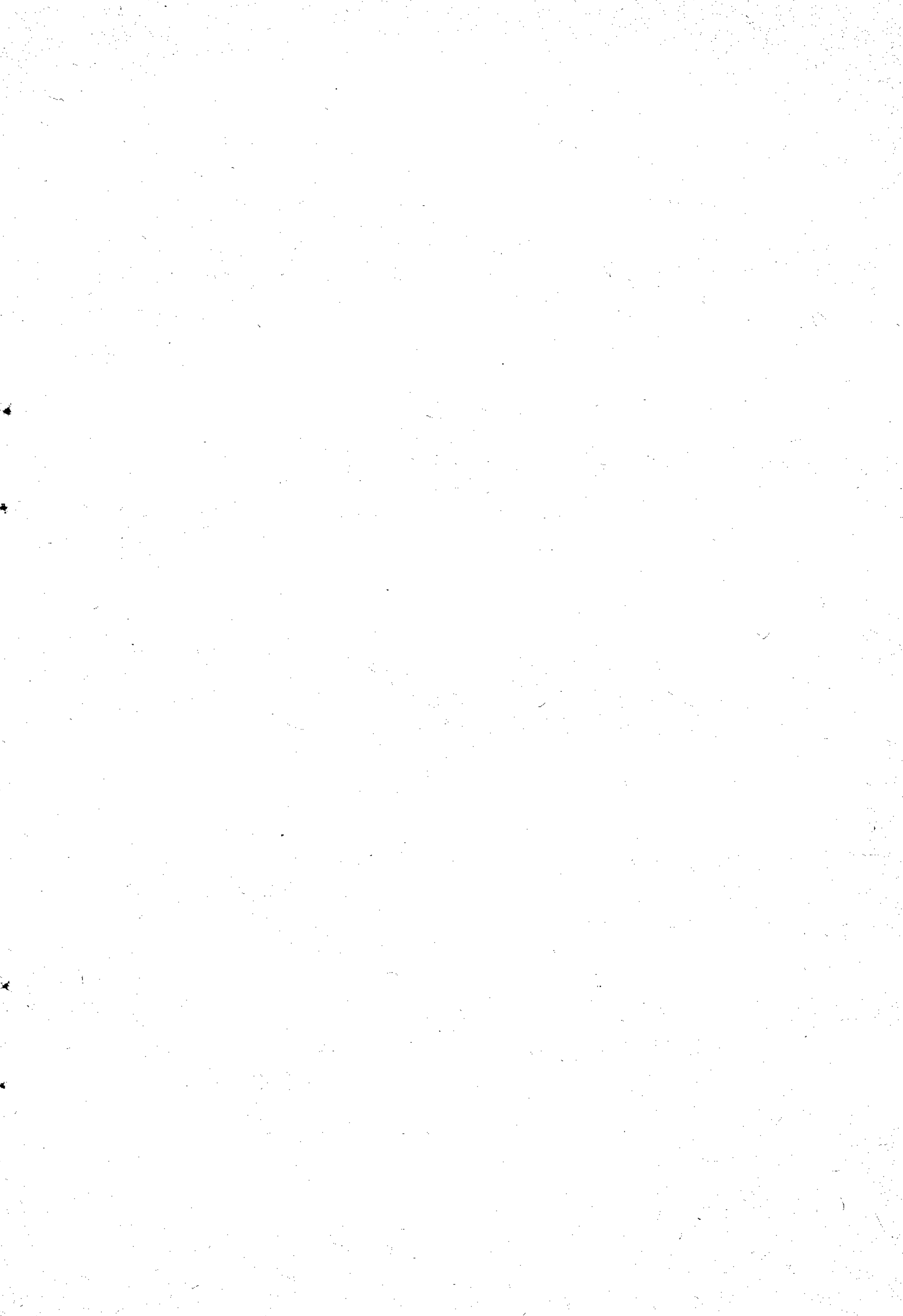
عمرو . ثم عزموا على القضاء على روح الفتنة على بلاد الشام ، وعلى الدعوة الزبيرية .

تقدم الأمويون الى دمشق لقتال داعية ابن الزبير وهو الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان قد سيطر على دمشق ، فالتقوا به فى (مرج راهط) وقاتلوه ، حتى هزموه وقتلوه . كما قتلوا النعمان بن بشير والى ابن الزبير فى حمص واستردوا المدينة من أنصاره . وهرب زفر بن الحارث الكلابى والى ابن الزبير على قنسرين [1] . كما هرب نائل بن قيس من فلسطين [2] .

وهكذا انكمش سلطان عبد الله بن الزبير فى بلاد الشام ، وبايع الأمويون مروان بن الحكم خليفة ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد الخلفاء المروانيين ، بعد انتهاء عهد الخلفاء السفيانيين . وأصبح فى الدولة العربية الاسلامية خليفتان : خليفة فى الشام وهو مروان ابن الحكم ، وخليفة فى الحجاز وهو عبد الله بن الزبير ، وبدأ الصراع بين الخليفتين ، ومن ورائهما القطران الاسلاميان الكبيران : الشام والحجاز .

---

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ٣ .
(٢) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٦٣ .



٧ ـ الصراع بين ابن الزبير خليفة الحجاز والخلفاء الأمويين بالشام

مروان يستعد لصراعه مع ابن الزبير
ابن الزبير ومروان في كفتي ميزان
مروان ينتزع مصر من ابن الزبير
صراع مروان وابن الزبير حول العراق
مروان يخفق في انتزاع المدينة من ابن الزبير
عبد الملك يواصل صراع ابن الزبير

الصراع بين ابن الزبير خليفة الحجاز والخلفاء الأمويين بالشام

مروان يستعد لصراعه مع ابن الزبير :

كانت وفاة معاوية الثانى ، واغفاله العهد بالخلافة لأحد من أفراد البيت الأموى ، سببا فى تفرق كلمة بنى أمية ، وانقسامهم على أنفسهم . اذ تنافسوا على الخلافة وتهافتوا عليها تهافتا أدّى الى ضعفهم ، مما أدّى الى تضاؤل نفوذهم فى العراق والحجاز ؛ حيث كان ابن الزبير مبايعا بالخلافة [1] .

كذلك تعرض البيت الأموى لخطر العصبية القبلية ، فكانت قبائل عرب الشمال القيسيين ، كغطفان ومضر وغيرهما ، فى شمال الشام وفى الجزيرة والعراق ، غير مرتاحة الى محاباة معاوية الأول لبنى كلب اليمانيين . وما كاد ابن الزبير يبايع لنفسه حتى ثارت قيس بزعامة زفر بن الحارث فطرد والى قنسرين ، وتغلب الضحاك ابن قيس على الأمويين وأعلن ولاءه — كما مر بنا — لابن الزبير ، وشعر الأمويون بخطر العصبية القبلية على حكمهم ، فاجتمعوا بمرج راهط لتصفية هذه الأحقاد ، ثم اتفقوا على البيعة لمروان

---

(1) Quatremere : Mem. Hist. Sur la Vie d Abd. ben. Zobair P. 289.

ابن الحكم ، لاعتقادهم أنه الشخصية المنشودة التى يستطيعون بها أن ينافسوا عبد الله بن الزبير .

ونجح مروان فى القضاء على نفوذ عبد الله بن الزبير فى بلاد الشام حينما قتل الضحاك بن قيس فى موقعة مرج راهط [١] . وأبدى ابن الزبير ألمه لمقتل الضحاك ، وبعث أخاه مصعب بن الزبير الى فلسطين ليحاول الاحتفاظ بالنفوذ الزبيرى هناك ، ولكن مروان بعث جيشا أرجع مصعبا على أعقابه [٢] .

فقد عبد الله بن الزبير كل أمل فى اعادة نفوذه فى الشام ، فرأى أن يعمل على الاحتفاظ بسيطرته على سائر الأقطار الاسلامية . وفى نفس الوقت بدأ مروان يعد العدة لانتزاع الأقطار من يد ابن الزبير كما انتزع منه بلاد الشام . ولذا بدأ بين هذين الخليفتين صراع عنيف فى سبيل الخلافة والسيطرة على الدولة العربية الاسلامية . ولم يكن فى انتصار مروان فى مرج راهط نهاية لمتاعبه ، فقد كانت أمامه عقبات يجب عليه أن يقضى عليها حتى يصفو له الجو فيتفرغ لابن الزبير .

فقد أثارت واقعة مرج راهط دفين الأحقاد التى كادت تزول بين الحميريين والمضريين ، كما أخذ الحميريون اليمانيون بعد أن رجحت كفتهم يسومون منافسيهم أشد صنوف الاضطهاد . وكان على مروان ألا يقابل عدوه ابن الزبير وجرثومة الفرقة والانقسام منتشرة بين رجاله وجنده .

---

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٦٨ .
(٢) ابن الأثير الكامل ج ص ٦٥ .

وخير ما يصوّر أحقاد الحميريين والمضريين ، كلّ نحو الآخر ، هذه الأبيات التى أنشدها الفرزدق أحد شعراء اليمنيين متفاخرا على قيس :

ولو رام قيس غــــيرهم يوم راهط
للاقى المنــــايا بالسيوف الصوارم
ولكن قيســـا روغمت يوم راهــط
بطود أبى العاص الشــديد الدعائم

وخشى مروان من منافسه خالد بن يزيد بن معاوية ، ورأى التخلص منه ، فتزوج من أمه فاخته ابنة أبى هاشم بن عتبة «ليسقط من أعين الناس » [1] . ثم تآمر مروان معها ، فخنقاه حتى مات .

وكان الذين حضروا مؤتمر الجابية من بنى أمية يعتقدون أنهم وقد ساعدوه على تولى الخلافة قد أصبحوا شركاء له فى الأمر . فشرطوا عليه شروطا قاسية لم يجد مفرا من قبولها ، فقد كان فى حاجة الى مؤازرتهم له ، وأغدق مروان عليهم الهبات والعطــايا والمناصب حتى يسكتوا عنه .

بقى على مروان أن يتخلص من أكبر عدو له ، أى عبد الله ابن الزبير ، خليفة الحجاز . ورأى أن الوسيلة المثلى الحاسمة هى تيسير الجيوش اليه ، ومقاومته مقاومة ايجابية . فقاد بنفسه جيشا الى مصر . ثم بعث عبيد الله بن زياد على رأس جيش آخر الى الجزيرة والعراق ، وأرسل جيشا ثالثا الى المدينــة بقيادة حبيش بن دلجة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٤ .

ابن الزبير ومروان فى كفتى ميزان :

كانت شخصية كل من مروان وابن الزبير تؤثر فى موقف المسلمين منهما . فلا يزال المسلمون يذكرون أن مروان قد صلى خلف ابن الزبير فى حرب الجمل ، ويعرفون أن مروان كاد يهم بالبيعة لابن الزبير لولا أن نهره عبيد الله بن زياد .

كما أن ماضى مروان ونسبه لم يكن يقنع المسلمين بأحقيته بالخلافة ، فقد كان أبوه الحكم طريد رسول الله ولعينه ، وكان مروان « لا فقه له ولا يعرف بالزهـــد ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعد همة » [1] . وكان مروان من عوامل اثارة مشاعر المسلمين على عثمان بن عفان . كما أقدم فى حرب الجمل على قتل حليفه طلحة بن عبيد الله غيلة حين شعر طلحة بالندم وأراد الرجوع عن الحرب . وعانى أهل الحجاز من سياسة مروان فيهم حين ولاه معاوية بن أبى سفيان عليهم . وحنث مروان فى يمينه الذى أعطاه لأهل الحجاز ، فقد أقسم عند منبر الرسول قبيل واقعة الحرة ألا يظاهر على أهل المدينة عدوا ، ولكنه صحب مسلم بن عقبة حين قدم يغزو المدينة ، واشترك فى واقعة الحرة .

بايعت الأمصار جميعا ، عدا رقعة صغيرة هى الأردن ، عبد الله ابن الزبير خليفة . فهى بيعة عامة عن رضا واجماع من المسلمين . وأرسل ابن الزبير ولاته الى الأمصار الاسلامية وأبدى المسلمون رضاهم عن هؤلاء الولاة . أما مروان بن الحكم فانه لم يبايعه

---

(1) المقريزى : النزاع والتخاصم ص ٢٥ .

ســوى نفر قليل من أهل الشــام ، معظمهم من الأمويين أو صنائعهم ، بينما وقف كثير من الأمويين الى جانب الضحاك ابن قيس داعية ابن الزبير . ويعلق المسعودى [١] على تولية مروان الخلافة فيقول : « وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها ، على ما قيل ، بغير رضا عن عصبة من الناس ، بل كل خوّفه الا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها » . ويذكر الحصنى [٢] : « وكثير من العلماء يرون أن بيعة مروان غير منعقــدة شرعا ، لوقوعها من سكان دمشق فقط ، ولسبقها ببيعة ابن الزبير المنعقدة باجماع جمهور المسلمين » .

واذا كان ابن الزبير يفضل مروان من الناحيتين السياســية والشخصية ، فان دستور الخلافة يقف فى جانب ابن الزبير ، فمروان « باغ خارج على ابن الزبير » [٣] ، لأن بيعتــه جاءت متأخرة ، مما يوجب على المسلمين مقاومته واخضاعه لابن الزبير . ويؤيد الماوردى [٤] هذا الرأى ، فيقول انه اذا عقدت الامامة لامامين فى بلدين لم تنعقد امامتهما لأنه لا يجوز أن يكون للأمة امامان فى وقت واحد . واختلف الفقهاء فى الامام فيهما ، ولكن الماوردى يرى أن الامامة لأسبقهما بيعة وعقدا .

تمسك كل من مروان وابن الزبير بحقه فى الخلافة ، فأصبح

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢ .
(٢) منتخبات التواريخ لدمشق ج ١ ص ٩١ .
(٣) ابن حجر الهيثمى : تاريخ اخوان الصـــفا (مخطوط) ورقة ٥١ .
(٤) الأحكام السلطانية ص ١٠ .

لا مفر من تحكيم السيف بينهما ، وقد تلاقى الخصمان فى ثلاثة ميادين هى : مصر ، والعراق ، والمدينة .

مروان ينتزع مصر من ابن الزبير :

استقر أمر الشام وفلسطين لمروان ، وأراد أن يخضع سائر الأمصار ، حتى تصفو الخلافة له ، فرأى أن يبتدىء بمصر أقرب الأمصار اليه ، فهو لم يكن يستطيع أن يبدأ بالحجاز رأس الحركة الزبيرية ، أو بالعراق مركز الشيعة أعداء الأمويين الألداء . أما مصر ، فمعظم أهلها يوالون بنى أمية ، وكانت مصر منذ مصرع عثمان بن عفان بعيدة عن مجريات الحوادث فى الدولة العربية الاسلامية .

وقاد مروان الجيش الأموى بنفسه ، رغم شيخوخته وضعفه ، وسبقه جيش بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان ، جاء عن طريق أيلة (العقبة الحالية) . وكان يتولى حكم مصر والى ابن الزبير وهو عبد الرحمن بن جحدم ، وكان قد طلب البيعة من المصريين ، فبايعوه حين رأوا أن الأمر قد تم لابن الزبير بمكة . واستمر ابن جحدم يحكم مصر حتى علم المصريون ببيعة مروان بالخلافة ، فبدأ بعضهم يميل الى اعادة الحكم الأموى لمصر .

ولما علم ابن جحدم بقدوم مروان ، بدأ يستعد لقتاله ، فحفر خندقا حول الفسطاط ، فنزل مروان فى عين شمس ، فاضطر ابن جحدم الى الخروج اليه ، فتحاربا فترة ثم رأيا أن يتهادنا ويتصالحا حقنا لدماء أنصارهما فاصطلحا على أن يقر مروان ابن جحدم على حكم مصر .

ودخل مروان مصر فى غرّة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وسرعان ما تحرر مروان من عهده لابن جحدم فعزله وفتح خزانته وأعطى الناس فسارعوا الى بيعته .

ولكن بعض المصريين تمسكوا بالولاء لعبد الله بن الزبير ، ورفضوا البيعة لمروان . وأقدم مروان على قتل زعمائهم ، وبلغ عدد القتلى نحو ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم فى مصر شهرين ، ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية الى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز وزوده بالنصائح الهامة . ثم قفل مروان راجعا الى الشام [١] .

صراع مروان وابن الزبير حول العراق :

كان مروان بن الحكم قد بعث عبيد الله بن زياد على رأس جيش ليقاتل زفر بن الحارث ، الذى كان عاملا لابن الزبير على قنسرين ثم هرب من مروان الى قرقيسيا . وطلب مروان من ابن زياد أن يقتل زفر ، ووعد ابن زياد أن يستعمله على كل ما يفتحه ، وأمره بأنه اذا فرغ من زفر توجه الى بلاد العراق لينتزعها من ولاة عبد الله بن الزبير [٢] .

وفى طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان وتولية ابنه عبد الملك الخلافة الأموية ، وبعث عبد الملك الى ابن زياد يقرّه

(١) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ص ٨٠ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

على ما ولاه عليه أبوه مروان . وتقدم ابن زياد نحو العراق وهدفه اجلاء ولاة ابن الزبير ، ولكنه اضطر الى أن يغيّر خطته ، فقد ظهر فى الميدان أعداء جدد لم يكونوا فى حسبان ابن زياد ، وهم (التوابين) .

فقد ندمت شيعة الكوفة على تخاذلهم عن نصرة الحسين ابن على مما أدى الى مصرعه . وندموا على ما أقدموا ، وتابوا ؛ وسموا أنفسهم التوابين . وعلم (التوابين) بقدوم ابن زياد الى العراق ، فرأوا الخروج لقتاله ، وقتل ابن زياد أخذا بثأر الحسين . والتقى الجيش الأموى بجيش التوابين عند عين الوردة ، فطلب ابن زياد من التوابين أن يبايعوا لعبد الملك بن مروان ، وطلب (التوابين) من جند ابن زياد أن يخلعوا عبد الملك ويسلموا لهم ابن زياد ، ويساعدوهم على اخراج ولاة ابن الزبير واقامة خلافة علوية . غير أن كل فريق أبى الا أن يقاتل فى سبيل الأغراض التى خرجوا من أجلها ، وانتهت معركة الوردة باخفاق التوابين ومقتل معظمهم .

واستمر ابن زياد فى زحفه فى بلاد العراق . وكان المختار ابن أبى عبيد الثقفى قد ظهر حينئذ فى بلاد العراق ، ونادى بأنه وزير وداعية محمد بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، وجمع حوله فلول التوابين بعد هزيمتهم فى عين الوردة ، وأعلن أنه سيثأر لمقتل الحسين فيقتل قاتله ابن زياد . وخرج المختار وخلفه الشيعة والموالى ، والتقى بجيش ابن زياد فهزمه وقتله ، وبذلك وفّر المختار على ولاة ابن الزبير أن يلتقوا بالجيش الأموى بقيادة

ابن زياد فى معركة حربية . ولكن مصرع ابن زياد وهزيمة جيشه جعل ولاة ابن الزبير فى مواجهة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، فبدأ صراع بين الفريقين انتهى بانتصار ولاة ابن الزبير واستمرار انضواء العراق تحت لواء ابن الزبير ، وسيظل الأمر على هذا النحو حتى يتقدم عبد الملك بن مروان على رأس جيش كثيف لانتزاع العراق من ولاة ابن الزبير .

مروان يخفق فى انتزاع المدينة من الزبير :

أرسل مروان بن الحكم فى عام ٦٥ هـ جيشين ، أحدهما بقيادة ابن زياد الى العراق ، والثانى بقيادة حبيش بن دلجة لاستعادة المدينة من نائب عبد الله بن الزبير ، وهو جابر بن الأسود ابن عوف . ولكن جابرا أسرع بالفرار .

وشعر عامل ابن الزبير بالبصرة الحارث بن أبى ربيعة بحرج الموقف ، فبعث بجيش من البصرة نجح فى أن يشغل جيش ابن دلجة عن فتح المدينة . وولى ابن الزبير عباس بن سهل على المدينة وأمره بقتال ابن دلجة ، واستطاع الزبيريون القضاء على الجيش الأموى (١) .

وهكذا أسدل الستار على صراع مروان للحركة الزبيرية ، ثم ظهر على مسرح السياسة عبد الملك بن مروان الذى خلف أباه فى الخلافة الأموية بدمشق بالشام . كما خلفه فى تولى أمر الصراع

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

مع عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز الذى ما زال مسيطرا على بلاد العـــراق .

عبد الملك يواصل صراع ابن الزبير :

ترك مروان بن الحكم لابنه عبد الملك تركة مثقلة بالمتاعب والمصاعب . فقد خلف له الدولة الأموية فى أسوأ حال . فقد مزّقتها العصبية القبلية واجتاحتها حركات سياسية خطيرة كادت أن تعصف بها وتزيلها من الوجود . فكان من واجب عبد الملك أن يقضى على هذه العصبية ويكافح هذه الحركات حتى يصفو الجو ، وتتمهّد له الأمور .

وكانت هذه العقبات تتطلب حزما وعزما ورباطة جأش ، وكان عبد الملك على نصيب كبير منها ، ونجح فى تيسير دفة الأمـــور فى الدولة الأموية ، وأعاد للدولة الاسلامية وحدتها وتماسكها ، ولذا فهو بحق المؤسس الثانى للدولة الأموية .

صوّر المؤرخ المسعودى [1] عزيمة عبد الملك ورباطة جأشه ، فقال : « وقد كان عبد الملك بن مروان سار فى جيوش أهـــل الشام ، فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه ، وهزيمة الجيش بالليل ، وأتاه تلك الليـــلة ثم جاءه خبر دخول نائل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى فلسطين ثم جاءه مســـير

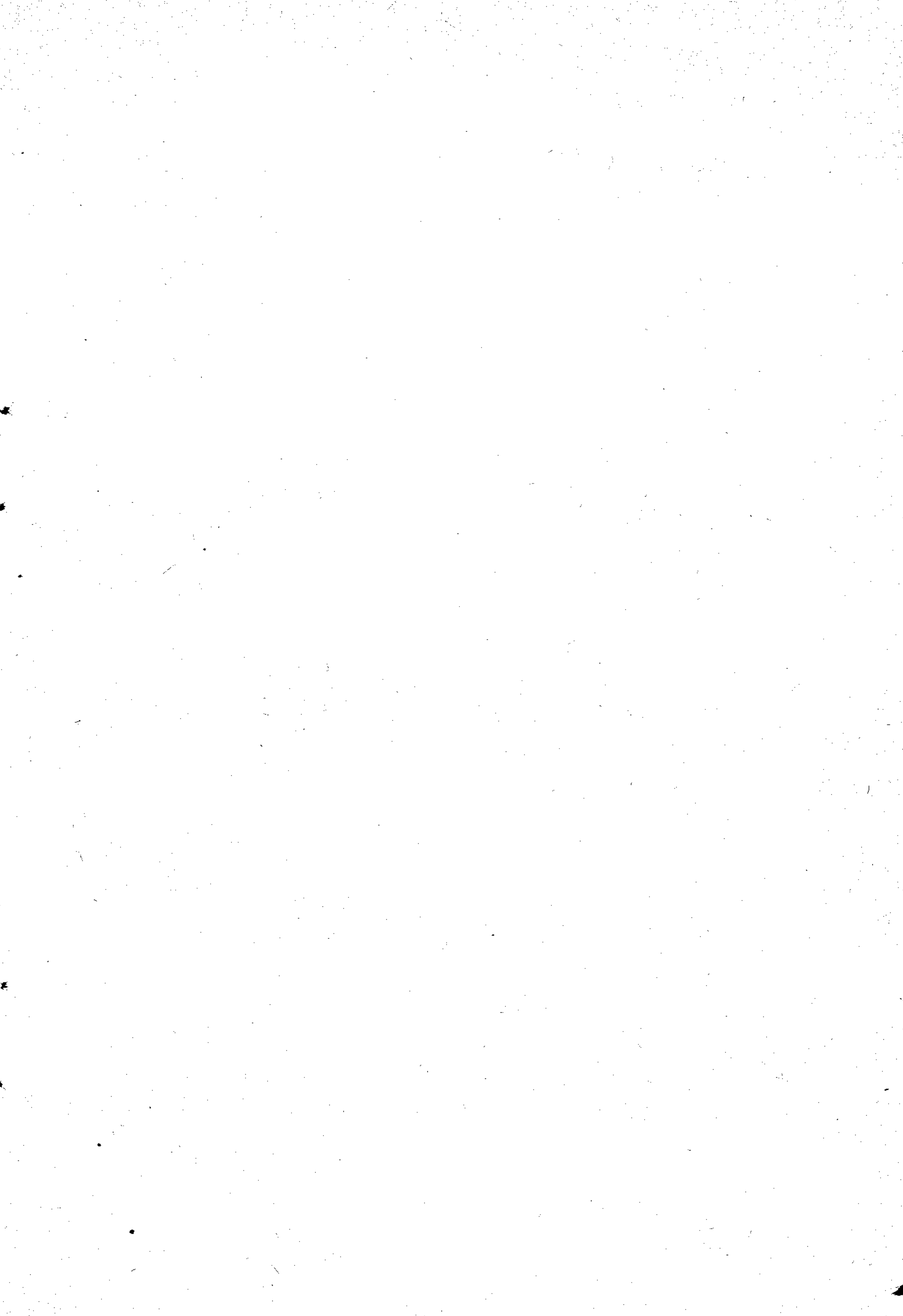
(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٢ .

ملك الروم لاوى بن فلقط ونزوله المصيصة يريد الشام . ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعّارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من فى السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك مما نما اليه من المفظعات فى تلك الليلة ، فلم يُرَ عبد الملك فى ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ، ولا أثبت جنانا منه تلك الليلة ، تجلدا وسياسة للملوك ، فترك اظهار الفشل ، وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وبها نائل بن قيس على جيش ابن الزبير فالتقوا باجنادين ، فقتل نائل بن قيس وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ، ونمى خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب بن الزبير وهو فى الطريق فولّى راجعا الى المدينة » .

وان رجلا هذه سياسته فى التخلص من العقبات التى قد تظهر أمامه نتوقع له أن تتم الأمور له بأسرع مما هو يتوقع . ولذا أصبح عبد الملك خصما لدودا لحركة عبد الله بن الزبير ، ودار صراع عنيف بين الخليفتين ، خليفة الشام وخليفة الحجاز .

وكان عبد الملك ملما بتاريخ الحركات السياسية التى قامت فى بلاد العراق ، وكان يعرف أن كلاّ منها تتعارض مع الأخرى فى مبادئها ، فتركها تضرب بعضها بعضا ووقف هو موقف المتفرج ، حتى ينتهى دور الصراع بينها فيتولى هو أمر الفائز منها على الآخرين . فقد كفاه ابن زياد خطر التوابين ، وكفاه المهلب

ابن أبى صفرة بأس الخوارج ، وكفاه مصعب بن الزبير قتال المختار بن أبى عبيد الثقفى . وبقى مصعب بن الزبير ، والى أخيه ، على مسرح السياسة فى بلاد العراق ، وبدأ صراع عنيف بينه وبين عبد الملك ، فقد رأى عبد الملك أن ينتزع بلاد العراق من عبد الله بن الزبير ثم يوجه ضربته الى قلب دولة ابن الزبير أى بلاد الحجاز .



٨ ـ موقف الأحزاب الإسلامية من خلافة ابن الزبير

موقف الحزب الهاشمي

موقف حزب التوابين

موقف الخوارج الأزارقة

موقف حزب المختار

موقف الأحزاب الإسلامية من خلافة ابن الزبير

موقف الحزب الهاشمى :

لم يؤيد بنو هاشم حـــركة عبد الله بن الزبير ، فقـــد كان الهاشميون يعتقدون أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، فعملوا على دفع العلويين منهم ، أى آل على بن أبى طالب فى بداية الأمر الى الخلافة . حتى اذا تكرر اخفاق الحركات العلوية فى العصر الأموى ، بدأ فرع آخر من بنى هاشم وهو الفرع العباسى ، أحفاد العباس بن عبد المطلب ، يسعى الى الخلافة .

سعى الهاشميون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى تولّى على بن أبى طالب الخلافة . ولكن تولاها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكلهم من غير بنى هاشم ، بل كان عثمان شيخ بنى أمية وهم من أكبر المنافسين لبنى أمية .

وتولى على بن أبى طالب الخلافة ، فأصبح رابع الخلفـــاء الراشدين . وقامت ضده ثورة تزعمها الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله وعائشة رضى الله عنها . وقد مر بنا الدور الكبير الذى قام به عبد الله بن الزبير فى حرب الجمل . وكان الحسن والحسين ولدى علىّ فى صحبة أبيهما . ولم يخلّص عبد الله بن الزبير من أيدى علىّ وأولاده سوى شفاعة عائشة فيه فأخلوا سبيله .

حتى اذا وضعت الحرب أوزارها ، لم يكن فى نفوس كل من الفريقين نحو الآخر سوى الحقد والبغضاء . ولكن بنى هاشم انشغلوا عن عبد الله بن الزبير بصراع آخر عنيف ، وهو الصراع مع بنى أمية الذين تزعمهم معاوية بن أبى سفيان . فقد اشتبك علىّ ومعاوية فى موقعة صفين ، حتى اذا قُتل علىٌ ، بايع أهل العراق ابنه الحسن بن على ، وبدأ الصراع بين الحسن خليفة العراق ومعاوية خليفة الشام ، وأخذ عبد الله بن الزبير فى الحجاز يرقب الصراع بين الخليفتين ؛ ويتحيّن الفرص ليدعو لنفسه بالخلافة فى بلاد الحجاز .

وأدى الصراع المرير الذى دار بين الأمويين والهاشميين ، الى أن تناسى كل من بنى هاشم وعبد الله بن الزبير عداءهم القديم ورأوا جميعا أن يتكاتفوا ويتعاونوا ضد معاوية وبنى أمية .

ولما تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية ، تزعم الحسين ابن على حركة معارضة بنى هاشم للحكم الأموى . وبدأ التآلف والتآزر بين الحسين وعبد الله بن الزبير ، وقد نجحا فى تنظيم حركة المعارضة لمعاوية حين طلب البيعة بولاية العهد لابنه يزيد .

وبعد وفاة معاوية ، تولى الخلافة يزيد . وقد مر بنا كيف اتفق الحسين وابن الزبير على الامتناع عن البيعة ليزيد ، وعلى الخروج من المدينة الى مكة .

وفى مكة ، أخذ كل من الحسين بن على وعبد الله بن الزبير فى جمع الأنصار وتكوين حزب معارض للدولة الأموية . ولم يجد الحسين مشقة فى جذب المسلمين اليه ، فقد توافدوا عليه يعلنون

ولاءهم وتأييدهم ، فهو حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم وابن على بن أبى طالب . وشعر ابن الزبير بمنافسة الحسين ، فرأى أن يصبغ حركته السياسية بصبغة دينية ، فسمى نفسه (العـــائذ بالبيت) ، فكان مجلسه دائما عند الكعبة حيث يلتقى بالوافدين عليها . ولكن ابن الزبير استمر على صداقته ومودته للحسين ، فكان يتردد دائما على مجالسه ، ويشاركه آراءه ودعوته .

ثم كانت مأساة كربلاء فى عهد يزيد بن معاوية ، حيث استشهد الحسين بن عـــلى وبعض العلويين . وكانت هذه الفاجعة ضربة عنيفة أصابت الحزب الهاشمى ، فقد فَقَدَ هذا الحزب زعيمه وقائده . فقد كان باقى زعمائه مثل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ومحمد بن على بن أبى طالب (المعروف بابن الحنفية) لا يطمعون فى تولى الخلافة .

رأى عبد الله بن الزبير أن من صالح حركته أن يستمر العداء ناشبا بين بنى أمية والحزب الهاشمى . فقد كان لبنى هاشم منزلة كبرى فى قلوب المسلمين ونفوسهم ، وكانت معارضتهم للدولة الأموية مما يفت فى عضدها . ورغم أن الخليفة يزيد بن معاوية قد أمر واليه عبيد الله بن زياد بمنع الحسين بن على من الرحيل الى العراق مما أدى الى فاجعة كربلاء ، الا أن يزيد رأى أن يهادن البيت الهاشمى ويستميلهم ويعوضهم عن خسارتهم الفادحة ، حتى يهدىء من ثورتهم وثورة المسلمين فى كل مكان ، فقد سخطوا على يزيد واعتبروه مسئولا عن مصرع الحسين .

بدأ يزيد بن معاوية فى تنفيذ هذه السياسة ، فتبرأ من قتل الحسين ، وألقى بكل المسئولية على عاتق ابن زياد ، وأعلن أن ما حدث للحسين كان بغير علمه وبدون رغبته . ورأى يزيد أن يستميل اليه أحد زعماء بنى هاشم ، ووجد ضالته المنشودة فى شخص محمد بن على بن أبى طالب ، المعروف بابن الحنفية .

كتب يزيد رسالة رقيقة الى محمد بن الحنفية ساق فيها المديح له والثناء عليه ، ودعاه لزيارته فى دمشق بالشام . واستشار ابن الحنفية ولديه صغير وعبد الله فى أمر هذه الدعوة فنهياه عن السفر . ولكنه رأى قبول الدعوة ، فشد رحاله الى دمشق .

وفى دمشق ، أحاط يزيد ابن الحنفية بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وأغدق عليه الصلات والجوائز ، ولذا سارع ابن الحنفية بالبيعة له بالخلافة . وأراد يزيد أن يمحو ما فى قلب ابن الحنفية من ألم وحقد لمصرع الحسين على يد واليه ابن زياد ، فأخذ يتبرأ من قتله ويستمطر الرحمات عليه . واستفاد يزيد من بيعة ابن الحنفية له ، فهو زعيم من زعماء بنى هاشم ، ورأس من رؤساء العلويين .

عاد ابن الحنفية الى بلاد الحجاز ، وأعلن لأهلها بيعته ليزيد ابن معاوية ، وأخذ يمتدح يزيد على مسمع من أهل الحجاز ، مما آلم عبد الله بن الزبير الذى كان يسعى الى هدم خلافة يزيد ، ويتهمه بقتل الحسين ، ولكن هذا هو محمد أخى الحسين يبايع ليزيد ، مما يضيع على ابن الزبير جهوده ومساعيه .

ووقف أحد زعماء الحزب الهاشمى من حركة عبد الله بن الزبير موقفا سلبيا ، فلم يعلن تأييده لها ، وهو عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب . وحاول ابن الزبير مرات كثيرة أن يفوز بتأييد ابن عباس ، دون جدوى . وحمد يزيد لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فبعث اليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير ، وقد ظن أن ذلك طاعة له . ودعا يزيد ابن عباس وبنى هاشم الى التمسك ببيعتهم له ، ومناه فى ختام رسالته بالأمانى والوعود .

لم يكن امتناع ابن عباس عن تأييد ابن الزبير ولاء منه ليزيد . فقد كان مقتنعا بأحقية بنى هاشم دون غيرهم بالخلافة . فكتب ابن عباس رده على رسالة يزيد ، فأخبره أنه فى غنى عن حمده له وثنائه عليه ، وأن ما يمنيه به من مال وصلات انما هو حق لهم ، وهو قليل من كثير كانوا يستحقونه ، ثم ذكره فى ختام رسالته أنه لا ينسى أنه قتل الحسين بن على ! [1] .

ولمس يزيد امتناع ابن عباس عن تأييده وطاعته ، فرأى أن يقصر اعتماده على ابن الحنفية فى استمالة قلوب بنى هاشم لخلافته . وكان ابن الحنفية عند حسن ظن يزيد به . وبدا ذلك واضحا عند عودة وفد المدينة من دمشق ، فقد وقف عبد الله ابن مطيع وابن حنظلة يحثون أهل المدينة على خلع يزيد ، وأخذوا يشتمونه ويسبونه بأقذع الألفاظ . فوقف ابن الحنفية من يزيد

---

(1) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢٠ .

موقف المدافع ، فأخذ يبعد عنه كل اتهام وجهوه اليه ، فنفى عنه أن يشرب الخمر وشهد أنه أقام عنده أياما فلم يره يشربها ، ثم استمر فى دفاعه فقال : « ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة متحريا للخير يسأل عن الفقه ملازما للسنة » [1] .

ظن أهل المدينة أن ابن الحنفية يدافع عن يزيد لأنه لا يريد البيعة لعبد الله بن الزبير . فعرضوا عليه أن يولوه عليهم ، فرفض عرضهم ، كما رفض أن يشاركهم فى قتال يزيد ، حتى اذا هددوه بأنهم سيكرهوه على القتال ، ترك المدينة ورحل عنها الى مكة . ووصف المؤرخ البياسى الموقف بين ابن الحنفية وابن الزبير وأهل المدينة ، فقال : « واجتمع أهل المدينة فى المسجد وخلعوا يزيد ، وأظهروا البراء منه ، وأجمعوا على ذلك ، وامتنع عن ذلك عبد الله بن عمر ، ومحمد بن علي بن أبى طالب ، وجرى من محمد خاصة وبين أصحاب ابن الزبير فيه قول كثير حتى أرادوا اكراهه على ذلك ، فخرج الى مكة . وكان هذا أول ما هاج الشر بينه وبين ابن الزبير » .

ثم كانت موقعة الحرة ، حينما غزا جيش يزيد المدينة ونكلوا بأهلها شر تنكيل وقد هب المسلمون جميعا للدفاع عن مدينة

(١) ابن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط) ورقة رقم ٥ .
(٢) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) جـ ٢ ورقة رقم ٣٣ .

الرسول المنورة . ولكن بنى هاشم وقفوا من الجيش الأموى موقفا سلبيا ، فيذكر المؤرخ ابن طولون : « لم يخرج أحد من آل طالب ولا من بنى عبد المطلب فى وقعة الحرة » (١) . وكان ابن عباس وابن الحنفية خلال الغزو فى مكة .

وجاء الخبر ينعى الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، فدعا ابن الزبير الناس للبيعة له بالخلافة ، ويجمع المؤرخون أن معظم أهل الحجاز أقبلوا عليه يبايعونه ، وسيطر على معظم ولايات الدولة العربية الاسلامية واشتهر أمره بين المسلمين . وطلب ابن الزبير البيعة من ابن عباس وابن الحنفية فقالا له : حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الأمر وما عندنا خلاف (٢) .

وكان امتناع ابن الحنفية عن البيعة لابن الزبير سببا فى نشوب عداء شديد بينهما . وقد كان ابن الزبير حريصا على الفوز ببيعته ، باعتباره زعيما لبنى على بن أبى طالب ، ولبنى هاشم عامة . ولذابدأ ابن الزبير يجهر بعدائه لابن الحنفية ، ويهاجمه علنا .

ودافع ابن الحنفية عن نفسه ، فوقف يخطب الناس : يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ، أينتقض علىّ وأنتم حضور ؟ ان عليّا كان سهما صادقا أحد مرامى الله على أعدائه يقتلهم لكفرهم ، ويهرعهم مآكلهم ، فثقل عليهم فرموه بصرفة الأباطيل . وانا معشر له على نهج من أمره بنو الحسين من الأنصار . فان تكن لنا الأيام

---

(١) ابن طولون : قيد الشريد (مخطوط) ورقه ٥ .
(٢) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج ٧ ص ٤٠٨ .

دولة تنثر عظامهم وتحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون !!

وعاد ابن الزبير يهاجم ابن الحنفية ، ولعله يقصد أن يتخلى ابن الحنفية عن تأييد الدولة الأمويه والاقبال على بيعته . قال ابن الزبير : عذرت بنى الفواطم ، فما بال بنى حنيفة [1] ؟ فأسرع ابن الحنفية يقاطعه ويقول : يا ابن رومان ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم اخوتى ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت فى بنى أسد عظما الا هشمته ، وان نالتنى فيه المصائب صبرت [2] ؟ !

ورأى ابن الزبير أن يبعد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس عن مكة ، حتى لا يتأثر أهل مكة بآرائهما فى الدولة الأموية وعبد الله ابن الزبير . فخرج ابن الحنفية الى ناحية رضوى ، كما خرج ابن عباس الى الطائف ، وما لبث ابن عباس أن مات فى سنة ٦٨ هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان موقف ابن الحنفية من حركة عبد الله بن الزبير سببا فى ظهور حزب شيعى جديد هو حزب الكيسانية . وهم الذين « وردوا الى ابن الحنفية .. وهم القائلون بامامة محمد بن الحنفية » [3] .

---

(١) كان ابن الحنفيه ابنا لعلى بن ابى طالب من زوجة من بنى حنيفة ، أى أنه لم يكن ابنا لفاطمة بنت الرسول .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤ .

موقف حزب التوابين :

كانت الحركة الزبيرية تتلمس قيام حركة تعمل على مناوأة الأمويين . ولذا كان قيام حزب التوابين ومناهضة الدولة الأموية من العوامل المساعدة لحركة ابن الزبير ، ولذا مد الزبيريون أيديهم الى التوابين ، رغم اختلاف أهدافهم وأغراضهم ، وان جمعهم كراهيتهم ومعارضتهم للدولة الأموية . فقد كان الزبيريون يعملون على قيام خلافة زبيرية يتولاها عبد الله بن الزبير فى بلاد الحجاز . أما (التوابين) فقد عملوا على قيام خلافة علوية يتولاها أحد أبناء على بن أبى طالب فى بلاد العراق .

رأت الشيعة بالكوفة بعد أن تخلوا عن نصرة الحسين « أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله ، أو القتل فيه » [1] ؛ وصاحوا عند قبر الحسين طالبين التوبة والمغفرة من الله ، وسموا أنفسهم التوابين . وتزعم حركة التوابين خمسة من زعماء الشيعة هم : سليمان بن صرد الخزاعى وهو من صحابة الرسول ، والمسيب ابن نجبة الفزارى ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى ، وعبد الله ابن والى التميمى ، ورفاعة بن شداد البجلى ، وكلهم من خيار أصحاب علىّ بن أبى طالب [2] . ونظرة واحدة الى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التى ساهمت فى هذه الحركة التوابية .

إجتمع هؤلاء الزعماء فى منزل سليمان بن صرد وتنـاوبوا الخطابة ، وأعلنوا ندمهم على تخاذلهم فى الدفاع عن الحسين ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٤٦ .

وأقسموا على الأخذ بثأره ولو أدى ذلك الى قتلهم . وعلى الرغم من أن حركتهم بدأت منذ قتل الحسين بن على سنة ٦١ هـ الا أنهم رأوا كتمان مبادئهم واتفقوا على الخروج الى النخيلة فى آخر ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ ولكنهم سرعان ما قدّموا هذا الموعد الى شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ حين علم زعماؤهم بوفاة يزيد ابن معاوية [١] .

قضى حزب التوابين الفترة بين ٦١ — ٦٤ هـ فى الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة واستمالة الناس . وكتب ابن صرد الى شيعة المدائن ، وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين فأجابوه جميعهم الى ما دعاهم اليه [٢] ثم كانت وفاة يزيد ابن معاوية وما تبعها من انقسام بنى أمية فاعتبرها (التوابين) نصرا لهم [٣] .

انشرح صدر عبد الله بن الزبير لقيام حركة التوابين ، وهى حركة عراقية صميمة . فقد رأى أن التوابين سيشغلون الأمويين عن قتاله ، ويثيرون الاضطرابات فى العراق مما يمهد لانتشار الدعوة الزبيرية فى العراق . وولى ابن الزبير على الكوفة عبد الله ابن يزيد الأنصارى ، كما ولى خراجها ابراهيم بن محمد بن طلحة ابن عبيد الله [٤] . وكان على هذين الواليين أن يحددا موقفهما

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٦ .
(٤) الطبرى ج ٧ ص ٥٣ .

من حركة التوابين التى ضمت الشيعة ومعظم أهل العراق . وكانت أهداف الحركتين متشابهة ، فهم جميعا يعملون على زوال الحكم الأموى ، لكن اختلفت الوسائل .

عمل عبد الله بن يزيد على الاستفادة من حركة التوابين ، فقد كان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يثوروا فى الكوفة ، فخرج ابن يزيد الى المسجد ، ورأى أن يوجههم الى عدوهم الحقيقى بعيدا عن الكوفة فيأمن بذلك شرهم ، فقال : « ما أنا قتلت الحسين ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ، فان كان هؤلاء القوم آمنين فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى قاتل الحسين فقد أقبل اليهم وأنالهم على قائله ظهر ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم قد توجه اليكم فى عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضنا فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رقعتم »[1] . وهكذا استفاد ابن الزبير من قوة التوابين فقاموا عنه بصد ابن زياد الذى قدم فى الحقيقة للقضاء على الدعوة الزبيرية فى العراق ، واعادة هذه البلاد الى الحظيرة الأموية .

عزم ابن صرد على الخروج للأخذ بثأر الحسين ، وأخذ يستعرض جيشه ولكنه وجده قليل الجند ، فبعث يدعو الناس للخروج معه ، فلم يستجب لندائه سوى أربعة آلاف . وأقام

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٤ .

سليمان ثلاثة أيام بمكان يسمى النخيلة على مقربة من الكوفة يدعو المتخلفين عنه ، ولكن لم يقدم عليه أكثر من ألف رجل آخرين [1] .

سار (التوابين) حتى بلغوا قبر الحسين ، وهناك استرحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له . ثم ساروا الى الأنبار ثم الى قرقيسيا وكان بها زفر بن الحارث الكلابي ، عامل ابن الزبير ، فقدم لهم المال والمؤن وعرض عليهم البقاء فى قرقيسيا وتوحيد جهودهم ليسهل لهم القضاء على ابن زياد ، ولكن ابن صرد أصر على المسير لقتال ابن زياد [2] .

وفى طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان بن الحكم وتولية ولده عبد الملك ، الذى أرسل اليه يقره على ما ولاه عليه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقى التوابين عند عين الوردة ، فطلب منهم أن يبايعوا لعبد الملك فرد عليه ابن صرد طالبا تسليم نفسه ، كما دعا ابن صرد ضد الشام الى خلع طاعة عبد الملك ومساعدة التوابين فى اخراج عمال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول [3] . غير أن كل فريق أبى الا أن يقاتل فى سبيل الأغراض التى خرجوا من أجلها . وانتهت معركة عين الوردة بمقتل سليمان بن صرد ومعظم أصحابه .

لماذا لم يستفد عبد الله بن الزبير من حركة التوابين ؟

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٧٣ .
(٣) البلاذرى : انساب الأشراف ج ٥ ص ٢١ .

يرجع ذلك الى عدة عوامل . أولها ضعف التوابين من الناحية العسكرية وعدم تقديم ابن الزبير المساعدة الحربية لهم . ولو كان التوابين على شيء من القوة العسكرية لنجحوا فى هزيمة جيش ابن زياد والقضاء على الجيش الأموى ، مما يخلص الحركة الزبيرية من عدو لدود . ولم يكن (التوابين) منافسين لابن الزبير ، فهم لم يخرجوا طمعا فى خلافة ، أو سعيا وراء عرض دنيوى ، بل كان هدفهم الرئيسى الانتقام من قتلة الحسين بن على وزلزلة الخلافة الأموية . وقد نادى (التوابين) بذلك فقالوا : « أنّا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا ، انما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبيّنا صلى الله عليه وسلم »[1] .

ومن عوامل ضعف التوابين ، تخاذل بعض أنصارهم ؛ فقد خرج سليمان بن صرد وقد ظن أن جنده قد بلغوا ستة عشر ألفا ، حتى اذا أحصاهم وجدهم نحو أربعة آلاف جندى . ومن عوامل ضعفهم أيضا ، تنافسهم على طلب الزعامة ، مما فرّق شملهم ، وبعثر جهودهم .

وكان جديرا بابن الزبير أن يمد التوابين ببعض جنـــوده ليتقووا بهم ، وأن يستحث أنصاره بالعراق أن يساعدوا التوابين ؛ فقد كان انتصارهم يعود بالفائدة المحققة على الحركة الزبيرية . كما كنا نتوقع أن يمدهم ببعض المال الذى كانوا فى أشد الحاجة اليه ، والناس عبيد الدرهم والدينار . وقد عرف زفر بن الحارث

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .

حاجتهم فمدّهم ببعض المالَ والمؤن ، فكان جديرا بابن الزبير أن يحذو حذو عامله زفر . وقد اعترف سليمان بن صرد بفقره فى المال ، وأنه ليس عنده ما يهبه للناس كما كان يفعل الخليفة الأموى ، فقال : « أيها الناس ، من كان خرج يريد الدنيا فوالله ما يأتى فىء نأخذه وغنيمة نغتنمها ، ما خلا رضوان الله . وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع ما هو الا سـيوفنا على عواتقنا وزاد قدرة البلغة ، فمن كان ينوى هذا فلا يصحبنا » .

ومن عوامل ضعف التوابين موقف المختـار بن أبى عبيد الثقفى منهم . فقد قدم المختار الى الكوفة فى نفس الوقت الذى قدم فيه عبد الله بن يزيد عاملا لابن الزبير . وبذل كل من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة ، فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ، بينما أراد المختار أن يجمع الناس حوله فيكوّن منهم حزبا قويا يساعده على الوصول الى النفوذ والسلطان .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد انتشرت سريعا ، فخاف المختار من انهيار آماله وضياع جهوده ، ولكنه كان فى حاجة الى أنصار يشد بهم أزره ، وكان يدرك أنه فى العراق موطن الشيعة ، فرأى أن يستعين بهم ويعتمد عليهم ، ولكنهم سرعان ما وجدهم قد اندمجوا فى حركة التوابين ، فكان عليه أن يمزّق شمل هـذه الحركة ، فبدأ يثنى الناس عن عزمهم فى الخروج مع ابن صرد لقتال ابن زياد « فكان المختار اذا دعا الشيعة الى نفسه والى الطلب بدم الحسين قالوا : هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة

وقد أطاعته الشيعة وانقادت له وولته أمرها . فيقول : ان سليمان رجل لا علم له بالحروب وسياسة الرجال . فلم يزل حتى انشعبت اليه طائفة منهم » [1] .

كان ابن الزبير يعلم أنه فى حاجة الى تأييد بلاد العراق ، التى كانت حينئذ مورد المال والرجال كما كان يعلم أن معظم أهل العراق شيعة على بن أبى طالب ، وأنهم لم يغضبوا لشىء مثلما غضبوا لمصرع الحسين بن على فى كربلاء . وقد ظهرت حركة التوابين للأخذ بثأر الحسين من قتلته ، ولذا كان على ابن الزبير أن يجهر برغبته فى الثأر للحسين ، وأن يكتب لولاته بالعراق بذلك .

ولكننا ننصف عبد الله بن يزيد ، والى ابن الزبير ، فقد شجع أهل العراق على الخروج لقتال عبيد الله بن زياد قائد الجيش الأموى ، ولكنه لم يساعدهم ماديا أو أدبيا ، ولذا كان تأييد والى ابن الزبير للتوابين تأييدا سلبيا . يتضح هذا الموقف السلبى فى خطبة ابن يزيد : « ان هؤلاء القوم — أى التوابين — يطلبون بدم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ظاهرين وليسيروا الى من قاتل الحسين ، فقد أقبلهم عليهم — يعنى ابن زياد — وأنا لهم ظهير . هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل أخياركم وأمثالكم قد توجه اليكم ، وقد فارقوه على ليلة من جسر منبج ، فالقتال والاستعداد اليه أولى من أن

---

(1) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٧ .

تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضا فيلقاكم عدوكم وقد ضعفتم وتلك أمنيته ، وقد قدم عليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتال أهل العفاف والدين ، هو الذى من قبله أتيتم والذى قتل من تنادون بدمه ؟ فقد جاءكم فاستقبلوه بجدكم وشوكتكم واجعلوها ؛ ولا تجعلوها بأنفسكم ، انى لكم ناصح » (١) .

وهكذا قصر ابن يزيد ، والى ابن الزبير ، مساعدته على النصح والتحذير كما أبدى ابن يزيد ترددا واضحا فى موقفه من التوابين . وكان جديرا به أن يتبع احدى سياستين . اما أن يمد التوابين بالمال والجند والسلاح ، وكان يسيطر على بيوت الأموال ، وبذلك يصبح (التوابين) فى حالة تمكنهم من الانتصار على عبد الله ابن زياد . أو يحاول اثناء التوابين عن عزمهم فى الخروج ، وينصح لهم بالتريث حتى يصل ابن زياد الى العراق ، فيخرج ابن يزيد بجيوشه يؤازره (التوابين) وأهل العراق ، فتسهل عليهم هزيمة عدوّهم . ولكن ابن يزيد تردد بين هاتين السياستين ، فنراه فى أول الأمر يحضهم على الخروج دون أن يساعدهم ، حتى اذا بدأوا رحلتهم ، شعر بخطئه فبعث اليهم رسولا يطلب منهم العودة ، لأنه شعر بضعف التوابين وقلة عددهم ، فخاف عليهم من الهزيمة فى وقت هو فى حاجة الى انتصارهم .

بعث ابن يزيد اليهم يحثهم على العودة ويحذرهم من المخاطرة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .

بالخروج ، فيقول فى كتابه لهم : « ان المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشه ، وأنتم اخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل مصر خلقة الله الينا فلا تفجعونا بأنفسكم ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا . أقيموا معنا حتى نتيسر ونتهيأ ، فاذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا اليهم بجماعتنا فقاتلناهم » (١) .

ولكن سليمان بن صرد زعيم التوابين خيّب آمال عبد الله ابن يزيد فرفض دعوته لهم بالرجوع وصمم على الخروج لقتال ابن زياد ، وحاول ابن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة اغراء سليمان فعرضا عليه أن « يقيم معهما حتى يلقوا أهل الشام على أن يخصاه وأصحابه بخراج جوخى خاصة لهم دون الناس . فقال لهم سليمان : انّا ليس للدنيا خرجنا » (٢) .

لم يوّفق عبد الله بن زياد فى اختيار ابراهيم بن محمد ابن طلحة ليتولى خراج الكوفة ، ولينوب عنه فى أخذ البيعة من أهلها . فقد كان معظم أهل العراق من شيعة على بن أبى طالب ، وكانوا لا يزالون يذكرون مناصبة طلحة بن عبيد الله ، جد ابراهيم ، العداء لعلى فى موقعة الجمل . وكان جديرا بابن الزبير أن يختار واليا يرضى أهل العراق عنه ، أو يقف منهم موقفا محايدا ، وخاصة أن ابراهيم بن محمد بن طلحة قد وصل الى العراق فى وقت ظهر فيه حزب التوابين وهى حركة علوية شيعية .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .

كما كان هناك فى بلاد العراق حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى وكان يدعو الى اقامة خلافة علوية ، وينشر بين الناس أنه وزير محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفر من حدوث صدام عنيف بين ابراهيم بن محمد بن طلحة وأهل العراق . ونسى ابراهيم أنه نائب ابن الزبير فى بلاد العراق ؛ وأن من واجبه أن يعمل لمصلحته قبل كل شىء ، وأن يتناسى حقده القديم لشيعة على بن أبى طالب .

ولذا كان ابراهيم بن محمد بن طلحة غير جدير بثقة عبد الله ابن الزبير فيه . وبدا هــذا واضحا فى سياسته . فحينما خطب ابن يزيد فى الناس خطبته التى أشرنا اليها ، والتى هدّأ فيها من ثورة التوابين وأراد أن يوجهها الى قتال ابن زياد بدلا من خروجهم عليه ، أبدى ابراهيم غضبه وسخطه على موقف ابن يزيد ، وأعلن عدم موافقته على هذه السياسة ، فصاح والحماســة تملؤه ، مهددا ومتوعدا ، « أيها الناس ، لا يغرّنكم عن السيف والغشم مقالة هذا المداهن المخادع — يقصد ابن الزبير — والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ولئن استيقنّا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم بالحميم ، والعريف بما فى عرافته ، حتى يدينوا للحق ويذلوا للطاعة » [1] .

لم يرض (التوابين) عن مقالة ابراهيم ، فقام أحد زعمائهم ، وهو المسيب بن نجبة فقاطعه وقال : « يا ابن الناكثين أنت تهددنا

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ .

بسيفك وغشمك ، أنت والله لأذلَ من ذلكَ . انّا لا نلومكَ على بغضنا ، وقد قتلنا أباكَ وجدّك . والله انى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل هذا المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك . وأما أنت أيها الأمير — يعنى ابن يزيد — فقد قلت قولا سديدا ، وانى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك ، وقابلا قولك » [١] .

ووقف زعيم آخر للتوابين يعارض حديث ابراهيم وينهره ، فقال : « ما اعتراضك يا أخا بنى تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ، فوالله ما أنت علينا بأمير ولا لك علينا سلطان . انما أنت أمير جزية . فأقبل على خراجك ، فلعمر الله لئن كنت مفسدا ما أفسد هذه الأمة الا والدك وجدك الناكثان ، فكانت بهما اليدان ، وكان عليهما دائرة السوء » [٢] .

اتخذ عبد الله بن يزيد موقفا ضعيفا من ابراهيم بن محمد ابن طلحة ، وسمح له بأن يتحدث بلسانه بما يضر بالحركة الزبيرية ومصالح ابن الزبير بالعراق ، وبما يثير مشاعر أهل العراق ، وكان ابن الزبير فى حاجة الى تأييدهم ومناصرتهم . ولم يهتم ابن يزيد بتهدئة ثورة أهل العراق بعد أن أثارها ابراهيم ، وكان عليه أن يشكوه الى خليفته ابن الزبير حتى يحد من غلوائه . ولكن ابن يزيد تمادى فى سياسة الضعف ، فأبدى خوفه من غضب ابراهيم عليه ، فقصده يعتذر اليه ويطلب الصفح منه . فيقول

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ — ٤٣٦ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ .

ابن الأثير [1] : « نزل الأمير من على المنبر ، وتهدده ابراهيم بأنه يكتب الى ابن الزبير يشكوه ، فجاءه عبد الله فى منزله واعتذر اليه فقبل عذره » .

وهكذا كان ضعف عبد الله بن يزيد ، وسوء اختيار ابراهيم ابن محمد بن طلحة ، سببا فى انفضاض كثير من أهل العراق عن دعوة عبد الله بن الزبير بعد اقبال عظيم منهم عليها ، وضياع فرصة استفادة ابن الزبير من حركة التوابين ، وكان من الممكن أن تكون سلاحا ماضيا فى يد عبد الله بن الزبير .

موقف الخوارج الأزارقة :

كان الخوارج يمثلون النزعة البدوية بصراحتها وجرأتها ، فهم لا يعترفون بحق قريش فى الخلافة ، ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذى سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخابا عاما يشمل جميع المسلمين . وشاركت القبائل العربية الخوارج فى سخطهم على الأمويين ، فرأت أن انتصار الأمويين انتصار جديد لقريش على سائر العرب [2] . وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى محاربة الأمويين ، مما جعل الدولة الأموية . تحاربهم بسيف الدين وتقارعهم بحجج الاسلام . ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين الى اللهو وانغماسهم فى الترف ،

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٦٩ .
(٢) الدورى : مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ص ٧٥ .

ولذا استقر رأيهم على العمل للعودة الى العهد الاسلامى الأول ؛ عهد المساواة والاخاء ، وأثاروا فى وجه الخلافة الأموية الفتن والقلاقل فى أطراف الدولة العربية الاسلامية . ومما زاد فى خطورة الخوارج أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحد كلمتهم وتجمع شملهم .

كانت تعاليم الخوارج الأولى سياسية محضة ، تنحصر فى رأيهم فى التحكيم والخلافة ، لكنهم سرعان ما مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية (١) . ويرجع ذلك الى انقسام الخوارج الى عدة فرق وكان ذلك بسبب اختلاف زعمائهم فى مبادئهم وتنافسهم على الزعامة . فقد بدأ حزب الخوارج محدود العدد والقوة والمال ، ولكن ما كاد أمره يستفحل ويستشهد زعماؤه البارزون ، حتى برز رجال الصف الثانى ، وكل منهم حريص على القيادة . وانقسمت الخوارج تبعا لذلك ، والتف كل فريق حول واحد من هؤلاء الزعماء ، وخير دليل على ذلك أن فرق الخوارج كانت تعرف بأسماء زعمائها لا بمبادئها ومذاهبها .

انقسمت الخوارج الى عشرين فرقة وفرقة الأزارقة هى التى تهمنا فى بحثنا هذا عن عبد الله بن الزبير . وهى أقوى هذه الفرق وأكثرها عددا ، وهم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى (٢) . وقد نادت هذه الفرقة بثمانية مبادىء : أولها تكفير على وعثمان ، وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس وسائر من انضم اليهم ،

---

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣١٠ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٥ .

واعتقادهم بتخليدهم فى النار . وثانيها تكفير القعدة عن القتال ومن لم يهاجر اليهم . وثالثهم اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم . ورابعهما اسقاط الرجم عن الزانى حيث لم يذكره القرآن ، واسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء . وخامسها الحكم بأن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم . وسادسها أن التقية غير جائزة فى قول ولا عمل . وسابعها أنه من الجائز أن يبعث الله تعالى نبيا يعلم أنه يكفر بعد نبوته أو كان كافرا قبل البعثة ، ومن جوّز من الأمة الكبائر والصغائر على الأنبياء اعتبروا كافرين . وثامن هذه المبادىء أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فهو كافر وخارج عن الاسلام ومخلد فى النار ، وعللت الأزارقة قتلهم الأطفال بأنهم « اذا كبروا كانوا مثل آبائهم »[1] .

ترجع صلة ابن الزبير بهؤلاء الخوارج الأزارقة ، فى وقت كانت الدولة الأموية فى أوج مجدها ، وعبد الله بن الزبير فى محنة وموقف حرج ، يوم بعثت الدولة الأموية جيشا كثيفا بقيادة الحصين بن نمير لغزو ابن الزبير فى الكعبة ومكة . وكان ابن الزبير يتلمس المساعدة والمعونة ، ليواجه الأمويّين . وفى ذلك الوقت ، كان هؤلاء الخوارج يقاسون من شدة عبيد الله بن زياد الوالى الأموى على البصرة ، فقد اضطهدهم وطاردهم ، وكانوا أضعف من أن يقاوموه ، فقد كانت الدولة الأموية فى ذروة قوتها .

---

(١) الأصبهانى : الأغانى جـ ٥ ص ٣ .

فرأوا أن يرحلوا الى ابن الزبير عدو الأمويين ، ليتكاتفوا معه على رد عدوهم المشترك ، وليزودوا عن الكعبة ومكة .

تقدم نافع بن الأزرق الى أتباعه الخوارج ينصحهم بالرحيل الى عبد الله بن الزبير ، فقال : « ان الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم فيه الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدى والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة فأخرجوا بنا نأتى البيت ونلق هذا الرجل — أى ابن الزبير — فان يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وان يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك فى أمرنا » [١] .

قدم الخوارج الأزارقة على ابن الزبير ، وكان فى حاجة الى مساعدتهم ومؤازرتهم ، ولذا رحب بهم « وأنبأهم أنه على مثل رأيهم من غير تفتيش ، فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد ابن معاوية وانصرف أهل الشام » [٢] .

وفى الحق ، قاتل الخوارج فى جانب ابن الزبير بحماسة واستماتة ، وكان لهم فضل كبير فى تدعيم قوته الحربية . فقد امتاز الخوارج بالشجاعة والتمسك بمبادئهم فضلا عن حرصهم على مناهضة الأمويين دون أن يكترثوا بالصعاب التى تواجههم والأهوال التى تكتنفهم . يقول ابن عبد ربه [٣] عنهم : « وليس فى الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج وأكثر اجتهادا ولا أوطن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .
(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢٢٣ .

أنفسا على الموت » . ويصف المؤرخ (نيكلسن) [1] الخوارج بأنهم المثل الأعلى فى التضحية فى سبيل العقيدة والاستماتة فى القتال حتى يحققوا مبادئهم ، كما أنهم لم يجاهدوا لتحقيق مطامع شخصية ، كما كانت سائر الأحزاب الأخرى سواء أكانت شيعية أم أموية . ولم يؤمن الخوارج بالتقية كما آمنت بها أكثر فرق الشيعة ، ويرجع السبب فى ذلك الى شجاعة الخوارج وجرأتهم وتمسكهم بمبادئهم . كذلك كانت صراحة الخوارج فى الجهاد عاملا هاما فى جعلهم شوكة دائمة فى جنب الدولة الأموية .

انتهى حصار مكة بانتهاء حياة يزيد ، وعاد الحصين بن نمير بجيشه الى الشام ، وسكت السيف ليتكلم اللسان ، فرأى الخوارج أن يقفوا على آراء ابن الزبير ، وهل توافق مبادئهم . فقد كانوا فى عجلة من أمرهم ، حيث داهمهم العدو الأموى ، فلم يكن هناك مجال للنقاش والجدال ، فقد كان همهم موجها لصد الجيش الأموى . حتى اذا تحقق النصر لهم جميعا قال الخوارج بعضهم لبعض : ان الذى صنعتم أمس لغير رأى ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادى ياثارات عثمان ، فائتوه واسألوه عن عثمان ، فان برىء منكم كان وليكم ، وان أبى كان عدوكم » .

وقدم الخوارج على ابن الزبير يستطلعون آراءه ومبادئه . تقدم أحد زعماء الخوارج وهو عبيدة بن هلال الى ابن الزبير

---

(١) Lit. His. of the Arabs, P. 211.

فقال له : «أما بعد ، فان الله بعث محمدا يدعوه الى عبادته واخلاص الذى له ، فدعا الى ذلك ، فأجابه المسلمون ، فعمل منهم بكتاب الله حتى قبضه الله ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيّه ، ثم ان الناس استخلفوا عثمان فحمى الأحماء وآثر القربى واستعمل الغنى ورفع الدرة ووضع السوط ومزق الكتاب وضرب منكر الجور وآوى طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب السابقين بالفضل وحرمهم ؛ وأخذ فىء الله الذى أفاء عليهم فقسمه فى فساق قريش ومجان العرب ، فسارت اليه طائفة فقتلوه ، فنحن لهم أوليـــاء ومن ابن عفان وأوليائه براء . فما تقول أنت يا ابن الزبير » .

وبعد أن انتهى الخوارج من سؤالهم عبد الله بن الزبير عن مبادئه ، وعن آرائه فى أبى بكر وعمر وعثمان ، قال ابن الزبير : قد فهمت الذى ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقت وأصبت ، وفهمت ، الذى ذكرت به عثمان ، وانى لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان ، وأمره منى كنت معه حيث نقم عليه واستعتبوه فلم يدع شيئا الا أعتبهم ، ثم رجعوا اليه بكتاب لهم يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم ما كتبه فان شئتم فهاتوا بينتكم ، فان لم تكن حلفت لكم فوالله ما جاؤه ببينة ولا استحلفوه ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عتبه به ؛ فليس كذلك بل هو لكل خير أهل . وأنا أشهدكم ومن حضرنى أنى ولىّ لابن عثمان ؛ وعدو أعدائه فبرىء الله منكم !! .

وكان الخوارج يجوبون الأرض ويبذلون المال والأرواح فى سبيل مبدأ يسعون لتحقيقه ، فلا يهدفون لغرض زائل أو لأمور دنيوية ، فهم بعد أن فطنوا لآراء ابن الزبير وأدركوا اختلافهم معه فى مبادئه ، عزموا على ألا يمدوا له يد المساعدة بعد ذلك ، ولو منحهم ذهب الأرض جميعه . فغادروه الى العراق من حيث أتوا .

وصل الخوارج الى البصرة ، فى وقت اضطرب أمرها وضعفت سلطة عبيد الله بن زياد ، وهو وان كان بالأمس على قدر من القوة والبأس تسمح له بقتالهم ، فقد أصبح اليوم عاجزا تماما عن ذلك ، فقد ثار عليه أهل البصرة كما مر بنا .

أعلنت الخوارج الثورة على ابن زياد ، فخرجوا الى سجن البصرة فكسروا بابه وأطلقوا سراح من به من المسجونين . ولكن خابت آمال الخوارج بتولى حاكم قوى هو عبد الله بن الحرث الذى عاد الى سياسة ابن زياد فى مطاردة الخوارج ، فجمع نافع ابن الأزرق رجاله وساروا الى الأهواز فى شوال سنة ٦٤ هـ . وخالف نافعا فى عزمه على الفرار ، بعض أنصاره مثل عبد الله ابن الصفار ، وعبد الله بن أباض ، فكان ذلك سببا فى ظهور فرق الخوارج الصفارية والأباضية .

ووجد نافع فى أرض الأهواز الهدوء الذى نشده ، فدعم قوته وكثر أنصاره ، وساعده على ذلك انشغال أهل البصرة بهؤلاء الذين طالبوا بثأر الحسين بن على . وشعر عبد الله بن الحرث والى ابن الزبير بتزايد خطورة الخوارج ورأى أن يحد من

شوكتهم فبعث اليهم بجيش لقتالهم يقوده مسلم بن عبيس ابن كريز . ودار صراع عنيف انتهى بمصرع كل من نافع بن الأزرق ومسلم بن عبيس .

تولى عبد الله بن الماحوز قيادة جيش الخوارج ، كما تولى الحجاج بن باب الحميرى قيادة جيش البصرة . واشتبك القائدان الجديدان فى معركة حامية الوطيس انتصر الخوارج فيها ، وقتل قائد جيش البصرة الحجاج .

فزع أهل البصرة لانتصار الخوارج ، وأراد عبد الله بن الزبير أن يبث الطمأنينة فى قلوب أهل البصرة ، فعزل واليه عبد الله ابن الحرث وولى مكانه الحرث بن أبى ربيعة وأمره بصد الخوارج عن البصرة [1] .

اقتربت الخوارج من البصرة ، وزاد الفزع والاضطراب بين أهلها ، وتقدم البصريون الى أحد زعمائهم ، وهو الأحنف ابن قيس ، يستنجدون به ، ويطلبون مساعدته ، فلبّى نداءهم ؛ وقصد الحارث بن أبى ربيعة والى عبد الله بن الزبير وطلب منه أن يكتب الى خليفته ابن الزبير بمكة يطلب منه أن يبعث الى المهلب بن أبى صفرة واليه بخراسان يأمره بالقدوم الى البصرة للدفاع عنها ، لما يعرفونه عنه من اقدام وخبرة بالحروب . وأجاب ابن الزبير رغبتهم وكتب الى المهلب كتابا يأمره بتحقيق مطالب أهل البصرة [2] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٢ .
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨١ .

ودارت معركة حامية بين المهلب وبين الخوارج بقيادة عبد الله ابن الماحوز قرب نهرتستر ، فتحقق النصر للخوارج أول الأمر ، ولكن سرعان ما دارت الدائرة عليهم فقتل ابن الماحوز وهزم الخوارج فى موقعة (تسلى) بالأهواز ، وسارعت فلول البصرة تفر بعيدا عن البصرة والأهواز ، فرحلت الى أصبهان وكرمان سنة ٦٦ هـ (١) .

وشعر عبد الله بن الزبير أن البصرة فى حاجة الى حاكم قوى يدفع عنها خطر الخوارج ، فبعث أخاه مصعب بن الزبير واليا عليها ، وعزل الحارث بن أبى ربيعة . كما خشى عبد الله بن الزبير من ازدياد نفوذ المهلب بن أبى صفرة وافتتان أهل البصرة بشخصيته بعد نجاحه فى صد الخوارج ، فعزله من ولاية فارس وعن حرب الخوارج ، وعهد بالأمرين الى عمر بن عبيد الله بن معمر . وبدأ عمر بقتال الخوارج الذين ولّوا أمرهم الزبير بن الماحوز ، ابن زعيمهم المقتول ، ونجح عمر فى هزيمة الخوارج قرب اصطخر ، فهربوا الى سابور ، وتتبعهم عمر ، فهربوا الى أصبهان .

ولمس مصعب بن الزبير أن قائده عمر لا يقوى على قتال الخوارج ، ورأى أن يقوم بنفسه بقتالهم ، ولكنهم هربوا الى فارس ، حيث أخذوا يعيثون فسادا ، وارتفعت أصوات أهل فارس وأصبهان والرى بالشكوى والاستنجاد . ورأى عامل مصعب بن الزبير على الكوفة ، وهو الحارث بن أبى ربيعة ،

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٣ .

أن يضع حداً لفسادهم وفظائعهم ، فأرسل اليهم القائد المشهور ابراهيم بن الأشتر ، فنجح فى هزيمة الخوارج ، وقتل زعيمهم الزبير بن الماحوز ؛ فاختاروا بدله قطرى بن الفجاءة المازنى

ورغم نجاح والى ابن الزبير ، الحارث بن أبى ربيعة ، فى صد الخوارج ، الا أنه شعر أنه غير قادر على الاستمرار فى قتالهم ، لما عرُف به الخوارج من بأس وعزم ، فبعث الى مصعب ابن الزبير يخبره أنه لا يقوى على قتال الخوارج سوى المهلب بن أبى صفرة الذى خبرهم وعرف أساليبهم فى القتال . فلم ير مصعب مفرا من تحقيق هذا الطلب ، فأمر المهلب بالمسير لقتال الخوارج ، فالتقى بهم عند سولاف حيث حاربهم ثمانية شهور نجح فى نهايتها فى هزيمتهم « فلم يزل المهلب يسير فى طلبهم من بلد الى بلد ويواقعهم وقعة بعد وقعة طول ما ملك عبد الله بن الزبير الى مقتله وخلوص الأمر لعبد الملك بن مروان ، فلما استدف الأمر لعبد الملك وولى الحجاج العراقين ، استبطأ المهلب فى استئصال الخوارج [1] .

يعيب بعض المؤرخين على عبـد الله بن الزبير صراحته ، اذ صارح الخوارج بأنه على غير رأيهم ، مما أثار غضبهم . ويرى هؤلاء المؤرخين أنه كان من مصلحة ابن الزبير أن يهادن الخوارج ، فقد أثاروا عليه حربا شعواء فى العراق وفارس كلفته أرواحا وأموالا كثيرة كان بوسعه أن يوفرها .

ونحن نرى أن ابن الزبير كان على حق فى موقفه من الخوارج ، فقد كانت فئة خطيرة حاربها كل من تولى الخلافة ، فحاربهم على

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

ابن أبى طالب ثم حاربهم معاوية بن أبى سفيان ثم يزيد بن معاوية . وقضى الوالى الأموى عبيد الله بن زياد فترة طويلة جاهد فيها الخوارج . ولذا رأى ابن الزبير أن وجود الخوارج بين جنده مما يهدد حركته السياسية ، فانهم حتما يبثون تعاليمهم ومبادئهم بين هؤلاء الجند فيتحولوا عن اخلاصهم له . ولم يكن ابن الزبير ليكفر عثمان بن عفان كما طلب الخوارج منه ، فقد كان يعتمد فى تأييد خلافته على دفاعه عن عثمان بن عفان يوم الدار ، وعلى عهد عثمان بوصيته له دون سائر أبناء الصحابة ، فكان ابن الزبير يقول دائما : « قد مات يزيد ، فأنا أحق الناس بهذا الأمر لأن عثمان عهد الىّ فى ذلك عهدا صلّى به خلفى طلحة والزبير وعرفته أم المؤمنين »[1] .

موقف حزب المختار :

بدأ ظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى فى خلافة الحسن ابن على ، ثم بايع مسلم بن عقيل بعد أن قدم الى الكوفة مبعوثا من الحسين بن على . ولما وقف عبيد الله بن زياد على حركات المختار زجه فى السجن[2] . وأرسل المختار الى زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب بالحجاز ليشفع فيه عند يزيد بن معاوية ، فأمر يزيد باطلاق سراحه ، فأفرج ابن زياد عنه على أن يغادر العراق بعد ثلاثة أيام ، فخرج المختار الى الحجاز بعد أن

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥

أقسم على التخلص من ابن زياد . وفى طريقه الى الحجاز لقى أحد القادمين منها ، فسأله عن أحوالها ، فأخبره بدعوة عبد الله بن الزبير لنفسه واستفحال أمره ، فقال المختار : « أما انه رجل العــرب اليوم ، أما وانه يخطط فى أثرى ويسمع قولى أكفه أمر الناس ولا يفعل ، فوالله ما أنا بدون أحد من العرب . يا ابن العراق ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسمعت به قد ظهرت فيه فقيل ان المختار فى عصائبه من المسلمين ، يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن على »[1] .

قدم المختار على ابن الزبير ، ولكن ابن الزبير لم يصرح له بنواياه لأنه لم يكن يثق به . وعرض المختار عليه البيعة ، لكنه أبى ، فقد كان يزيد بن معاوية لا يزال على قيد الحياة[2] . ثم ترك المختار ابن الزبير وعاد اليه بعد عام ، وكان ابن الزبير قد بدأ يأخذ البيعة من الناس ، وبايع المختار ابن الزبير على شروط ، فقال : « أبايعك على ألا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول داخل ، واذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك »[3] .

أخذ ابن الزبير فى طلب البيعة من الأمصار بعد أن رفع الحصين ابن نمير الحصار عن مكة وعاد الى الشام ، لكنه لم يشبع أطماع المختار بتوليته حكم احدى الولايات ، فحقــد عليه ، ولكنه

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٦٠ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٧٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

لم يجهر بمشاعره ، ومكث بالحجاز خمسة شهور أخرى ، ثم فكر فى العودة الى العراق ، وكان يستفسر من القادمين منه عن أحواله ، فأخبروه بانقياد بعض أهل العراق لدعوة ابن الزبير ، وان كانت الغالبية لا تهدف الا للأخذ بثأر الحسين . ولكن ينقصهم الزعيم ، فرأى المختار أن يكون هـــذا الزعيم ، ولكنه خشى أن يمنعه ابن الزبير من الخروج الى العراق ، فخدعه بأن عرض عليه أن يرحل ليجمع له الجند الذين يتغلب بهم على أهل الشام وانخدع ابنَ الزبير فسمح له بالخروج [1] .

قدم المختار الى العراق وهو يأمل أن يجمع الشيعة حوله ، ويتخذهم طريقا الى السلطة والنفوذ . ولكن المختار وجد سليمان ابن صرد قد سبقه الى الشيعة ، فبدأ المختـــار يكيد له ؛ فقـــال للتوابين أنصار ابن صرد : « ان سليمان ليس له بصر بالحروب ولا تجربة بالأمور وانما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال مثل لى ، وأمر بيّن لى ، أعين وليكم ، وأقتل عدوكم ، وأشفى صدوركم ، فاسمعوا قولى وأطيعوا أمرى » . فانضم فريق من التوابين الى المختار .

ولما شعر عاملا عبد الله بن الزبير : عبد الله بن يزيد ، وابراهيم ابن محمد بن طلحة ، باستفحال أمر المختار ، قبضا عليه وسجناه ؛ لكنه لجأ مرة ثانية الى ابن عمر فشفع فيه عندهما ، فأطلقا سراحه ، وخرج المختار من سجنه ليجد آلاف الشيعة فى انتظاره ، فقد قتل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

ابن صرد فى عين الوردة ، وعادت فلول التوابين تبحث عن زعيم جديد ، ووجدت هذا الزعيم فى شخص المختار .

رأى المختار أن تستند دعوته الى أحد العلويين ، ووقع اختياره على علىّ بن الحسين ، فكتب المختار اليه يقترح عليه أن يأخذ البيعة له بالعراق لكنه رفض [1] . فتحول المختار الى محمد ابن الحنفية ، فزعم المختار للشيعة أن ابن الحنفية قد أرسله وزيرا وأميرا لطلب دعاء أهل البيت وقتل ابن زياد . ولكن الشيعة شكت فى أمره فخرجوا الى ابن الحنفية يسألونه الحقيقة فقال لهم : « ما أحب الينا من طلب بثأرنا وأخذ لنا بحقنا وقتل عدونا » [2] . فعادوا ليلتفوا حول المختار .

استفحل أمر المختار ، فعزل ابن الزبير عامليه وولّى عبد الله ابن مطيع على الكوفة ؛ لكنه سار سيرة أغضبت أهلها فحقدوا عليه وكرهوا ابن الزبير ، فتمكن المختار من عزله [3] . وما لبث أن اتسع نفوذ المختار ، وانضم اليه ابراهيم بن الأشتر ذلك القائد الباسل ، ودانت له العراق وسائر الأمصار عن الحجاز والجزيرة والشام [4] . ودخل قصر الامارة فى الكوفة وبسط يده يطلب البيعة من الناس وقال : « تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيّه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٠٥ .
(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .

وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم » (١) .

أقبل الناس يبايعون المختار وشجعهم على ذلك ما فرّقه بينهم من أموال ، ثم كتب الى عبد الله بن الزبير بالحجاز يعلمه أنه انما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، وطلب من ابن الزبير ألا يحاسبه على ما أنفقه من بيت المال فأبى ابن الزبير ذلك عليه ؛ فخلع المختار طاعته (٢) .

بدأ المختار ينفذ ما وعد به الشيعة من الأخذ بثأر الحسين ؛ فوجه رئيس شرطته ومعه ألف رجل يحملون المعاول لهدم دور كل من خرج لقتال الحسين . وأرسل من يأتيه برأس عمر بن سعد ابن أبى وقاص ، ثم سمع باقتراب عبيد الله بن زياد الى الموصل بعد هزيمته للتوابين ، فأرسل المختار قائده يزيد بن أنس ثم أمدّه بجيش آخر بقيادة ابراهيم بن الأشتر ، فقتل ابن زياد (٣) .

تفوقت حركة المختار على حركة عبد الله بن الزبير فى بلاد العراق ، لأن ابن الزبير لم يغدق الأموال على أهل العراق كما فعل المختار . بل استطاع المختار أن يرشوا عمّال بن الزبير بالمال ، فرشا عبدالله بن مطيع بمائة ألف درهم حتى يسلّم له الأمر (٤) ، وحينما

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٤٤ .
(٤) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ .

بعث ابن الزبير عامله الجديد عمر بن عبـد الرحمن بن الحارث رشاه المختار بسبعين ألف درهم فلم يطالبه بالحكم [1] .

ومن عوامل تفوق المختار على ابن الزبير سوء اختيـاره ابن الزبير لعمّاله ، فقد اختار عبد الله بن يزيد وكان رجلا ساذجا متواكلا ، واختار ابراهيم بن محمد بن طلحة وقد عـُرف عنه أنه يكره الشيعة ، كما أن الشيعة تبغضه ، وأدرك ابن الزبير ضعف عامليه فعزلهما ، لكنه ولّى عبد الله بن مطيع وهو رجل بدوى غير خبير بالسياسة ، كما أنه كان صديقا حميما للمختار ، وسار فى أهل الكوفة سيرة أثارت كراهيتهم له ولابن الزبير . ثم عيّن ابن الزبير أخاه مصعبا ، وان كان قد وفق فى الاختيار الا أن ذلك جاء متأخرا .

وكان لتحقيق المختار أغراض شيعة العـراق فى الأخذ بثأر الحسين ، أثره فى انصراف أهل العراق عن ابن الزبير ، وقد وقف ابن الزبير موقفا سلبيا من التوابين ، وترك قتلة الحسين يمرحون فى الكوفة ؛ ولم ينس أهل العراق يوم أن وقف ابن الزبير بعد قتل الحسين يخطب ويرثيه ويتهم أهل العراق بالتخـاذل عنه . أما المختار فقد أرضى الشيعة ، فقتل عمر بن سعد وابن زياد وغيرهم من قتلة الحسين ، فشفى غليلهم ، ووضـح لهم طريق النصر [2] .

تودد المختار لبنى هاشم ، فكان يرسل من حين لآخر هدايا

---

(1) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٤٣ .

(2) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs. P. 218.

فاخرة الى ابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فيقبلونها شاكرين ممتنين . أما عبد الله بن الزبير فقد كان على عداء مع معظم زعماء بنى هاشم وخاصة ابن الحنفية [1] .

ومن العوامل الهامة التى أدت الى تفوق المختار على ابن الزبير بالعراق ، انضمام موالى العراق الى المختار . فقد كانت حياة الموالى السياسية والاجتماعية تنطوى على الاضطهاد والمظالم ، ولذلك كان الموالى ينتهزون الفرص للعمل على اضعاف الدولة الأموية ، فانضموا الى كل خارج على هذه الدولة . ورحب الموالى بحركة عبد الله بن الزبير ، لكنه كان شحيحا بالمال ، فى وقت كانوا يحلمون فيه بالعطاء والأرزاق والصلات . كما أن ابن الزبير اعتمد فى بلاد العراق على العناصر العربية دون الموالى . أما المختار ، فقد أدرك أن نصف سكان الكوفة من الموالى وأن فى أيديهم موارد الثروة ، فهم أصحاب الحرف والتجارة ، لذلك عمل على استمالتهم اليه [2] . ولكن المختار لم ينس أن يتقرب الى العرب الأشراف ، واتخذ من الفريقين وسيلة لبلوغ آماله . وأصبح جيش الموالى يتألف من عشرين ألفا من الموالى سماهم الجند الحمراء وكلهم من أبناء الفرس [3] . وأشركهم المختار مع العرب فى العطاء ووعدهم بأن « يعطيهم أموال ساداتهم » [4] .

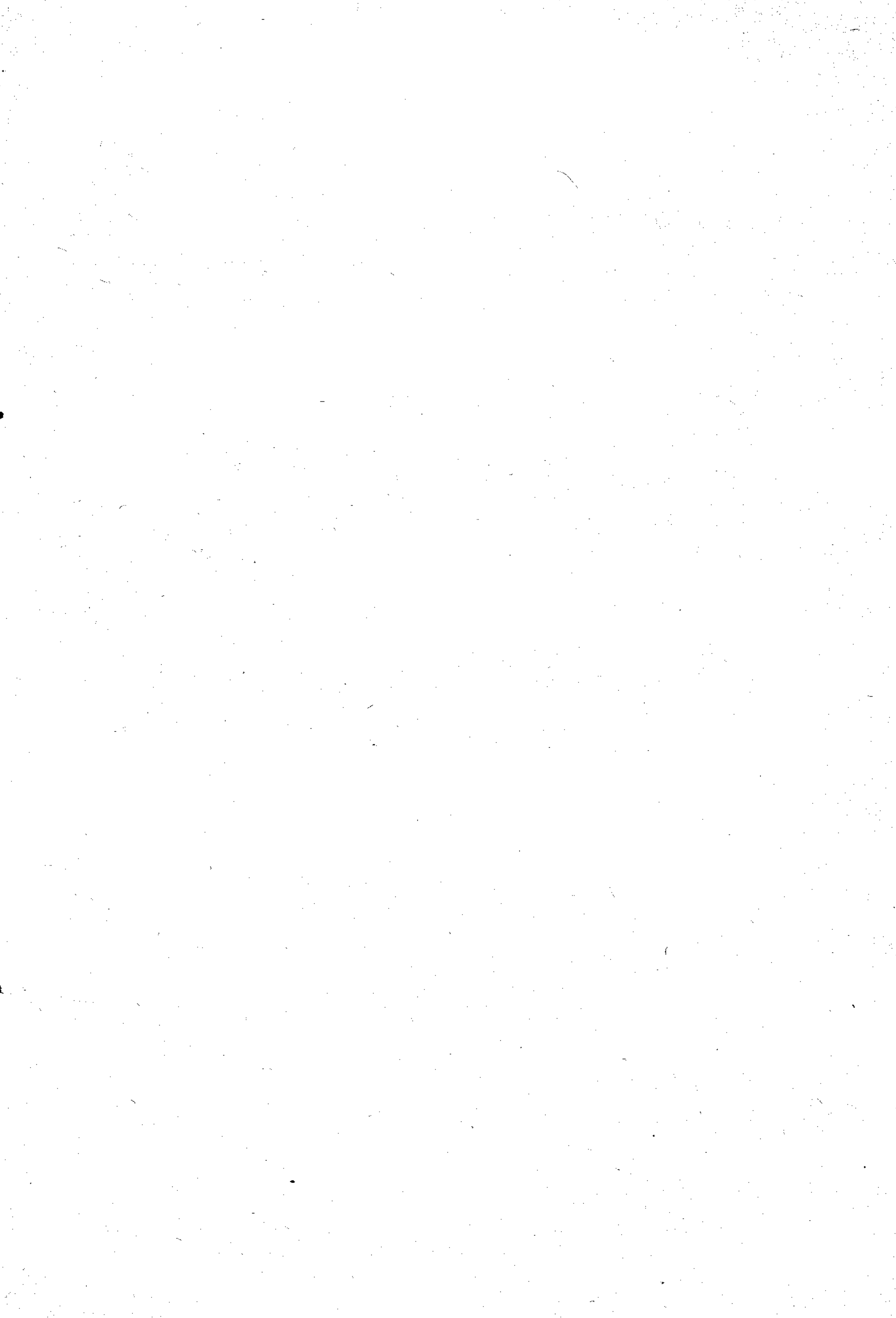
---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 218.

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٩٦ .

(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .



٩ـ نهاية عبد الله بن الزبير

الصراع بين ابن الزبير والمختار حول العراق

عبد الملك ينتزع العراق من ابن الزبير

عوامل إخفاق الحركة الزبيرية فى العراق

غروب شمس الحركة الزبيرية فى الحجاز

عبد الملك يوجه الحجاج لقتال ابن الزبير

مصرع عبد الله بن الزبير

عوامل القضاء على ابن الزبير بالحجاز

أسباب إخفاق حركة ابن الزبير

الصراع بين ابن الزبير والمختار حول العراق :

ظل عبد الله بن الزبير فى مكة ينظر الى قتال المختار لعبيد الله ابن زياد بعين ملؤها السرور . فهذه الحرب الضروس تؤدى حتما الى ضعف الفريقين على السواء . وقرّت عين ابن الزبير حين علم بمقتل ابن زياد ، وكان أعظم القواد الأمويين فى ذلك الحين .

ولكن انتصار المختار ألقى على عبد الله بن الزبير أعباء جديدة ، فقد أصبح الصدام بين الزعيمين محتوما ، ولم تعد بلاد العراق تتسع لحركتين سياسيتين ؛ كالحركة الزبيرية والحركة المختارية .

وبعد انتصار المختار على الجيش الأموى ، رأى عبد الله ابن الزبير أن يبعث قائدا وواليا على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ليواجه المختار ، ولا يكون مثل الولاة الآخرين الذين أثبتت الأيام تهاونهم واستكانتهم . ولذا عزل ابن الزبير واليه الحرث بن أبى ربيعة عن حكم البصرة وولّى أخاه مصعب ابن الزبير .

قدم مصعب الى البصرة ، فاتجه الى مسجدها ووقف يخطب فى الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، الى قوله من المفسدين — فأشار بيده نحو الشام — ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين — وأشار بيده نحو الحجاز — ونرى فرعون وهامان وجنودهما فهم ما كانوا يحذرون — وأشار نحو الكوفة — ثم قال : يا أهل البصرة ، بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد لقبت نفسى بالجزار [1] .

وهكذا لقب مصعب بن الزبير نفسه (الجزار) أى أنه أعلن سياسة تنطوى على الحزم والشدة وأنه سيقتل كل من يناهض الحركة الزبيرية .

اعتمدالمختارعلى موالى الكوفة ، وأغضب أسيادهم العرب الأشراف . فقدم هؤلاء على مصعب فى البصرة يشكون اليه المختار ويستنكرون سياسته فيهم ، ويطلبون منه أن يقاتلهم . واستجاب مصعب لندائهم ، فبعث الى القائد المشهور المهلب بن أبى صفره يدعوه للقدوم اليه . وقدم المهلب ومعه جموع كثيرة وأموال عظيمة،واحتشدالجيش عند الجسر الأكبر فى البصرة ، وبعث مصعب عبد الرحمن بن مخنف الى البصرة ليثبط الناس عن مؤازرة المختار ويدعوهم الى بيعة عبد الله بن الزبير سرا [2] .

علم المختار باستعداد مصعب لقتاله ، فجمع رجاله وجنده وولى على قيادتهم قائده أحمد بن شميط . وقدم مصعب على رأس جيشه الى الكوفة ، واشتبك الجيشان فى قتال عنيف انتهى

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١١٢ .
(٢) المصدر السابق .

بانتصار مصعب ومصرع ابن شميط . ولما علم المختـار بهزيمة جيشه ومقتل قائده ، خرج بنفسه للقاء جيش مصعب ، فتقاتلوا عند حروراء قتالا حاميا انتهى بهزيمة المختار وفراره الى قصر الامارة بالكوفة حيث تحصن فيه ، فحاصره مصعب أياما كثيرة ثم قتله واحتز رأسه . ولكن مصعبا أسرف فى القتل والتنكيل بأنصار المختار رغم تأمينه له على أرواحهم ، فأثار بذلك مشاعر أهل العراق ضـده ، فى وقت هـو فى حاجـة الى اسـتمالتهم وتأييدهم[1] .

وهكذا تفوقت حركة عبد الله بن الزبير على حركة المختار ، وكان مصرع المختار نهاية لحركة كبيرة نالت تأييدا كبيرا فى بلاد العراق . ويرجع تفوق الحركة الزبيرية الى عدة عوامل ، أولها اخفاق المختار فى صبغ حركته بصبغة دينية ، فقد سلك فى ذلك مسلكا أغضب المسلمين ، فابتدع أمورا غريبة على الاسلام . فقد اشترى المختار كرسيا قديما من بائع زيت ، ثم أزال منه بقع الزيت ، ووقف فى الناس يحدثهم عنه فيقول : « انه لم يكن فى الأمم الخالية أمر الا وهو كائن فى هذه الأمة مثله ، وان كان فى بنى اسرائيل التابوت ، فان هذا فينا مثل التابوت »[2] . ويفسر (بروكلمان)[3] هذه الآراء الغريبة ، بأن المختار أراد أن يعوض ما كان يشعر به من نقص ، حيث لم يكن له حـق فى الخـلافة ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٢ .
(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٥٩ .

ولكننا نفسرها بأنها المبادىء التى تناسب تماما موالى العراق الذين عرفوا المبادىء المزدكية والمانوية والزرادشتية وغيرها .

ومن عوامل تفوق الحركة الزبيرية على الحركة المختارية ، تخلى ابن الحنفية عن المختار مما صرف أهل العراق عن تأييد المختار . فقد سكت ابن الحنفية فى أول الأمر لأن المختار قصر أهدافه على الأخذ بثأر الحسين ، ولأنه رأى فى حركة المختار عاملا لاضعاف نفوذ عبد الله بن الزبير فى العراق . ولما لمس ابن الحنفية تمادى المختار فى الاستفادة من اسمه ، تخلى عنه [1] .

اعتمد المختار على الموالى فى العراق ، بينما اعتمد ابن الزبير على العناصر العربية . ولذا عملت هذه العناصر على القضاء على حركة المختار ومساعدة الحركة الزبيرية . وكان المختار قد جعل للموالى نصيبا من الفىء ، فثار الأشراف والعرب وتوجهوا الى المختار بالشكوى ، وقال زعيمهم شبث بن ربعى : « عمدت الى موالينا ، وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا ، تأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا » [2] .

ولكن المختار لم يصغ لشكواهم ، فخرجوا الى مصعب بن الزبير بالبصرة شاكين له المختار ، فقالوا : « انه تأمر علينا بغير رضى عنا ، وزعم أن ابن الحنفية بعثه الينا ، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل ، وأطعم موالينا وأخذ عبيدنا فحارب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٩ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

بهم أيتامنا وأراملنا » [1] . ويعيب المؤرخ (نيكلسون) [2] على المختار اعتماده على الموالى ؛ فهو يرى أن المختار باعتماده عليهم حول حركته ضد العرب بدلا من أن تكون ضد الأمويين . ويعلق المؤرخ (ميور) [3] على سياسة المختار فيذكر أنه بنى مستقبله السياسى على أساس من الرمال ، فلم يكتب له البقاء .

ولكن لم يكن قضاء مصعب بن الزبير على المختار خلاصه من آثار الحركة المختارية ؛ وأبرز آثارها السياسية بداية حركة الشعوبية ، فقد شعر الموالى أنهم قوة سياسية لابد أن تلعب دورها فى التاريخ الاسلامى . وكانت حركة المختار هى الحلقة الأولى فى سلسلة ثورات الموالى التى انتهت بانتصارهم وقيام الدولة العباسية . أما الآثار الدينية ، فهى ظهور أفكار جديدة كان لها أثر كبير فى نفوس الكثيرين من الشيعة ، وقد ظهرت هذه الأفكار فى مبدأ أمرها فى البيئات غير العربية [4] .

علم مصعب بن الزبير تأييد الموالى للمختار ، واعتماده عليهم؛ فأراد أن يخدعه خدعة تحرمه من مؤازرتهم له . فقد بعث مصعب برجل تظاهر بنصح المختار ، فأشار عليه بأن يجعل الموالى ضمن المشاة فى جيشه ، وألا يجعلهم فرسانا حتى لا يفرون بخيولهم

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

(٢) Lit. Hist. of the Arabs. P. 215.

(٣) The Caliphate P. 525.

(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٥ — ٧٦ .

من المعركة ، وانخدع المختار بهذه النصيحة فعمل بها ، ونجح جنود مصعب فى أن يبيدوا الموالى عن آخرهم ، حيث لم يملكوا الفرار أمام فرسان مصعب [1] .

وهكذا انتهى صراع عبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبى عبيد الثقفى ، ليبدأ صراع جديد ، بينه وبين الخليفة الأموى الجديد عبد الملك بن مروان .

عبد الملك ينتزع العراق من ابن الزبير :

كان عبد الله بن الزبير يعلم أن عبد الملك بن مروان ، خليفة الشام الجديد ، قد نجح فى التخلص من مشاكله ، وخاصة تهديد الروم لبلاد الشام ؛ ومنافسة بعض الأمويين له ، وأن ابن زياد قد خلص عبد الملك من التوابين ، كما خلصه مصعب من المختار . وأدرك ابن الزبير أن عبد الملك لاشك أنه سيبدأ بالعمل على انتزاع العراق من الزبيريين ، وخاصة أن بلاد الشام ومصر قد دانت للأمويين بالطاعة ، ولم يبق فى أيدى الزبيريين سوى بلاد العراق والحجاز . كما كان عبد الله بن الزبير موقنا من أن عبد الملك سيبادر الى قتال مصعب ، وخاصة أنه قد أنهكت قواه فى حرب المختار . وكان جديرا بعبد الله بن الزبير وكان واقفا على أطراف الموقف السياسى أن يسارع فى مد أخيه مصعب بكل مساعدة ممكنة ليقوى على مقاومة عبد الملك بن مروان وينجح فى المحافظة على بلاد العراق .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

ولكن عبد الله بن الزبير عزل أخاه مصعبا فى سنة ٦٧ هـ ؛ وولى بدله ابنه حمزه بن عبد الله ، الذى يصفه المؤرخ ابن الأثير (١) فيقول : « وكان حمزه جوادا مخلطا ، يجود أحيانا حتى لا يدع شيئا يملكه ، ويمنع أحيانا ما لا يمنع مثله ، وظهر منه بالبصرة خفة وضعف » .

ولا شك أن عزل ابن الزبير لأخيه مصعب كان ينال من حركته بالعراق . فقد قاست بلاد العراق الويلات من تعدد الحركات السياسية ، مثل حركات الخوارج والتوابين والمختار ، وأصبحت العراق فى حاجة الى حاكم قوى يعيد لها هدوءها واستقرارها ، ويستعد لصد هجوم عبد الملك بن مروان . وقد يظن البعض أن عبد الله قد أقدم على عزل مصعب مدفوعا فى ذلك بخوفه من افتتان مصعب بنصره أو افتتان أهل العراق به ، مما قد يغريه بالخروج عن طاعة أخيه ، ولكننا لا نوافق على هذا الرأى ، لما لعرفه من اخلاص مصعب لأخيه ، الى جانب عدله وحسن سيرته. فقد قدم وفد من أهل العراق على عبد الله بن الزبير بمكة فسألهم عن سيرة أخيه مصعب فيهم ، فقالوا : « أحسن الناس سيرة وأقضاه بحق ، وأعدله فى حكم »(٢) .

ونرى أن الدافع لعبد الله بن الزبير فى عزل أخيه مصعب وتولية ابنه حمزه هو العاطفة الأبوية ، مثلما فعل معاوية بن أبى سفيان حينما ولى ابنه يزيد عهده . ودليلنا على ذلك أن

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١١٧ .
(٢) القالى : الأمالى ج ١ ص ٢٨٣ .

ابن الزبير حينما علم بتخبط ابنه فى سياسته بالعراق قال : أبعده الله ، أردت أن أباهى به بنى مروان فنكس ! » [1] .

وكان جديرا بحمزه بن عبد الله بن الزبير أن يستمر على سياسة مصعب فى تقريب العرب الأشراف الذين وقفوا الى جانب الحركة الزبيرية فى صراعها للحركة المختارية . ولكن حمزة بخل بالمال عليهم ، بينما أخذ يبعثر الأموال يمينا ويسارا ، مما أوغر صدور الزعماء العرب فانفضوا عن تأييد الحركة الزبيرية . وعلم عبد الله بن الزبير بسوء سياسة ابنه حمزه فعزله ، وأعاد أخاه مصعب الى ولاية العراق . ولكن الفترة القصيرة التى شهدت حمزه فعزله ، وأعاد أخاه مصعب الى ولاية العراق . ولكن الفترة حكم حمزه أدت الى تخلى بعض أنصار ابن الزبير عنه .

ولم يكد عبد الملك بن مروان ينوى الخروج لقتال مصعب ابن الزبير وانتزاع العراق منه ، حتى ظهرت فى الأفق عقبة جديدة ، كان عليه أن يتخلص منها قبل رحيله الى العراق . فقد أعلن عمرو ابن سعيد بن العاص العصيان ، وكان من كبار زعماء بنى أمية ، وساعد مروان بن الحكم على الفوز بالخلافة دون منافسيه . وقد سخط عمرو على عبد الملك اذ تولى الخلافة بعد أبيه مروان ، وكان عمرو يرى أنها حق مكتسب له اذ أوصى مروان له بهـا . وأدى الخلاف بين عبد الملك وعمرو الى انقسام بنى أمية الى فريقين ، واشتد النزاع بينهما . ورأى زعماء بنى أمية العمل على

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١١٧ .

فض هذا النزاع الذى يفتت وحدة الدولة الأموية ،وتوصلوا الى حل وسط يرضى الطرفين المتنازعين . فاتفقـوا على أن تكون الخلافة مشتركة بين عبد الملك وعمرو ، ويكون لكل منهما ولاته فى الأمصار الاسلامية ، على أن يتسمى عبد الملك باسم الخلافة وتكون لعمرو بعد وفاته ، وأن لا يقطـع عبـد الملك فى أمر الا بمشورة عمرو . وكان قبول عبد الملك لهذه الشروط الى حين ، فقد قبض على عمرو وقال له : « والله لو أعلم أنك تبقى على اذا أبقيت عليك ، وتصلح قريش ، لأطلقتك . ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدة قط على ما نحن عليـه الا أخـرج أحـدهما صاحبه » (١) . ثم غدر عبد الملك بعمرو فقتله وألقى برأسه بين أنصاره وألقى معها بدراهم ودنانير ، فاشتغل الأنصار بجمع المال عن المطالبة بثأره .

وبعد خلاص عبد الملك من منافسه ، عزم على الخروج لقتال مصعب بن الزبير ، والقضاء على الحركة الزبيرية فى بلاد العراق . فتقدم حتى نزل مسكن ، وزحف مصعب الى باحميرا ، ثم التقى الجيشان عند دير الجاثليق ، ودارت معركة عنيفة قتل فيها ابراهيم ابن الأشتر قائد مصعب الباسل ، ودارت الدائرة على مصعب وأدرك أن هزيمته قد أصبحت أمرا محققا ، ولكنه صمد الى النهاية ضاربا أروع أمثلة البطولة والشجاعة ، وصمد ابنه عيسى الى جوار أبيه ، فكان خير مثال وفاء الابن نحو أبيـه . قال

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١١٧ .

مصعب لابنه عيسى : يا بنى اركب أنت ومن معك الى عمك بمكة فأخبره ما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول ! فقال عيسى : والله لا أخبر قريشا عنك أبدا ولكن ان أردت ذلك فألحق بالبصرة فهم على الجماعة أو الحق بأمير المؤمنين . فقال مصعب : والله لا تتحدث قريش أنى فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحرم منهزما ، ولكن أقاتل فان قتلت لعمرى ما السيف بعار وما الفرار لى بعادة ولا خلق ، ولكن ان أردت أن ترجع فارجع فقاتل !

استمر مصعب بن الزبير يقاتل عبد الملك حتى لقى مصرعه ويصور المؤرخ ابن الأثير [1] خاتمة حياة مصعب فيقول : « وخذل الناس مصعبا وخذلوه حتى بقى فى سبعة أنفس ؛ وأثخن مصعب بالرمى وكثرت الجراحات فيه ، فعاد الى عبيد الله بن ظبيان فضربه مصعب فلم يصنع شيئا لضعفه بكثرة الجراحات ، وضربه ابن ظبيان فقتله ، وقيل بل نظر اليه زائدة بن قدامة الثقفى فحمل عليه وطعنه وقال يا لثارات المختار فصرعه » . وأنشد الشاعر ابن قيس الرقيات يرثى مصعب بن الزبير [2] :

لقد أورث المصريين عارا وذلة
قتيل بدير الجاثليق مقيم

تحقق الانتصار لعبد الملك بن مروان بعد مصرع مصعب ابن الزبير . وقصد الكوفة وطلب البيعة له من أهلها ، فهرعوا

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٣٧ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥ .

يبايعون له ، ثم ارتقى منبر الكوفة وخطب الناس ، فوعد المحسن وتوعّد المسىء ، وقال : « أيها الناس ، ان الحرب صعبة مرّة ، وان السلم أمن ومسرة ، وقد زينتنا الحرب وزيناها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المروية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شرا ، وان تزداد بعد الأعذار اليكم ، والحجة عليكم الا عقوبة .. » .

عوامل اخفاق الحركة الزبيرية فى العراق :

تكاتفت عدة عوامل أدت فى النهاية الى اخفاق حركة عبد الله ابن الزبير فى بلاد العراق وانتزاع عبد الملك بن مروان هذه البلاد من مصعب بن الزبير . أما هذه العوامل فهى :

أولا — خروج عبد الملك الى مصعب قبل قدوم مصعب اليه : رأى عبد الملك أن مصعبا وقد انتهى من القضاء على المختار ابن أبى عبيد الثقفى ، لابد سائر اليه لقتاله فى الشام فيروى ذلك المؤرخ الدينورى [1] فيقول : « ولما صفا الأمر لعبد الله بن الزبير ودانت له البلدان الا أرض الشام ، جمع عبد الملك بن مروان اخوته وعظماء أهل بيته فقال لهم : ان مصعب بن الزبير قد قتل المختار ، ودانت له أرض العراق وسائر البلدان ، ولست بآمنه أن يغزوكم ، وما من قوم غزوا فى عقر دارهم الا ذلوا ، فما ترون ؟

---

(1) الأخبار الطوال ص ٣١٦ — ٣١٧ .

فتكلم بشر بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين أرى أن تجمع اليك أطرافك وتستجيش جنودك وتضم اليه قواصيك وتسير اليه وتلف الخيل بالخيل والرجال بالرجال ، والنصر من عند الله .

وما كاد عبد الملك يبدأ فى تعبئة قواته حتى علم بعزم مصعب ابن الزبير على المسير الى الشام ، فخاف عبد الملك أن يلقاه بأرض الشام التى كان يقول عنها : « الشـــام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه » [1] . وأراد عبد الملك أن يشغل مصعبا عن القدوم اليه ، وشاءت المقادير أن تعين عبد الملك ، فقد ثار على مصعب بعض الخارجين على طاعته فشغلوه عن الزحف الى بلاد الشام ، وعمل عبد الملك على مساعدة هؤلاء الثوار . فروى المسعودى [2] : « وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتـــل المختار ، حتى انتهى الى الموضع المعروف بباحميراء مما يلى الجزيرة ، يريد الشام لحرب عبد الملك ، فبلغه مســـير خالد ابن عبـــد الله بن أسيد من مكة الى البصرة فى ولده وعدة من مواليه ناكثا لبيعة عبد الله بن الزبير ، فنزل بعض نواحى البصرة ، وأن قوما انضافوا اليه من ربيعة . فكانت لهم بالبصرة حـــروب كانت آخرا على خالد بن عبد الله ، فخرج هاربا بابنيه حتى لحقوا بعبد الملك ، وانصرف مصعب راجعا الى البصرة ، وذلك فى سنة احدى وسبعين ، ثم عاد من العراق الى باحميرا »

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٣٥ .
(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٤٨ .

ثانيا : تجنيد عبد الملك كل قادر على حمل السلاح فى الشام : لقد كان عبد الملك يدرك خطورة الأمر الذى أقدم عليه ، ورأى أن تكون معركته مع مصعب معركة فاصلة حاسمة . ولذا عبأ كل قوى الشام ، وأجبر كل قادر على حمل السلاح على الخروج معه ؛ واستعمل فى ذلك كل صنوف الاضطهاد والقسوة .

هذا بينما كان جيش مصعب قد أنهكته الحروب الطويلة مع الخوارج والمختار ، حتى أنه « لمّا نظر أصحاب مصعب الى كثرة جموع عبد الملك تواكلوا وشملهم الرعب »[1] .

واستعان عبد الملك فى تعبئة هذا الجيش الكثيف برجله القوى الحجاج بن يوسف الثقفى ، فكان يرغم أهل الشام على الالتحاق بجيش عبد الملك . فيروى ابن قتيبة[2] أن عبد الملك « أراد أن يخرج الى مصعب ، فجعل يستنفز أهل الشام فيبطئون عليه . فقال له الحجاج بن يوسف ، وكان يومئذ فى حرس ابان بن مروان : يا أمير المؤمنين سلطنى عليهم فأعطاه ذلك . فكان لا يمر على بيت رجل من أهل الشام تخلّف الا أحرق عليه بيته ، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا » .

ثالثا : انشغال مصعب بقتال الخوارج : عبأ عبد الملك كل قوة استطاع أن يجمعها لقتال مصعب . فكان على مصعب أن يعدّ من الجنود ما يمكّنه من الصمود فى وجه جند الشام . ولكن مصعبا أخطأ اذ وزّع جهوده فى ميدانين ، فقد بعث جانبا كبيرا

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣١٧ .
(٢) الامامه والسياسة ج ٢ ص ١٩ .

من رجاله لقتال الخوارج ، وولى قيادتهم المهلب بن أبى صفرة ، فحرم بذلك جيشه الذى قاتل الشام من خبرة هذا القائد الباسل الذى لم يكن هناك غيره جديرا بلقاء عبد الملك . ولكننا نجد العذر لمصعب ، فقد كان أهل العراق عامة وأهل البصرة خاصة فى فزع دائم من الخوارج ، بل كان خوفهم من الخوارج يفوق خشيتهم جنود الشام ، ولذا أصرّ أهل البصرة على أن يتولى مصعب قتال الخوارج قبل محاربته عبد الملك ، وخشى مصعب أن يرفض طلبهم فيثير مخاوفهم وسخطهم ، فيمتنعوا عن مؤازرته ضد جيش الشام . كما أراد مصعب ، فى نفس الوقت ، أن يؤمن جيشه الذى يقاتل الجيش الأموى من خطر هجوم الخوارج ، فيقع بين نارين صور المؤرخ ابن الأثير [1] الموقف فقال : « وسار عبد الملك الى العراق ، فلما بلغ مصعبا مسيره وهو بالبصرة أرسل الى المهلب وهو يقاتل يستشيره ، وقيل بل أحضره عنده . فقال لمصعب : أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدنى عنك . فقال له مصعب : ان أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج ، وهم قد بلغوا سوق الأهواز وأنا أكره اذ سار عبد الملك الىّ أن لا أسير اليه فاكفنى هذا الثغر . فعاد اليهم وسار مصعب الى الكوفة ومعه الأحنف فتوفى بالكوفة » .

رابعا : خيانة بعض زعماء العراق : لم يقتصر عبد الملك فى

(١) الكامل ج ٤ ص ١٣٥ .

القضاء على مصعب بن الزبير على تعبئة الجيوش ، بل رأى أن يلجأ الى كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . ولذا غمر عبد الملك أنصار مصعب بالصلات والهدايا ، ومنّاهم بالمناصب العالية ، فدانوا له بالطاعة وتخلوا عن مصعب . وقد مر بنا اغراء عبد الملك لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بالمال والعطايا ، فنكث بيعة عبد الله بن الزبير ، وخرج يناهض مصعبا . وبدأ عبد الملك بالمروانية المقيمين بالعراق ، فخدعهم بأن منّاهم فدانوا له ، فقد « كتب عبد الملك الى المروانية من أهل العراق ، فأجابه كلهم وشرطوا عليه ولاية أصبهان ، فأنعم بها لهم كلهم » [1] .

ثم كتب عبد الملك الى رؤساء أهل العراق ، وكبار أنصار مصعب فصار يرغبهم ويرهبهم ، وأخفى كل منهم كتاب عبد الملك اذ كان راضيا على ما جاء فيه ، الا ابراهيم بن الأشتر قائد مصعب ، الذى بلغ الاخلاص به الى حد أنه أبى أن يفتح الكتاب ويقرأ ما احتواه ، بل هرع به الى مصعب يعرضه عليه ويحذّره من خيانة رؤساء جنده ، واقترح عليه أن يضرب أعناقهم فأبى ذلك ، فاقترح عليه حبسهم ليكتفى غدرهم . ولكن مصعبا رفض تنفيذ هذا الاقتراح ، فترك الفتنة والخيانة تمرح بين جنده .

قال ابراهيم بن الأشتر لمصعب : ما كنت لأتقلد الغر والخيانة ، ووالله ما عند عبد الملك أحد من الناس بأيأس منه منى ، ولقد كتب الى أصحابك كلهم مثل الذى كتب لى ، فأطعنى واضرب

---

(1) الطبرى ج ٥ ص ٦ .

أعناقهم . فقال مصعب : اذا لا يناصحنى عشائرهم . فقــال ابن الأشتر : فأوقرهم حديدا وابعث بهم الى أرض كسرى واحبسهم هناك ووكل بهم من أن غلبت وتفرقت عشائرهم عنك ضرب رقابهم ، وان ظهرت منيت عــلى عشائرهم باطلاقهم . فقال مصعب : انى لفى شغل عن ذلك !! [1] .

وبعد أن نجح عبد الملك فى اغراء قواد مصعب وبعض زعماء العراق حتى خانوا الحركة الزبيرية ، أراد أن يدفع مصعب الى خيانة أخيه عبد الله بن الزبير . فقد التقى عبد الملك بمصعب قبل المعركة الفاصلة ، وكانت تجمعها صداقة ومودة قديمة ، فقــال عبد الملك لمصعب : يا مصعب ، قد علمت ما أجرى الله بينى وبينك منذ ثلاثين سنة ، ولما اعتقدته من اخائى وصحبتى ، والله أنا خير لك من عبد الله وأنفع منه لدينه ودنياك ، فثق بذلك منى وانصرف الى وجوه هؤلاء القوم وخذ فى بيعة هذين المصريين ، والأمر أمرك لا تعص ولا تخالف ، وان شئت اتخذتك صاحبا لا تخفى ووزيرا لا تعصى . فقال له مصعب : ما ذكرت فىّ من ثقتك بى ومودتى واخائى ، فذلك كما ذكرته ، ولكنه بعد قتلك عمرو بن ســعيد لا يطمأن اليك ، وهو أقرب رحما منى اليك ، وأولى بما عندك ، فقتلته غدرا ، ووالله لو قتلته فى ضرب ومحاربة لمسّك عــاره ولما سلمت من اثمه . وأما ما ذكرت من أنك خير لى من أخى ، فدع

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٦ .

عنك أبا بكر [1] واياك واياه لا تتعرض له واتركه واتركك واربح عاجل عاقبته ، وأرح الله فى السلامة من عافيته » [2] .

خامسا : ميل العراق الى الهدوء والسلام : رأى أهل العراق وقد شاهدوا خيل عبد الملك ورجله ، أن يخلدوا للهدوء والسلام ، طلبا للعافية ونجاة من هذا الخطر الداهم . وقد كانوا يعلمون كراهية جند الشام لأهل العراق . ويوضح ذلك الموقف ما قاله قيس بن الهيثم لأهل العراق حينما رأى تخاذلهم ، فأخذ يحذرهم من جند الشام فقال : ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطمعوا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم ، والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح ان أرسله فى حاجة ، ولقد رأيتنا فى الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه [3] . وخير ما يصوّر خوف أهل العراق مما قد ينزل بهم عند هزيمتهم أمام عبد الملك ، ميل زعمائهم لمهادنة عبد الملك ؛ مثل زفر بن الحارث الذى كان قد ولاه عبد الله ابن الزبير على قنسرين ثم هرب الى قرقيسيا ، وقد هادن عبد الملك وبايعه [4] ، بل أرسل ابنه الهذيل ضمن جند عبد الملك [5] .

سادسا : قلة دراية مصعب بالفنون الحربية : كان مصعب ابن الزبير على جانب كبير من الشجاعة والبطولة ، وقد اعترف

---

(1) أبا بكر : يقعد مصعب بذلك أخاه عبد الله بن الزبير .
(2) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠ .
(3) الطبرى ج ٥ ص ٧ .
(4) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٨ .
(5) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٣٥ .

له الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بذلك ، فقال لمجالسيه أن مصعب أشد الناس بأسا كما أنه « أكثر الناس مالا ، جعلت له الأمان وولاية العراق ؛ وعلم أنى سأفى له المودة التى كانت بيننا فحمى أنفا وقاتل حتى قتل » [1] .

حمى أنفه أن يقتل الضيم مصعب
فمات كريما لم تذم خلائقه

ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه
فعاش ملوما فى الرجال طرائقه

ولكن مصعبا رغم شجاعته وبسالته ، كان قليل الدراية بالفنون الحربية . فقد قال عبد الملك حينما نصحه بعض أهل بيته أن يمكث بدمشق ويرسل الجيوش الى مصعب : « انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له رأى ؛ ولعلى أبعث من له شجاعة لا رأى له ، وانى أجد فى نفسى أنى بصير بالحرب شجاع بالسيف ان ألجئت الى ذلك . ومصعب فى بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى من ينصح لى » [2] .

سابعا : عبد الله بن الزبير لا يمد مصعبا بالمساعدة : كان جديرا بعبد الله بن الزبير وقد رأى خروج عبد الملك لقتال أخيه مصعب وقد عبأ له كل ما استطاع أن يجمع من قوى ، أن يسرع الى معاونة أخيه ليقوى على المقاومة ، وخاصة أنه لم يبق لعبد الله

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦ .

من الأمصار سوى العراق والحجاز ، وكان فى ضياع العراق ضياع مورد المال والرجال . وكان عبد الملك يدرك مدى أهمية استيلائه على بلاد العراق ، فخرج بنفسه على رأس جيشه ؛ وأعلن أن الشام بلد قليل المال . وكان جديرا بعبد الله بن الزبير أن يعبىء جيشا يمد أخاه مصعبا ؛ ويجند له كل قادر على حمل السـلاح ، وأن يخرج بهذا الجيش فيقوده الى بلاد العراق . وقد وقف عبد الملك على منبر الكوفة فقال : « ان عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فأتى بنفسه ، ولم يغرز ذنبه فى الحرم » (١) .

ثامنا : عدم بذل عبد الله بن الزبير الأموال لأهل العراق : لا شك أن سلاح المال كان سلاحا ماضيا يجذب القلوب ويأسر النفوس . وكان على عبد الله بن الزبير اذا أراد أن يضمن ولاء أهل العراق واخلاصهم أن يبذل لهم المال والعطايا . ولكن ابن الزبير استنكف أن يعطيهم المال فيشترى اخلاصهم . ولذا انصرفوا عنه الى عدوّه عبد الملك بن مروان الذى استمر يغدق عليهم الصلات والعطايا ، فدانوا له بالطاعة ، وتخلّوا عن مصعب بن الزبير ، وتركوه يلقى مصيره .

كان مصعب بن الزبير ، بعد قتله المختار ، قد قدم حاجا الى مكة فى سنة ٧١ هـ ، فتوجه ومعه وجوه أهل العراق الى عبد الله ابن الزبير فقال مصعب لأخيه . يا أمير المؤمنين قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع فى قومه ، وهم الذين سارعوا

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٢ – ١٣ .

الى بيعتك وقاموا باحياء دعوتك ونابذوا أهل معصيتك وسعوا فى قطع عدوهم ، فأعطهم من هذا المال . فقال عبد الله بن الزبير لأخيه مصعب : جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله ، لا أفعل ، وأيم الله لوددت أنى أصرفهم كما تصرف الدنانـــير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام . وصوّر المؤرخ ابن قتيبة موقف هؤلاء الزعماء العراقيين بعد سماعهم مقـــالة عبد الله بن الزبير فقال : « ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا على خلعه ، فكتبوا الى عبد الملك بن مروان أن أقبل الينا »[1] وعبّر أحد أعضاء وفد العراق لعبد الله بن الزبير عن مشاعرهم فقال له : « أحببناك نحن ، فأحببت أنت أهــل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك !![2] .

تاسعا : غضب الشيعة والصحابة لمقتل المختار : كان معظم أهل العراق من شيعة على بن أبى طالب ، فلا يوالون سوى آل بيته . وكانوا قد آلمهم اقدام الأمويين على قتل الحســين بن على فى كربلاء ، وناهضوا الدولة الأموية ووقفوا الى جانب كل ثائر عليها ، ولذا أيدوا عبد الله بن الزبير حين أعلن الثورة على الدولة الأموية . ولكن شيعة العراق آلمهم أن ابن الزبير لم يطالب بثأر الحسين ، كما وقف من التوابين الذين هبوا للثأر للحسين موقفـا سلبيا . حتى اذا ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى ونادى بأنه وزير

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ — ١٨ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٢٨ .

محمد بن الحنفية وأمينه وأن كل ما يرمى اليه هو القضاء على قتلة الحسين ، التفوا حوله وآزروه ، وزاد قتله عبيد الله بن زياد من مناصرتهم له . ولذا كان اقدام ابن الزبير على قتال المختار ثم قتله عاملا على اثارة مشاعر العراقيين ضد الحركة الزبيرية فى بلاد العراق .

كما غضب بعض زعماء أبناء الصحابة لمصرع الحسين ، مثل عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس . التقى مصعب بن الزبير يوما بعبد الله بن عمر ، فسلّم مصعب عليه وقال : أنا ابن أخيك مصعب . فقال ابن عمر له : أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة غير ما بدا لك . فقال مصعب : انهم كانوا كفرة فجرة . فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدّتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا !! وقال ابن الزبير لعبد الله بن العباس : ألم يبلغك قتل الكذاب ؟ فقال ابن العباس : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد . فقال : قد بلغنى قتل المختار . فقال ابن الزبير : كأنك قد نكرت تسميته كذابا وترجع له ؟ ! فأجاب ابن العباس : ذاك رجل قتل قتلتنا وطلب ثأرنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة . وقال عروة بن الزبير لابن العباس : قد قتل الكذاب المختار وهذا رأسه . فقال ابن العباس : قد بقيت لكم عقبة كؤد فان صعدتموها فأنتم أنتم والا فلا . يعنى عبد الملك ابن مروان [1] .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ١١٧ .

غروب شمس الحركة الزبيرية فى الحجاز :

كان القضاء على الحركة الزبيرية فى العراق ايذانا بغروب شمس عبـد الله بن الزبير . فقد استقرت الأمـور لعبد الملك ابن مروان فى جميع الأمصار الاسلامية عدا بلاد الحجاز وقد حان الوقت لانتزاعها من أيدى عبد الله بن الزبير .

شعر أنصار عبد الله بن الزبير بحرج موقفه ، فطلبوا لأنفسهم النجاة والسلامة ، وسارع بعضهم بالبيعة لخليفة الشام عبد الملك ابن مروان بعد أن تخلّى القدر عن خليفة الحجاز وقد صوّر المؤرخ ابن الأثير [1] انفضاض جند عبد الله بن الزبير عن تأييد حركته فقال : « وحين قتل مصعب كان المهلب يحارب الأزارقة بسولاف (بلد بفارس) على شاطىء البحر ، ثمانية أشهر . فبلغ قتله الأزارقة قبل المهلب فصاحوا بأصحاب المهلب ما قولهم فى مصعب . قالوا : أمير هدى وهو ولينا فى الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه . قالوا : فما قولكم فى عبد الملك ؟ قالوا : ذلك ابن اللعين نحن نبرأ الى الله منه وهو أحل دما منكم . قالوا : فان عبد الملك قتل مصعبا وستجعلون غدا عبد الملك أمامكم . فلما كان الغد سمع المهلب وأصحابه قتل مصعب فبايع المهلب الناس لعبد الملك ابن مروان ، فصاح بهم الخوارج : يا أعداء الله ما تقولون فى مصعب ؟ قالوا : يا أعداء الله لا نخبركم . وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم . قالوا : وما قولكم فى عبد الملك ؟ ! قالوا : خليفتنا .

(١) الكامل جـ ٤ ص ١٤٠ .

ولم يجدوا بدًا اذ بايعوه أن يقولوا ذلك . قالوا : يا أعداء الله أنتم بالأمس تبرؤن منه فى الدنيا والآخرة وهو اليوم أمامكم وقد قتل أميركم الذى كنتم تولونه ؛ فأيهما المهتدى وأيهما البطل ؟ قالوا : يا أعداء الله رضينا اذ كان يتولى أمرنا ويرتضى بهذا . قالوا : لا والله ولكنكم اخوان الشياطين وعبيد الدنيا !! » .

أبدى عبد الله بن الزبير ألمه لمصرع أخيه مصعب وكان من أبرز قواده ، وعضد الحركة الزبيرية ، وأدرك أن وفاته هى أول مسمار يدق فى نعش هذه الحركة . وأراد عبد الله بن الزبير أن يكتم نبأ مصرع أخيه مصعب عن أهل الحجاز حتى لا يفت ذلك فى عضدهم وروحهم المعنوية ، ولكن سرعان ما ذاع النبأ فى مدن الحجاز « وتحدث بذلك العبيد والاماء فى سكك المدينة ومكة » [١] . واضطر عبد الله بن الزبير أن يفضى الى أنصاره بنبأ مصرع مصعب ، ولكنه رأى أن يصوغ النبأ فى صورة مخففة .

قال عبد الله بن الزبير : الحمد لله الذى له الخلق والأمر يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء . ألا وانه لم يذلل الله من كان الحق معه وان كان نذرا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه ، وان كان معه الأنام طرًا . ألا وانه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا . أتانا قتل مصعب رحمة الله عليه . فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذى أحزننا فان لفراق الحميم لوعة يجدها حميمة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٥ .

عند المصيبة ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى الى جميل الصبر وكريم العزاء . ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله ، وما أنا من عثمان بخلو مصيبة وما مصعب الا عبد من عبيد الله وعون من أعوانى ألا وان أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن ؛ فان يقتل فانا والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبى العاص ، والله ما قتل منهم رجل فى زعف فى الجاهلية ولا الاسلام ؛ وما نموت الا مقصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، الا انما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ؛ فان تقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وان تدبر لا أبك عليها بكاء الحزق المهين [1] .

رأى عبد الملك بن مروان أنه وقد نجح فى القضاء على الحركة الزبيرية فى العراق ، فقد بقى عليه أن يقتلع جذور الحركة من منبتها بالحجاز . وخاصة أن أهل الحجاز وبعض أهالى الأمصار كانوا يرون عدم شرعية خلافة عبد الملك ؛ حيث أن خلافة عبد الله ابن الزبير سابقة لها . فقد روى ابن حجر الهيثمى [2] : « ثم خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ومصر واستمر الى أن مات سنة ٦٥ هـ وعهد بها الى ابنه عبد الملك ولتغلبه وقد بويع ابن الزبير لم يعد من أمراء المؤمنين ، وانما هو باغ خارج على

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢١٤ ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٠ .
(٢) تاريخ اخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفاء (مخطوط) ورقة ٥١ .

ابن الزبير ولم يصح عهده لابنه وانما صحّت خلافته بعد تغليبه وتجهيزه الحجاج لقتاله فى أربعين ألفا وقتله وصلبه »

شرع عبد الملك بن مروان فى تحقيق مشروعه للقضاء على الحركة الزبيرية فى الحجاز ، فبدأ بعدة محاولات لم يكن نصيبها من النجاح كبيرا . حتى اذا أدرك عدم جدوى هذه المحاولات ؛ رأى أن يبعث قائده العظيم الحجاج بن يوسف الثقفى

أما هذه المحاولات الأولية ، فقد بعث عروة بن أنيف على رأس جيش يتألف من ستة آلاف جندى من أهل الشام . وكان هذا القائد حريصا ؛ فلم يدخل المدينة حيث كان أهلها ما زالوا حديثى عهد بفظائع الحرة ؛ وكانوا على استعداد لبذل الدماء والأخذ بالثأر ولو استشهدوا فى سبيل ذلك . ولذا رأى عروة أن يعسكر خارج المدينة ثم بدأ الكر والفر ، فهرب عامل ابن الزبير الحرث بن حاطب ، فكان عروة يخرج للصلاة بالناس طوال النهار ويعود ليلا الى معسكره حيث أنه لم يكن يأمن على نفسه فى المبيت بالمدينة . واستمر عروة على هذه الحال شهرا حتى أمره عبد الملك بالرجوع الى الشام .

وانتهز عبد الله بن الزبير الفرصة ، فأرسل عاملا جديدا هو سليمان بن خالد . وبعث عبد الملك جيشا جديدا بقيادة عبد الواحد ابن الحرث بن الحكم الذى نجح فى قتل سليمان بن خالد عامل ابن الزبير . وولى ابن الزبير واليا جديدا هو جابر بن الأسود ابن عوف ، وكان قوى الشكيمة شجاعا باسلا فبعث بجيش يقوده

أبو بكر بن أبى قيس لقتال جيش الشام ، فنجح فى أن يوقع الهزيمة بهم وأسر عددا كبيرا منهم ثم قتل هؤلاء الأسرى ، مما أثار غضب عبد الملك فأرسل جيشا جديدا بقيادة طارق بن عمر الذى حاز نصرا كبيرا .

وبعث ابن الزبير الى عامله بالبصرة يطلب منه مددا ، فأعانه بجيش نجح أن يهزم به جند الشام هزيمة منكرة . وهكذا أصبحت المدينة يتداولها قواد عبد الله بن الزبير تارة ، وقواد الشام تارة أخرى . ثم انشغل عبد الملك بقتال مصعب بن الزبير بالعراق ، حتى اذا قتله عزم على القضاء على الحركة الزبيرية فى الحجاز ، فاختار الحجاج بن يوسف الثقفى ليوجهه على رأس جيش لقتال عبد الله بن الزبير بالحجاز .

عبد الملك يوجه الحجاج لقتال ابن الزبير :

ولّى عبد الملك بن مروان قائده الحجاج بن يوسف الثقفى الجيش الذى يتولى غزو عبد الله بن الزبير فى مكة . وقد نتساءل عن الدافع لعبد الملك لأن يحجم عن قيادة الجيش المنوط به القضاء على الحركة الزبيرية بالحجاز ، بينما حرص على أن يقود الجيش الذى انتزع العراق من مصعب بن الزبير . ويفسر المؤرخون ذلك بقصة يروونها ، فيقولون : « وكان السبب فى توجيهه الحجاج اليه دون غيره فيما ذكر أن عبد الملك لما أراد الرجوع الى الشام ، قام اليه الحجاج بن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين انى رأيت فى

منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثنى اليه وولنى قتاله ، فبعثه فى جيش كثيف من أهل الشام » [1] .

ونحن نجد العذر لعبد الملك بن مروان فى الخـروج بنفسه لقتال مصعب ، واحجامه عن قتال عبد الله بن الزبير . فقد كان عند خروجه الى العراق واثقا من الانتصار ، بينما كان يرى فى خروجه الى الحجاز مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب . فقـد نجح عبد الملك فى شراء زعماء العراق بما أغدقه عليهم من صـلات وعطايا . كما كانت بلاد العـراق مسرحا لكثير من الحـركات السياسية التى أدت الى انقسام أهل العراق شيعا وأحزابا . وشجع عبد الملك على الخـروج ، ضعف جيش مصعب نتيجة صراعه الطويل مع الخوارج .

أما بلاد الحجاز ، فقد كان معقلا للعنصر العربى الأصيل ، وموئلا لبنى هاشم الذين لم ينســوا انتزاع بنى أمية حقهم فى الخلافة ، ومركزا لأبناء الصحابة الذين يعارضون مبدأ الوراثة فى الخلافة ، كما كان أهل الحجاز يحقدون على بنى أمية نقلهم حاضرة الخلافة من مدينة الرسول الى دمشق الشام . ولم ينس أهل المدينة واقعة الحرة وفظائعها وباتوا يأملون الأخـذ بثأر قتلاهم . ولم ينس أهل مكة غزو الجيش الأموى بقيادة الحصين ابن نمير الكعبة فى عهد يزيد بن معاوية وضربها بالمنجنيق . وكان عبد الملك يدرك أن الجيش الذى يوجهه لقتال عبد الله بن الزبير

---

(1) الطبرى جـ ٥ ص ٢٢٠ ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٦ ، ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢١ .

لابد مضطر الى غزو مكة وحصار ابن الزبير فى الكعبة ، فرأى ألا يتحمل هذه المسئولية الخطيرة ورأى أن يلقيها على قائده الحجاج بن يوسف الثقفى . وتكاتفت هذه العوامل مجتمعة وجعلت عبد الملك يعدل عن قيادة الجيش الزاحف الى الحجاز .

خرج الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٢ هـ فى ألفين من جند الشام ، قاصدا مكة معقل ابن الزبير . وكان الحجاج ذكيا فطنا ، فلم يتبع الطريق الذى يمر بالمدينة حيث كان واقفا على شعور أهلها العدائى لبنى أمية ، فقد كانوا على استعداد للاستشهاد فى سبيل أخذ الثأر لقتلاهم يوم الحرة . ورأى الحجاج أن يدّخر جهوده لقتال ابن الزبير بمكة . ولذا سلك طريق العراق ونزل بالطائف ، رغم طول هذا الطريق .

وبدأ الحجاج فى مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته الحقيقية ، وليبث الرهبة والخوف فى نفوس أنصار ابن الزبير « فكان يبعث البعوث الى عرفة فى الحل ، ويبعث ابن الزبير بعثا فيقتتلون هنالك ، فكل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر » (١) .

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير ، ولذا عزم على المسير اليه ، فبعث الى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى قتال ابن الزبير وحصار الكعبة ويخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويطلب منه الامداد (٢) . فلما وصل كتاب الحجاج الى

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

عبد الملك كبّر وكبّر معه من كان فى داره [1] . ثم كتب عبد الملك الى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج فسار فى خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق به [2] .

تقدم القائدان نحو مكة ، فبلغوها فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ ، فى الوقت الذى كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج . فنزل بقرب بئر ميمون ، وحج بالناس ، ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعى بين الصفا والمروة حيث منعه عبد الله بن الزبير من ذلك ، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج . حتى اذا قارب موسم الحج من الانتهاء ، بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار .

بعث عبد الله بن عمر الى الحجاج ينهاه عن قذف الكعبة بالأحجار ويقول : اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فانك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا . وان المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليكم بمكة [3] . ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهى الناس تماما من الحج .

فرغ موسم الحج ، فنادى منادى الحجاج فى الناس أن ينصرفوا الى بلادهم التماسا للسلامة والنجاة من الأحجار التى يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير . ثم بدأ الحجاج ينفذ

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٦ .
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٢٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٦ .

وعده . وكان الوقت حينئذ شتاء ، فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عددا كبيرا منهم . وشعر جند الشام بالخوف ، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهرا لغضب السماء لانتهاكم حرمة بيت الله الحرام فى الشهر الحرام ، ولذا أمسك الشاميون عن قذف الأحجار ، وخشى الحجاج من عواقب تخاذل جنده ، فأقبل عليهم يشجعهم ويثير حماستهم ، وأخذ يقذف الأحجار بنفسه . وشاءت المقادير أن تعين الحجاج ، فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيرا منهم ، فخطب الحجاج فى جنده فقال : ألا ترون أنهم يصابون ، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة ؟ ! [1] »

مصرع عبد الله بن الزبير :

أخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبد الله ابن الزبير وأصحابه ، فكانت تصيب مقتلا من كثير من رجاله ، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة ، وأن مصيرهم الموت اذا استمروا فى القتال ، فخرج كثير منهم الى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان ، فأجابهم الى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال . وصوّر المؤرخ الطبرى [2] حرج موقف ابن الزبير فقال : « فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى كان قبيل مقتله ، وقد تفرق عنه أصحابه ، وخرج عامة أهل مكة الى الحجاج فى

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠ .
(٢) المصدر السابق .

الأمان .. وقد تفرّق عنه أصحابه وخذله من معه خذلانا شديدا وجعلوا يخرجون الى الحجاج حتى خرج اليه نحو من عشرة آلاف ، وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج الى الحجاج ابناه حمزة وحبيب فأخذا منه لأنفسهما أمانا » .

شعر عبد الله بن الزبير أنه ملاق حتفه لا محالة ، فطلب من ولده الزبير أن يخرج الى الحجاج يطلب منه الأمان أسوة باخوته حمزة وحبيب ، ولكن الزبير أبى الا الصمود الى جانب أبيه حتى الموت ، فكان له ما أراد ، وشارك أباه فى مصيره المحتوم ، فلقى حتفه معه . وتقدم بعض أنصار عبد الله بن الزبير يقترحون عليه أن يكتب الى عبد الملك يطلب الأمان ، ولكنه أبى ذلك اباء تاما وقال : كنت أكتب اليه من عبد الله أبى بكر أمير المؤمنين ؛ فوالله لا يقبل هذا منى أبدا ، أو أكتب اليه لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ، فوالله لا أن تقع الخضراء على الغبراء أحب الىّ من ذلك [1] .

وأدرك عروة بن الزبير أن أخاه عبد الله قد أشرف على الموت ؛ فدفعته عاطفة الأخوة أن يقصد الحجاج طالبا له الأمان . وعاد عروة الى أخيه عبد الله فقال له : هذا خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك وأن تنزل أى البلاد شئت ، لك بذلك

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢١ .

عهد الله وميثاقه [1] . ورفض ابن الزبير قبولَ هذا الأمان . فقالَ عروة : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة . فقال عبد الله : من هو أسوتى ؟ فقال : الحسين بن على بن أبى طالب ، خلع نفسه وبايع معاوية . فقال عبد الله : يا عروة قلبى اذا مثل قلبك والله لو قبلت ما تقولون ما عشت الا قليلا وقد أخـذت الدنيّة ؛ وما ضربة بسيف الا مثـل ضربة سـوط ، لا أقبل شـيئا مما تقولون ! [2] .

ولما شعر عبد الله بن الزبير بقرب منيّته ، دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وقد بلغت من العمر مائة عام ، ولم يقع لها سن ولم تبيض من شعرها واحدة . ودار بين الأم وابنها حديث مؤثر ، يثبت شـهامة المرأة العربية وشجاعتها ، ويبيّن رأى عبد الله بن الزبير فى نفسه وفى سياسته .

دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء وقد لمس تخاذل أنصاره عن نصرته فقال لها : يا أمة ، خذلنى الناس حتى ولدىّ وأهلى ، فلم يبق معى الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صـبر ساعة والقـوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت أسماء : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بنى أمية ، وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وان

---

(1) ابن قتيبة : الامامة والسياسة حـ ٢ ص ٢١ .
(2) الطبرى ج ٥ ص ٣٠ .

قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك فى الدنيا ، القتل أحسن .

ودنا ابن الزبير من أمه أسماء فقبّل رأسها وقال : هذا والله رأيى والذى قمت به داعيا الى يومى هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله أن يستحل حرمة ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدينى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى يا أمة فانى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلّمى لأمر الله ، فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم من عمّالى فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء آخر عندى من رضى ربى ، اللهم انى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى أنت أعلم بى ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى .

فقالت أسماء لابنها عبد الله بن الزبير : انى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا ، ان تقدمتنى وان تقدمتك ففى نفسى أخرج حتى أنظر الى ما يصير أمرك . فقال عبد الله : جزاك الله يا أمة خيرا فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد . فقالت أسماء : لا أدعه أبدا ، فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق . ثم قالت : اللهم أرحم طول ذلك القيام الطويل وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين (١) .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٧ .

أثار هذا الدعاء حماسة عبد الله بن الزبير ، فخرج الى أصحابه وحمل على جند الشام حملة قوية ، فقتل عددا كبيرا منهم . ولكن الحجاج ما لبث أن جمع فلول جيشه واستعد للمعركة الفاصلة . وتجلّى دهاء الحجاج ، فقد خشى اذا انفرد بقتل ابن الزبير أن يثأر قومه له ، ورأى أن يشرك أهل الأمصار جميعا فى دمه ، فرسم خطة محكمة للقضاء عليه « وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجلا من أهل كل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذى يواجه الكعبة ، ولأهل دمشق باب بنى شيبة ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهـــل فلسطين باب بنى جمح ، ولأهل قنسرين باب بنى تميم ، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح الى المروة ؛ فمرّة يحمل ابن الزبير فى هذه الناحية ومرّة فى هذه الناحية ، فكأنه أسد فى أجمة ما يقدم عليه الرجال يعدو فى أثر القوم حتى يخرجهم (1) .

أصرّ عبد الله بن الزبير أن يستميت فى القتال حتى يستشهد ، وأخذ يحث ما بقى من أصحابه على المضى فى مواجهة جيش الشام فخطب فيهم : يا آل الزبير ، لو طبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله ، فلا يرعبكم وقع السيوف ، فان ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا أبصاركم من البارقة وليشغل كل امرىء

---

(1) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٨ .

قرنه ، ولا تسألوا عنى ، فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله [1] .

وعاد عبد الله بن الزبير يهاجم على جيش الشام ، فحمل عليهم حملة قوية ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر فى جبينه ، فأنشد يقـول :

يا رب ان جنـود الشـام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب انى ضعيف الركن مضـطهد
فابعث الى جنودا منك أنصارا [2]

ولكن سرعان ما تكاثر جنـد الشام على عبد الله بن الزبير وأنصاره من كل باب ، فسقط ابن الزبير صريعا ، وتفرق عنه أنصاره يبتغون السلامة والنجاة . وكان مصرعه فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ . وكان لمقتله رنة أسى وألم فى نفوس أهل مكة فبكوه جميعا وسخطوا على الحجاج . وأراد الحجاج أن يهوّن من الأمر ، فخطب فى أهل مكة فقال : يا أهل مكة ، بلغنى اكباركم واستفظاعكم قتل ابن الزبير ، ألا وان ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها أهلها ، فخلع طاعة الله واعتصم بحرم الله ، ولو كان شىء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الجنة لأن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأباحه كرامة وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٧ .

بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، أذكروا الله يذكركم [1] .

وأراد الحجاج أن ينكّل بعبد الله بن الزبير ، فأمر بصلب جثته ، ليثير الرعب فى قلوب أنصاره ، ولكن ذلك أثار العطف والشفقة عليه ، والسخط على الحجاج ، بل رثى له أعـداؤه . مر عبد الله بن عمر بن الخطاب على جثمان ابن الزبير المصلوب فقال : السلام عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، ولقد كنت صواما قواما وصولا للرحم ، أما والله ان قوما أنت شرهم لنعم القوم [2] .

وتألمت أسماء بنت أبى بكر لصلب ابنها ، وقصدت الحجاج تسأله أن يسمح لها بدفن جثمان عبد الله بن الزبير ، ولكنه أبى ذلك ، فقالت له : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يخرج من ثقيف كذاب ومبير) فأما الكذاب فهـو المختار ، وأما المبير فما أظنك الا هو [3] . ولكن عبد الملك كان أكثر تسامحا من قائده ، فقد بعث الى الحجاج ينهاه عن صلب ابن الزبير ، ويأمره بالسماح لأسماء بأن تدفن جثة ولدها .

وبعد مصرع عبد الله بن الزبير ، نقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان ابن الزبير قد بناه ، ثم أعاد البناء كما كان من قبل . وأخذ الحجاج البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل مكة . ثم رحل

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٥٠ .
(٢) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٤٩ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٨

الى المدينة ، فقد ولاه عبد الملك حكم مكة والمدينة ، وأقام بالمدينة ثلاثة شهور « يتعبّث بأهل المدينة ويتعنّتهم ، وبنى بها مسجدا فى بنى سلمة ، فهو ينتسب اليه ، واستخف فيها بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فختم على أعناقهم » [١] . واستمر الحجاج واليا على الحجاز واليمن واليمامة ثلاثة أعوام حتى مات بشر ابن مروان والى عبد الملك على البصرة ، فولى عليها الحجاج ، فرحل الى العراق .

عوامل القضاء على ابن الزبير بالحجاز :

وهكذا أسدل الستار على مأساة عبد الله بن الزبير ، وتحققت آمال عبد الملك بن مروان وبنى أمية فى القضاء على ذلك المنافس القوى . وكان ابن الزبير قد حقق نجاحا كبيرا . ولا شك أن هناك عوامل قوية تكاتفت وأدت الى القضاء على حركته بالحجاز .

أولا : استيلاء عبد الملك على بلاد العراق : أدى انتزاع عبد الملك لبلاد العراق من عبد الله بن الزبير الى حرمان ابن الزبير من مورد المال والرجال والسلاح . وكان عبد الملك واقفا على أهمية بلاد العراق فبدأ فى غزوها قبل أن يغزو الحجاز ، وقد كانت بلاد الحجاز قليلة الموارد الاقتصادية ، لا توفر لابن الزبير حاجته الحربية . ولذا حينما طال حصار الحجاج بن يوسف لمكة ، عانى ابن الزبير من قلة الامدادات والتموين « فغلت الأسعار عند ابن الزبير ، وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٥ .

لحمها فى أصحابه ، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهما »[1] . بينما كانت تفد المؤن من الشام على جند الحجاج . فقد روى الطبرى أن شاهدا عيانا تحدث عن جند الحجاج فقال : « وأصحابه متسلحون ورأيت الطعام عندهم كثيرا ، ورأيت العير تأتى من الشام تحمل الطعام والكعك والسويق والدقيق ، فرأيت أصحابه مخاصيب ، ولقد اتبعنا من بعضهم كعكا فكفانا الى أن بلغنا الجحفة وأنا لثلاثة نفر »[2] .

ثانيا : ميل أهل الحجاز الى الهدوء والسلام : رأى أهل الحجاز ضياع العراق من يد عبد الله بن الزبير ، فأدركوا أن شمس الحركة الزبيرية فى طريقها الى الغروب ، فرأوا أن يركنوا الى الهدوء وطلب السلامة والنجاة ، وأن يبايعوا لعبد الملك ابن مروان خليفة الشام المنتصر . حتى اذا بدأت المعركة أيقن أهل الحجاز بهزيمة ابن الزبير ولذا « تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالأمان ، وخرج من عنده نحو عشرة آلاف . وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب أخذا لأنفسهما أمانا »[3] . وقد صوّر ابن قتيبة[4] ملل أهل الحجاز وانصرافهم عن القتال الى طلب الأمان فقال : « فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها ، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل منهم

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٧ .
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٢٥ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٧ .
(٤) الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٢١ .

من بنى مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى ما يجد مقاتلا ، والله لئن صبرنا معك ما تريد على أن نموت معك انما هو احدى خصلتين ، اما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك ، واما أن تأذن فنخرج » . ومما زاد من ضعف روح أهل الحجاز المعنوية معاجلة عبد الملك لهم بالحرب قبل أن ينتهوا من استعداداتهم الحربية ؛ فقد قال الحجاج لعبد الملك بن مروان : انك يا أمير المؤمنين متى تدع ابن الزبير يعمل فكره ويستجيش ويجمع أنصاره وتثوب اليه فلاله ، كان فى ذلك قوة له ، فأذن فى معاجلته لى [1] .

ثالثا — اخفاق خطط ابن الزبير الحربية : كان ابن الزبير يدرك تماما أن عبد الملك وقد فرغ من أمر العراق ، لابد متوجه اليه ليقاتله فى الحجاز . فكان جديرا به أن يأخذ للأمر عدّته ، فيجمع أهل مكة فى جيش نظامى بالمعنى المعروف فى ذلك الحين . وكانت الفرصة متاحة له فى جمع أكبر عدد ممكن من الجند ، فقد وقعت الحرب فى الفترة السابقة لأداء شعائر الحج ، وكان فى استطاعة ابن الزبير أن يثير حماسة الحجاج الوافدين من مختلف الأمصار ، فيحثهم على الدفاع عن بيت الله الحرام . بل كان جديرا به أن يخرج بجيشه الى المدينة المنورة التى كان أهلها على جانب كبير من الحماسة للقتال والرغبة فى الأخذ بثأر قتلى الحرة . وقد علمنا ما كان من أمر الحجاج حين تحاشى المرور بالمدينة فى طريقه الى مكة فاتبع طريق الطائف رغم أنه أبعد مسافة . والمدينة تصلح

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣١٩ .

لتكون ميدان قتال ، أكثر من مكة ، وفيها يجد ابن الزبير جندا متحمسين ، ويمكنه أن يحفر حول المدينة خندقا يقف حائلا أمام المهاجمين ، وقد نجحت هذه الوسيلة دائما فى الدفاع عن المدينة . ولكن ابن الزبير رأى المكوث فى مكة عند الكعبة مع أصحابه ؛ رغم قلة مؤنه وامداداته ، مما يجعله لا يحتمل الحصار الطويل . وكان جديرا بابن الزبير أن يتعظ بحصار مكة الأول فى عهد يزيد بن معاوية ، الذى لم ينته الا عند وفاة يزيد ، ولو طالت حياة يزيد لاستمر الحصار طويلا .

رابعا — وقوع الحصار زمن الحج : كانت اقتصاديات مكة محدودة قليلة بسبب قلة مواردها وانتاجها ، حتى أنها لم تكن تفى بحاجة أهلها . وكان لقدوم الحجاج فى ذلك الوقت أثره فى استهلاك قدر كبير من المواد الغذائية ، مما جعل ابن الزبير يخفق فى توفير المؤن والامدادات لرجاله ، فغلت الأسعار وقلّت الأقوات ، مما أدى الى انفضاض كثير من أنصار ابن الزبير عنه وطلبهم الأمان من الحجاج . وكان ابن الزبير معسكرا بجنده الى جانب الكعبة ؛ حيث قدم آلاف من الحجاج من مختلف الأمصار الاسلامية ، واختلط هؤلاء بهؤلاء ، وأصبح من العسير على ابن الزبير أن يميّز بين من معه ومن عليه ، وخاصة أن « لم يمنع الحاج من الطواف والسعى » [1] . واندس بين هؤلاء الحجّاج بعض جند الشام ، وعملوا على بث الفرقة فى صفوف جند ابن الزبير ؛

---

(1) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٦ .

واضعاف روحهم المعنوية ، كما وقفوا على نواحى الضعف فى جيش ابن الزبير واستفادوا منها .

خامسا — بخل ابن الزبير على أصحابه : كان ابن الزبير وأصحابه فى مأزق حرج ، وبلاء عظيم ، وكان جنده يعانون من قلة الغذاء والمؤن . واشتهر ابن الزبير بالبخل والتقتير ، ولذا نراه يقتّر على أصحابه فى الطعام والمال ، حتى ضاقوا به ، فخرجوا الى عدوه الحجاج يلتمسون الأمان . روى المؤرخ ابن الأثير [1] : « فغلت الأسعار عند ابن الزبير ، وأصاب الناس مجاعة شديدة .. وأن بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا . وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده ، وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا ما يمسك الرمق ويقول : أنفس أصحابى قوية مالم يفن . فلما كانت قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالأمان وخرج من عنده نحو عشرة آلاف » . وقد كان ابن الزبير على جانب كبير من الصفات الحسنة ، والسجايا الحميدة عدا ميله الى التقتير والبخل . وقد كان معاوية بن أبى سفيان يقول لابن الزبير : ان الشح والحرص لن يدعاك حتى يدخلاك مدخلا ضيقا فوددت أنى حينئذ عندك فاستنقذك . وتذكر ابن الزبير حينما طال حصار الحجاج له مقالة معاوية له فقال : هذا ما قال معاوية وددت أنه كان حيا !! [2] .

سادسا — قلة دهاء ابن الزبير : دخل ابن الزبير الى ميدان

(١) الكامل ج ٤ ص ١٤٧ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٥٣ — ٥٤ .

السياسة من أوسع أبوابها ، أى الخلافة . ولذا كان جديرا به أن يتصف بما يجب أن يتصف به السياسى من دهاء وخبرة بطبائع الناس . وكان ابن الزبير رجلا تقيا ناسكا ، لكنه لم يكن داهية ماكرا . واعتقد ابن الزبير أنه محقق آماله فى الخلافة عن طريق ما جبل عليه من صلاح وصدق ووفاء للعهد ، وقد عبّر ابن الزبير عن رأيه هذا فى حديثه الأخير لأمه أسماء بنت أبى بكر [١] .

واتصف ابن الزبير بالصدق والصراحة ، وتمسك بهما دائما ، ولم يلجأ الى الحيلة أو الدهاء . روى ابن الأثير [٢] : « وقدم عليه عاتية قوم من الأعراب فقالوا : قدمنا للقتال معك . فنظر فاذا مع كل امرىء منهم سيف كأنه شفرة وقد خرج من غمده : فقال : يا معشر الأعراب لا قرّبكم الله ، فوالله أن سلاحكم لرث ؛ وان حديثكم لغث ، وانكم لقتال فى الجدب أعداء فى الخصب . فتفرقوا » . ولا شك أن ابن الزبير قد أخطأ فى موقفه هـذا من هؤلاء البدو الأعراب وقد اشتهروا بالشجاعة والاستبسال فى القتال . رغم أن ابن الزبير كان يقـول فى حصار مكة الأول : « لو أعانتنى الشياطين على أهل الشام لقاتلتهم بهم » [٣] . وأدرك الحجاج أن صراحة ابن الزبير وبخله جعلت أصحابه ينفضون عنه ولذا نادى عليه وقال : قد كان لك رجال ولكن ضيّعتهم !! [٤]

---

(١) راجع نص حوار ابن الزبير مع امه أسماء .
(٢) الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٧ .
(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٤ ص ٢٢ .

أسباب اخفاق حركة ابن الزبير :

وهكذا شاءت الأقدار أن تخفق تلك الحركة السياسية الكبرى التى حمل لواءها عبد الله بن الزبير ، خليفة الحجاز الثائر . وأسدل الستار على تلك الحركة القوية التى لعبت دورا كبيرا على مسرح السياسة العربية الاسلامية حقبة طويلة من الدهر ، وشغلت الخلفاء الأمويين واستنفدت جهودهم . ولا شك أن هناك عوامل ودوافع أدت الى اخفاق الحركة الزبيرية بعد أن حققت نجاحا وانتشارا وتأييدا فى جميع الأمصار الاسلامية .

أولا — بقاء ابن الزبير فى الحجاز : أصر ابن الزبير منذ أن ظهرت حركته على مسرح السياسة أن يبقى فى الحجاز وألا يغادره الى غيره من الأمصار الاسلامية . وكان بقاؤه من عوامل اخفاق الحركة الزبيرية . فالحجاز أقل الأمصار صلاحية لتكون قاعدة لحركة سياسية كبيرة مثل حركة ابن الزبير ، لعدة أسباب . فالبيئة الحجازية تتصف بقلة الموارد الاقتصادية ، ولذا تعجز عن مد ابن الزبير بحاجته من المال والرجال والعتاد . ولذا كان ابن الزبير يعتمد على ما كان يأتيه بانتظام من بلاد العراق . حتى اذا فقد تلك البلاد واستولى عبد الملك بن مروان عليها ، عجز عن الحصول على حاجته من الجند والأموال والسلاح . فى الوقت الذى كانت بلاد الشام الغنية توفر للخليفة عبد الملك وسائل الاستعداد الحربى لقتال ابن الزبير . كما أن بلاد الحجاز كانت تزخر بصور كثيرة من العصبية القبلية التى كانت تمزّق وحدة أهل الحجاز وتفرق كلمتهم ، وكان لهذه العصبية أكبر الأثر فى

اضعاف قوة جيش ابن الزبير . وكان أهل الحجاز أكثر ميلا لبنى هاشم من عبد الله بن الزبير ، وكان امتناع بعض الزعماء الهاشميين مثل محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب دافعا لبعض أهل الحجاز ليقفوا من ابن الزبير موقفا سلبيا .

خرجت من الحجاز كثير من العناصر السياسية النشيطة ورحلت الى سائر الأمصار الاسلامية ، وخاصة بلاد الشام والعراق ؛ وأصبحت بلاد الحجاز مأوى الطبقة الأرستقراطية التى انصرفت عن النزاع السياسى الذى كانت تضطرب به العراق وتموج به دمشق ، ومالت الى حياة الترف والنعيم لما تدفق عليها من الثروة (١) . كما أن المدينة لم تعد تصلح لأن تكون حاضرة دولة كبيرة واسعة مثل الدولة العربية الاسلامية . وقد فطن على ابن أبى طالب الى ذلك من قبل ، فنقل حاضرته الى الكوفة بالعراق ، ثم نقلها معاوية بن أبى سفيان الى دمشق بالشام . ثم بدأ أهل العراق يجاهدون فى عودة حاضرة الخلافة الى بلدهم ؛ بينما جاهد أهل الشام فى الاحتفاظ بالحاضرة فى بلادهم .

اتخذ أبناء الصحابة من بلاد الحجاز مقرا لهم ؛ وكان بعضهم لا يوافق على البيعة بالخلافة لعبد الله بن الزبير ، وخاصة أبناء الصحابة من بنى هاشم الذين رأوا أحقيتهم بالخلافة دون ابن الزبير . وكان لهؤلاء وهؤلاء أنصار عديدون حذوا حذوهم فى الامتناع عن البيعة لابن الزبير .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٥١ .

أصر عبد الله بن الزبير على المكوث فى الحجاز ، فأضاع كثيرا من الفرص . أولها حينما دعاه الحصين بن نمير قائد الجيش الأموى بعد وفاة يزيد بن معاوية ، للخروج معه الى الشام حيث يبايعه بالخلافة . ورفض ابن الزبير دعوته ، وأبى الشخوص معه ، ثم شعر بضياع الفرصة فندم على ذلك . أما الفرصة الثانية فقد حانت لابن الزبير بعد وفاة معاوية الثانى . فقد تولى الضحاك بن قيس الفهرى أمر الدعوة للحركة الزبيرية ، وأخذ البيعة لابن الزبير ، فدانت له بلاد الشام جميعها خلا رقعة صغيرة هى الأردن . وبلغت الحركة الزبيرية من القوة حدا جعل مروان بن الحكم يفكر فى البيعة لابن الزبير . ولو كان ابن الزبير قد خرج الى الشام فى هذه الظروف المواتية ، لاستقر الأمر له بالشام ، وخاصة أن عداء بنى قيس لبنى كلب كان قد فرّق شمل بنى أمية وشغلهم عن ابن الزبير . ولكن بقاء ابن الزبير فى الحجاز أتاح الفرصة لبنى أمية لتوحيد صفوفهم واختيار مروان بن الحكم للخلافة ، ثم تفرغوا لقتال الضحاك داعية ابن الزبير حتى قتلوه . حتى اذا دانت لهم بلاد الشام ، فتحوا مصر ، وتولى عبد الملك بن مروان أمر القضاء على الحركة الزبيرية فى العراق ثم الحجاز .

أما الفرصة الثالثة التى أضاعها عبد الله بن الزبير ، فكانت متاحة له بعد وفاة يزيد بن معاوية ، حين قام أهل العراق بطرد واليهم الأموى عبيد الله بن زياد . فقد كان العراقيون يتلمّسون من يأخذ بيدهم للخلاص من الحكم الأموى . ولو خرج ابن الزبير حينئذ الى العراق لهرعوا الى الالتفاف حوله . ولكنه فضل البقاء

فى مكة والاعتماد على ولاة ضعاف أساءوا التصرف وأغضبوا أهل العراق مما أضر بالحركة الزبيرية . وأتاحوا الفرصة لقيام حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى .

كان جديرا بابن الزبير أن يخرج بنفسه الى بلاد العراق حين زحف اليها عبد الملك بن مروان لانتزاعها من مصعب بن الزبير ، فقد كان وجوده على رأس جيشه يثير الحماسة فى قلوب جنده وأنصاره . كما كان جديرا بابن الزبير أن يخرج من مكة الى بلاد اليمن حين قدم الحجاج بن يوسف على رأس الجيش الأموى للقضاء عليه ، وقد اشتهرت اليمن بشعابها الحصينة .

ثانيا — قلة اهتمام ابن الزبير بنشر الدعوة الزبيرية والدعاية لها : لابد لنجاح حركة سياسية من تحقق عاملين هامين ، أولهما بث الدعوة لها فى شتى الأرجاء ، وثانيهما الدعاية لها بكل الوسائل المعروفة . ولكن عبد الله بن الزبير لم يهتم بهذين العاملين الاهتمام الضرورى . فقد قبع فى مكة ، واعتمد فى نشر الدعوة الزبيرية على رجال غير جديرين بثقته . فهذا هو الضحاك بن قيس الفهرى الذى عهد اليه بنشر الدعوة للحركة الزبيرية فى الشام ، قد أصبح طامعا فى الخلافة ، فترك الدعوة لابن الزبير وطلب من الناس أن يبايعوا له الخلافة ، فانفض الناس عنه وعن ابن الزبير ، وبايعوا لمروان بن الحكم . كما اعتمد ابن الزبير فى الدعوة له فى العراق على شخصيات ضعيفة أمثال عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد ابن طلحة ، فأساءوا الى دعوة ابن الزبير وأثاروا مشاعر الناس ضده . فقد كان ابراهيم مكروها من شيعة العراق وتعمد سبهم

والحط من شأنهم ، فحقدوا عليه وانفضوا عن الحركة الزبيرية .
كما أننا لم نر نشاطا يذكر لدعاة ابن الزبير فى مصر ، فاقتصر أمر الدعوة على المجهود المحدود الذى بذله ابن جحدم ، ولذا تبخرت الدعوة الزبيرية سريعا حين قدم مروان بن الحكم على رأس جيش أموى الى مصر .

وأهمل عبد الله بن الزبير سلاح الدعاية . وكان خير وسائل الدعاية فى ذلك العصر هو الشعر والشعراء . وعمل الأمويون على كسب رضاء الشعراء ، فغمروهم بالأموال والعطايا ، فكانت ألسنتهم تلهج بحمدهم والثناء عليهم ، مما وطد دعائم الدولة الأموية . وفى نفس الوقت ، أخذت ألسنتهم تلهج بهجاء ابن الزبير وذمه مما أضعف الحركة الزبيرية . والى جانب الشعراء العديدين الذين دانوا بالولاء للبيت الأموى ، لا نجد سوى شاعرا واحدا استمر على اخلاصه لآل الزبير ، وهو ابن قيس الرقيات . وكان انصراف الشعراء عن ابن الزبير بسبب تقتيره عليهم واحجامه عن بذل الصلات والمال لهم .

ثالثا — اصرار ابن الزبير على تمجيد عثمان : كان بعض المسلمين فى الأمصار الاسلامية غير راضين عن سياسة عثمان ابن عفان الادارية ، وسخطوا على سياسة ولاته . وقد استمر عبد الله بن الزبير حتى آخر عهده يمجد ذكرى عثمان ويعظم من شأنه ، مالم يرض كثيرا من أهالى الأمصار الاسلامية . وخاصة أن عثمان كان شيخ بنى أمية ، وكان ابن الزبير على عداء شديد للدولة الأموية والخلفاء الأمويين . ولذا كان تمجيد ابن الزبير

لعثمان يضعف من حجته فى معارضته للخلافة الأموية . كما أن ابن الزبير أراد أن يتبع فى العراق النظام الذى اتبعه عثمان فى توزيع الفىء والعطاء ، وكان أهل العراق لا يرضون عن نظام على بن أبى طالب بديلا . وكان اصرار ابن الزبير على تمجيد عثمان دافعا للخوارج الأزارقة لينفضوا عن تأييد ابن الزبير ، بل ثاروا عليه ، وأصبحوا شوكة دائمة فى جنب الحركة الزبيرية ، وانشغل مصعب بن الزبير بقتالهم عن التفرغ لقتال عبد الملك ابن مروان .

رابعا — معارضة بنى هاشم لخلافة ابن الزبير : شهد التاريخ تنافس بنى هاشم وبنى أمية على السيادة فى العصر الجاهلى ، وعلى الخلافة فى العصر الاسلامى . وقد كانت النبوة فى بنى هاشم مما رفع شأنهم ، وأثار حسد بنى أمية . وكان التنافس بين على ابن أبى طالب وبين عثمان بن عفان ثم معاوية بن أبى سفيان هو فى الحقيقة تنافسا بين الهاشميين والأمويين . وكان جديرا بابن الزبير وقد شن حربا شعواء على بنى أمية أن يحالف بنى هاشم أو يهادنهم . وكان المسلمون ينظرون الى بنى هاشم نظرة احترام وتقديس باعتبارهم آل الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن معارضة بعض الهاشميين لخلافة ابن الزبير مثل محمد بن على ابن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، وعبد الله بن العباس ابن عبد المطلب جعلت ابن الزبير يناصبهم العداء . فقد كان الهاشميون يرون أحقية بنى هاشم للخلافة دون غيرهم ، سواء أكان الخليفة أمويا أوزبيريا .

خامسا — مناهضة الخوارج والمختار لابن الزبير : شن الخوارج على الحركة الزبيرية فى العراق حربا شعواء ، وامتاز الخوارج بالشجاعة والبسالة ، ولذا عانى ولاة ابن الزبير بالعراق من الخوارج أكثر مما عانوه من قتال الأمويين لهم . وكان تهديد الخوارج للبصرة دافعا لأهلها على التخاذل عن قتال عبد الملك ابن مروان للتفرغ لقتال الخوارج ، كما أن مصعب بن الزبير حرم جيشه من قائده الباسل المهلب بن أبى صفرة الذى وجهه لقتال الخوارج . حقا كانت الخوارج فئة خطرة قاومها كل من تولى الخلافة ، ولكنها كانت أقل خطرا على الحركة الزبيرية من الدولة الأموية . ولو هادن ابن الزبير الخوارج لتوجهوا بعدائهم نحو العدو المشترك أى الخلافة الأموية .

أما المختار بن أبى عبيد الثقفى ، فقد بدأ حياته السياسية جنديا من جنود عبد الله بن الزبير ، وحارب فى صفوفه خلال حصار مكة الأول فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية . وقد بايع المختار ابن الزبير على شروط حددها وقبلها ابن الزبير ، فقد اشترط المختار عليه أن لا يقضى أمرا بدون استشارته وأن يوليه أفضل أعماله . وكان المختار يطمع فى أن يتولى حكم بلاد العراق ، وقصر أطماعه على هذا النطاق المحدود ، ولم يطمع يوما فى الخلافة طوال حياته السياسية . ولكن ابن الزبير رفض تحقيق أطماع المختار ، كما نكث عهده وتناسى وعوده له ، فتحول اخلاص المختار له الى حرب عليه . وانشغل مصعب فى مناهضة المختار عن الاستعداد لقتال الجيوش الأموية . والتقى عبد الملك

بجيش مصعب بعد مصرع المختار وقد أنهك قواه فى هذه الحروب الضروس ، بينما كان عبد الملك قد احتفظ بقواه ، فدارت الدائرة على مصعب .

سادسا — اعتماد ابن الزبير على العنصر العربى دون الموالى :

اعتمد عبد الله بن الزبير فى حركته على العناصر العربية وأهمل تماما الموالى ، وهم المسلمون من غير العرب ، وكان معظمهم من الفرس الذين حرمهم العرب من الحقوق السياسية والاجتماعية ، وأملوا أن يتساووا مع العرب فى هذه الحقوق . وغضب الموالى لاهمال ابن الزبير حقوقهم ، ومناصرته الأشراف العرب . وكان هؤلاء الموالى يمثلون الغالبية العظمى لسكان بلاد العراق .

كانت العصبية القبلية تفتت وحدة العنصر العربى حينئذ ، وظهرت هذه العصبية واضحة فى موقعة مرج راهط التى دارت رحاها بين قيس وكلب . ولم يكن فى انتصار مروان بن الحكم اسدال للستار على روح التعصب بين هذين الفريقين الكبيرين المتعاديين ، بل ظهرت العصبية مرة أخرى فى موقعة خازر سنة ٦٧ هـ فى عهد عبد الملك بن مروان .

أما الموالى ، فكانوا يمثلون غالبية أهل الأمصار ، فهم يمثلون الطبقة الكادحة الفقيرة التى تنظر الى أشراف العرب نظرة سخط وحقد ، فقد حرموا الموالى من الفىء والعطاء والحقوق السياسية ، وعاش هؤلاء الأشراف فى اقطاعياتهم حياة الترف والنعيم ، وتركوا الموالى يلقون الشقاء والعناء . وكان هؤلاء الموالى أمضى سلاح يمكن لابن الزبير أن يعتمد عليه فى عدائه للدولة الأموية .

ولو حاول ابن الزبير استمالتهم لوجد منهم كل اخلاص ووفاء وتضحية ، فقد كانوا يتلمسون أية حركة تعارض الحكم الأموى ، كما كانوا ينظرون الى أبناء الصحابة نظرة احترام وتقدير ، ولكن ابن الزبير اعتمد على العنصر العربى وحده ، وأهمل الموالى تماما ، ولم يرد لهم حقوقهم المسلوبة ، فانصرفوا عن تأييده ، وألقوا بأنفسهم فى أحضان خصمه المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى جعل الموالى عماد حركته السياسية . وخير ما يعبر عن موقف الموالى من ابن الزبير هذا الشعر [١] :

ان الموالى أمست وهى عاتبة
على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا ومـاذا كان يرزؤنا
أى الملوك على ما حـولنا غلبا

سابعا — تقتير عبد الله بن الزبير : أجمع المؤرخون على أن تقتير ابن الزبير وبخله فى المال على أنصاره كان عاملا على اخفاق حركته السياسية . فيقول ابن قتيبة [٢] : وكان (عبد الله) بخيلا فقال الشاعر فيه :

رأيت أبا بكر وربك غالب على أمره يبغى الخلافة بالتمر

ويقول المسعودى [٣] : « وأظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ — المقصود بالخليفة هنا هو عبد الله بن الزبير .
(٢) المعارف ص ٧٦ .
(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ .

والعبادة مع الحرص على الخلافة وقال : انما بطني شبر ، فما عسى أن تسع ذلك من الدنيا على سائر الناس . ففي ذلك يقول أبو حرة مولى الزبير :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها
حتى فؤادي مثل الخز في اللين

لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد
أفضلت فضلا كبيرا للمساكين » .

ويقول المؤرخ ابن طباطبا [1] عن ابن الزبير أنه « كان عظيم الشح فلذلك لم يتم أمره » . وعرف عبد الملك بن مروان بخل عبد الله بن الزبير ، فحاول أن يحث مصعب على التخلي عن أخيه والانضمام اليه ؛ فقال لمصعب عن أخيه : ان فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبدا ، عجب قد ملاه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ؛ فلا يسود بها أبدا » [2] . وكان عبد الملك يذم ابن الزبير فيقول : ان ابن الزبير لا يصلح أن يكون سائسا وكان يعطى مال الله كأنه يعطى ميراث أبيه [3] .

وتحدث المؤرخون المحدثون عن بخل ابن الزبير أيضا وأثره في اخفاق حركته السياسية . فقال المؤرخ (أوكلى) [4] أن

---

(١) الفخرى ص ١٠٥ .
(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠ .
(٣) اليعقوبى ج ٣ ص ٩ .
(٤) Ockly : The Hist. of Saracens, P. 479.

ابن الزبير كان على نصيب غير عادى من الشجاعة ، الا أنه كان شحيحا لأقصى درجة ، وقد أدى هذا الى شيوع مثل بين العرب بأنه ليس هناك رجل يفوق ابن الزبير فى الشجاعة والبخل . ويرى جورجى زيدان [1] أن الأمويين لم يقتلوا ابن الزبير الا بالمال ؛ ويرى أنه لو كان قد بذل مثلما بذلوا من الأموال لكانت الخلافة فى نسله وليست فى بنى أمية ، ولكن ابن الزبير استنكف أن يعطى الناس من أموال الكعبة فأضر بنفسه .

اعترف عبد الملك بن مروان وهو على فراش الموت بجدارة ابن الزبير بالخلافة ، وبتقواه وورعه ، ونسب اخفاقه الى تقتيره ، فقال : ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر (الخلافة) منى ، ان ابن الزبير طويل الصلاة ، كثير الصيام ، لكنه لبخله لا يصلح للسياسة .

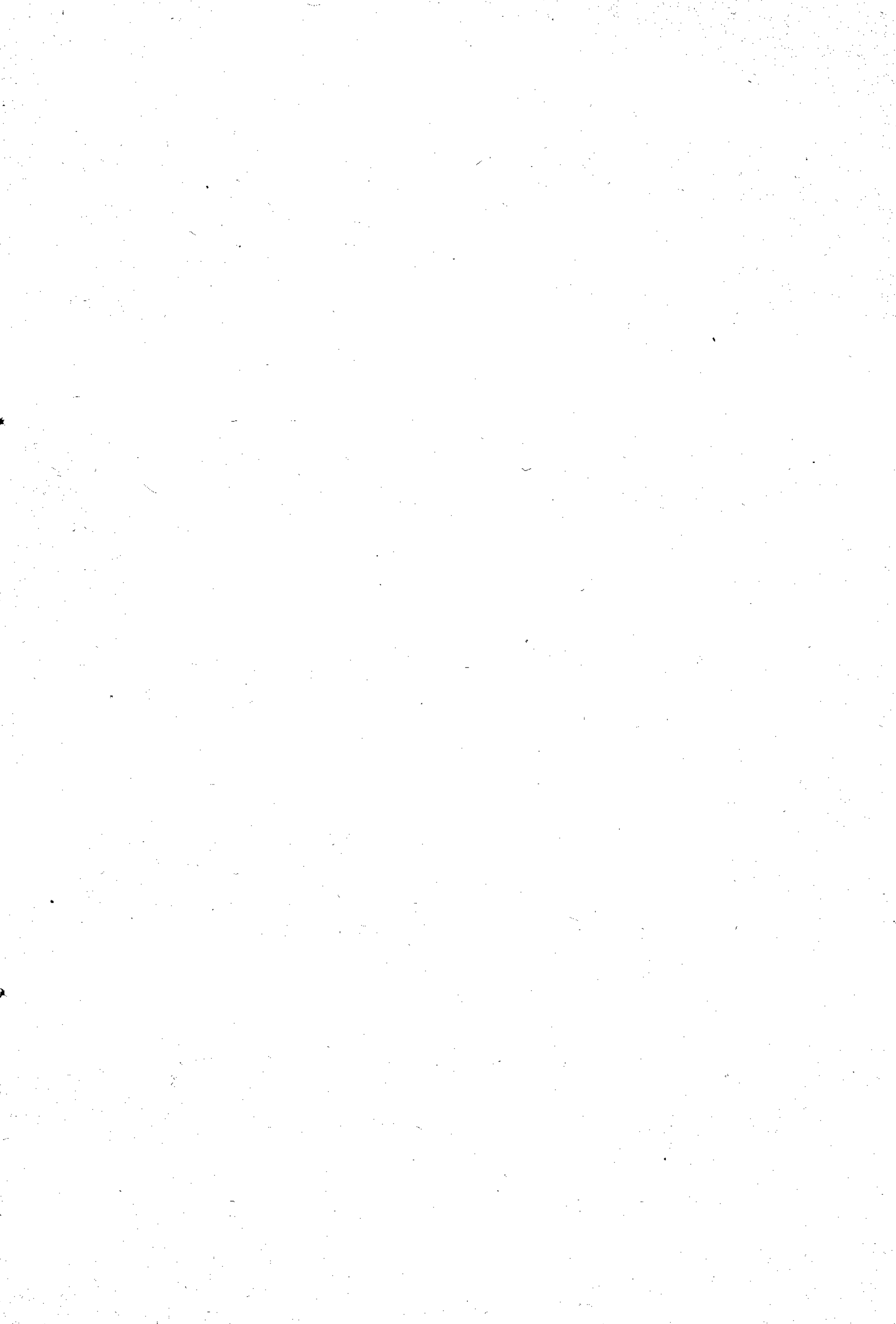
أما مصعب بن الزبير فكان على النقيض من أخيه كريما يبذل المال ، حتى أنه بذل مليون درهم فى زواجه من سكينة بنت الحسين بن على . وأدرك الحجاج بن يوسف أهمية سلاح المال ، فانه لما حاصر الكعبة أمر جند الشام أن يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسى وجلس عليه وقال : يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك .

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٧١ — ٧٢ .

ولكن نرى من واجبنا أن ننصف عبد الله بن الزبير ، فقد كان عبد الملك بن مروان الذى يعيب على ابن الزبير بخله وتقتيره ، يشاركه فى هذه الصفة . فيقول الروحى [1] عن عبد الملك : ويقال أبو مروان ولقبه وشح الحجر لبخله .

(1) الروحى : بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠ .



١٠ـ أثر حركة ابن الزبير في تاريخ الدولة الأموية

تهدم الكعبة خلال حصار مكة الأول

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

بناء عبد الملك قبة الصخرة

أثر حركة ابن الزبير الأدبي

ابن قيس الرقيات شاعر ابن الزبير

تهدم الكعبة خلال حصار مكة الأول :

حاصر الجيش الأموى بقيادة الحصين بن نمير ، فى عهد يزيد ابن معاوية ، عبد الله بن الزبير فى الكعبة ، وقذفها الحصين بالمنجنيق ، فتهدمت أجزاء كثيرة منها ، ثم امتدت اليه ألسنة اللهيب فحرقت أجزاء أخرى من الكعبة . وسنحاول هنا أن ندرس هذه الحادثة دراسة تاريخية علمية حتى نصل الى المسئول الأول عما لحق بالكعبة ، هل هو الحصين بن نمير ، أم عبد الله بن الزبير ؟ فقد كان لهذا الحادث دويّه فى أرجاء العالم الاسلامى ، فقد كانت أول مرة تشهد الكعبة فى العصر الاسلامى مثل هذا القتال العنيف .

أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو السبب فيما أصاب الكعبة ، على حين ألقى ابن الزبير التبعة على عاتق الأمويين . واختلف المؤرخون فيما بينهم عمن يقع عليه الاتهام . وسنستعرض أقوال هؤلاء المؤرخين ، على اختلاف أهوائهم ، حتى نصل الى رأى حاسم . وقد انقسم المؤرخون الى فريقين .

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسئولية على عاتق جند الشام ؛

ففى مقدمتهم المسعودى [1] الذى قال أن جند الشام هم سبب تهدم وحرق الكعبة ، فوصف ما حدث ، فقال : « فتواردت أحجار المنجنيق والعرادات على البيت ، ورمى على الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » . ويوجه المؤرخ اليعقوبى [2] الاتهام الى جند الشام أيضا بأنهم تسببوا فيما لحق بالكعبة من حرق وهدم ، ويتفق ابن عساكر [3] وابن طباطبا [4] فى اتهامهما جند الحصين ابن نمير .

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام الى جند عبد الله بن الزبير ، فمنهم الطبرى [5] ، فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارا تطاير منها الشرر ، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت . ثم يؤيد الطبرى اتهامه برواية أخرى ، فقال انه لما تساءل الناس عن سبب احتراق الكعبة « أشاروا الى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقت بسببه ، أخذ قبسا فى رأس رمح له فطيرت الريح منه ، فضرب أستار الكعبة ما بين الركن اليمانى والأسود » . ويتهم المؤرخ البلاذرى [6] أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا فى حرق الكعبة . ولكن الطبرى والبلاذرى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٩ .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .
(٤) الفخرى ص ١٠٢ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٨٣ .
(٦) أنساب الأشراف ج ٤ ص ٥٣ .

قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب فى حرق الكعبة ، أما تهدمها فكان نتيجة قذف جند الشام لها بأحجار المجنيق .

ووقف بعض المؤرخين موقفا محايدا . ومنهم ابن الأثير [1] الذى ذكر روايتين عن حرق الكعبة . فيقول فى احداهما أن بعض الناس ذهبوا الى أن سبب حرق الكعبة يرجع الى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق ، على حين زعم آخرون أن « الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبّت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق ثياب البيت » . ولكن ابن الأثير يميل الى تأييد الرواية الأولى .

وروى ابن كثير [2] ثلاث روايات دون أن يرجّح احداها ، فقال : « فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها حتى بالنار ، فاحترق جدار البيت فى يوم السبت . وقيل : انما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فعلقت النار فى بعض أستار الكعبة فسرت الى أخشابها وسقوفها فاحترقت . وقيل : انما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة فى ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام ، فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فعلقت فى أستارها وأخشابها فاحترقت ، واسودّ الركن وانصدع فى ثلاثة أمكنة منه » .

---

(١) الكامل حـ ٤ ص ٥٢ .
(٢) البداية والنهاية حـ ٨ ص ١٢٥ .

أما العمرى [1] فلا يتهم ابن الزبير أو ابن نمير على السواء فيقول أن سبب حرق الكعبة « أن امرأة أرادت أن تجمّر الكعبة ، فطارت شرارة من المجمرة فى أستارها فاحترقت » .

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة ، فيروى ابن قتيبة [2] أنه حين طلب الحصين بن نمير من ابن الزبير بعد موت يزيد أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت قال ابن الزبير له : وهل تركتم من البيت الا مدرة وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته مع الحريق الذى أصابه . ونحن نميل الى الرأى القائل أن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رحل الحصين بن نمير بجيشه الأموى الى الشام بعد موت يزيد بن معاوية ، تاركا الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها ، فأصبح أمر اعادة بنائها من شأن عبد الله بن الزبير ، فهدم ما تبقى منها سليما وأعاد بناءها من جديد . وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر فى وقت واحد .

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا فى تهدم الكعبة وانتهكوا حرمتها اذ قذفوها بالأحجار ، وحمدوا لعبد الله ابن الزبير قيامه باعادة بنائها . فروى المؤرخ ابن الأثير [3] .

(1) العمرى : مسالك الأبصار حـ ١ ص ٩٥ .
(2) الامامة والسياسة حـ ٢ ص ٨ .
(3) الكامل حـ ٤ ص ٨٧ .

« لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنّع بذلك على أهل الشام » . ثم أعاد ابن الزبير بناء الكعبة . ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول .

أثارت رغبة ابن الزبير فى اعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له ، فقد حار فى الطريقة التى يتبعها فى بنائها من جديد : هل يهدم الكعبة تماما ثم يعيد البناء من جديد ؟ أم يحاول اصلاحها وترميمها ؟ وروى العمرى [1] حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حل هذه المشكلة المعقدة ، فقال : « فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم . فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له الا بأكمل اصلاح ، ولا يكمل اصلاحها الا بهدمها . فهدمها حتى أفضى الى قواعد ابراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر ، فحرّكوا حجرا منها فرأوا تحته نارا وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد .. وتمم بناءها وألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفا أى بابا من ورائها وأدخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى أجمل مظهر . وعدّد المسعودى [2] جهود ابن الزبير فقال : « وحُمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهة الحبشى

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩ .

فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشى منقوش ، قد حشى النقش السندروسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهبا » .

عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة ، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها واصلاحها . ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا اليه ، فقد « كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق » [1] . مما يجعل أمر ترميمها عسيرا ، اذ قد تنهار جدران الكعبة فى أى وقت على من فيها . وكان من الضرورى ضمان سلامة هذه الجدران ، فقد كانت الكعبة مقصد آلاف المسلمين كل عام ، حيث يتدافعون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها . كما أن العمرى [2] يذكر أنه سبق هدم واعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات .

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعا ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر . وعابوا عليه أنه كان « أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والاقطاع ، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم » [3] . ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير . فان وجود

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ٨٧ .

(٢) مسالك الأبصار حـ ١ ص ٩٥ .

(٣) تاريخ ابن عساكر حـ ٧ ص ٤١٣ .

بابين يسهل الدخول الى الكعبة والخروج منها . كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة الى الحد الذى وصل اليه ابن الزبير . كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوى مرضاة الله والرسول والمسلمين .

وقد برّر المؤرخ المسعودى [1] زيادات ابن الزبير فى الكعبة ، فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخا من قريش أن قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذى أسسه هو واسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ؛ وجعل له بابين : بابا يدخل منه ، وبابا يخرج منه » .

ويذكر العمرى [2] أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد فى بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، فقال : « وذلك لأن خالته عائشة ، رضى الله عنها ، حدّثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد ابراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر . فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة » .

---

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ٢٩ ــ ٣٠ .
(٢) مسالك الأبصار ح ١ ص ٩٥ .

ومهما يكن من أمر ، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذى أعاد ابن الزبير بناءها عليه ، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفى الكعبة الحصار الثانى فى عهد عبد الملك بن مروان وقذفها بالمنجنيق فتهدمت ، فأعاد الحجاج بناءها وجعلها كما كانت قبل التجديد الذى أحدثه ابن الزبير بعد حصار الكعبة الأول . وجعل الحجاج للكعبة بابا واحدا كما أمره عبد الملك بن مروان [١] .

بناء عبد الملك قبة الصخرة :

اتخذ عبد الله بن الزبير الحجاز مركزا لحركته السياسية ولخلافته . وكان المسلمون يفدون الى الكعبة فى مواسم الحج والعمرة ، فيلقون عبد الله بن الزبير ، فكانوا لا يجدونه الا قائما بالصلاة أو طائفا بالكعبة ، ونجح فى أن يبهر أنظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه . فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التى عاشها الخلفاء الأمويون . وانتهز ابن الزبير فرصة قدوم هؤلاء الحجاج ، فأخذ يبث دعوته فيهم ، ودعاهم لمناصرته وتأييده . وكان هؤلاء الحجاج والمعتمرين لا يعودون الى بلادهم الا وتحدثوا عما رأوه من أحوال ابن الزبير ، مشيدين بفضائله ، معددين سجاياه ، مما أدى الى انتشار دعوة ابن الزبير فى شتى أرجاء الدولة العربية الاسلامية .

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٣٥ .

وكان ابن الزبير يسمى نفسه « العائذ بالبيت » مما أثار عطف المسلمين عليه . وزاد من عطفهم عليه كما أثار العاطفة الدينية عامة ، اقدام الخلفاء الأمويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق . فى نفس الوقت الذى استمات ابن الزبير فيه فى الدفاع عن الكعبة . وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تخالف ابن الزبير فى آرائها ومبادئها على عبد الله بن الزبير لتقف الى جانبه فى صد الجيوش الأموية عن غزو الكعبة ومكة ، فقد قدم الخوارج الأزارقة وقدم المختار بن أبى عبيد الثقفى ؛ بل بعث نجاشى الحبشة فرقة من جنده تدافع عن الكعبة . وكان بعض المسلمين حين يقدمون الى مكة للحج أو الاعتمار ويستمعون لآراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم لهم وينضمون الى حركته ولا يعودون الى بلادهم . بل ان كثيرا من أهل الشام تظاهروا بالخروج الى الحجاز للحج ، وانضموا الى ابن الزبير .

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة اقامة ابن الزبير فى مكة الى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل الى مكة حتى لا يلتقون بابن الزبير ، ولكنه لم يكن بقادر أن ينهاهم عن أداء فريضة الحج وهى من أركان الاسلام . وأخذ يبحث عن حل آخر ، حتى توصل الى فكرة بناء قبة الصخرة .

بنى عبد الملك قبة الصخرة فى بيت المقدس ودعا المسلمين الى الحج اليها ، ونهاهم عن الحج الى الكعبة فى مكة . وروى اليعقوبى [1] تاريخ هذا الحدث فقال : « ومنع عبد الملك أهل

---

(١) تاريخ اليعقوبى حـ ٣ ص ٧ — ٨ .

الشام من الحـــج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم اذا حجّوا بالبيعة . فلما رأى عبد الملك ذلك ، منعهم من الخروج الى مكة فضجّ الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحـــال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقـــام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة وعلّق عليها ستور الديباج وأقام لها ســـدنة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة وأقام بذلك أيام بنى أمية » .

ونعزّز هذه الرواية برواية أخرى للروحى [1] هى : « فلما ولى عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة اذا حجّوا فضجّ الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ، وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها » .

كان اليعقوبى هو أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك لقبة الصخرة . أما الروحى فلا شك فى أنه نقل هذه الرواية . ولكن الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة . ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن الوليد بن

(١) بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة وذهب بعضهم مذاهب أخرى ، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين فى ذلك على أن بناء هذه القبة لا يتمشى مع الفن العربى ، وانما هو مطابق للفن البيزنطى ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة أن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصحرة ويميلون الى الأخذ برواية اليعقوبى ، ويعتمدون فى ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصحرة نقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٧٢ هـ اى فى عصر عبد الملك

أثر حركة ابن الزبير الأدبى :

اعتمد الأمويون فى القضاء على حركة عبد الله بن الزبير على السيف والشعر وكان الشعر سلاحا ماضيا لا يقل خطوره عن السيف وقد اتخذ العرب الشعر منذ الجاهلية وسيلة سياسية . واستغل معاويه بن أبى سفيان الشعر فى صراعه لعلى بن أبى طالب (١) . وبدأ الصراع بين الأحزاب الاسلامية ، كيف تكون الحكومة ، وأين تكون ؛ ومن هذا الحاكم ، وكان الخلاف يبدو اما خالصا للمذهب والرأى ، واما متصلا بالمصالح المادية والعصبيات القبلية ، وكان الشعر صفحة ذلك وأداته . وكان الأمويون أحرص الناس على السلطة ، وبرروا فى سبيله كل وسيلة ؛ واستعانوا بدهاة العرب وأساطين السياسة ؛ كما استعانوا بالشعر والشعراء .

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية حـ ١ ص ٢٣٩.

وفى الحقيقة ، أن الزبيريين لم تقصروا فى جهادهم ضد الدولة الأموية ، بالسيف والقلم واللسان . بينما لم يحاول الموالى والمرجئة والمعتزلة محاولة مادية تعتمد على السيف . وكان الشعر حصا مشتركا بين الجميع وجدوا فيه متنفسا ووسيلة قوية [1] .

وفطن الأمويون الى قوة الشعر فى استمالة القلوب والعقول ، فجاهدوا فى ارضاء الشعراء وغمروهم بالعطايا والصلات ؛ ليضمنوا اخلاصهم وحتى لا ينضموا الى أعدائهم . فقد كان معاوية بن أبى سفيان يحث بنى أمية على ذلك فيقول لهم اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم . وزاد اهتمام الأمويين بالشعر بعد دعوة عبد الله بن الزبير ، فقد كان شاعرا بليغا فصيحا . وقد حرص معاوية حين كتب لابن الزبير يدعوه للبيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد أن يكون كتابه شعرا ، كما رد ابن الزبير أيضا بأبيات من الشعر . وكان يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان شاعرين مجيدين . فلا عجب أن جذب الخلفاء الأمويون الشعراء اليهم .

ولكن بخل ابن الزبير وسخاء الأمويين ، صرف أنظار الشعراء عن الحركة الزبيرية ، وتركوا مديح ابن الزبير ، بل جاهر بعضهم بهجائه ، مثل الضحاك بن فيروز الديلمى . بل بلغ بخل ابن الزبير حدا جعل مولاه أبا حرّة يغادره ويهجوه .

أما عن الشعر السياسى الزبيرى ، فهو شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، ذلك الشاعر القرشى الذى اختص هذا الحزب بقسط

---

(١) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ١٣٨ .

كبير من انتاجه الأدبى . وهنـاك شعراء آخرون وفدوا عـلى آل الزبير ومدحوهم ، ولكن لم يكن أحدهم معبّرا عن رأى هذا الحزب ، بل لعلهم كانوا مرتزقة أو من المؤمنين بمذاهب أخرى . ولذلك ستكون دراسة الجانب السياسى لشعر ابن قيس الرقيات هى دراسة الشعر السياسى لحزب الزبيريين .

ابن قيس الرقيات شاعر ابن الزبير :

هو عبيد الله بن قيس الرقيات من قريش [1] . وقد لقب بالرقيات لأنه شبّب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية [2] . عاش ابن قيس فى القرن الأول الهجرى الذى شهد أحداثا سـياسية هامة ، فشهد شروق شمس الحركة الزبيرية ثم رأى أفولها ، ولعب فيها دورا كبيرا فكان لسانها الناطق .

كان ابن قيس قرشيا متعصبا ، ولذا غضب أشـد الغضب لاقدام يزيد بن معاوية على قتل سادة قريش فى موقعة الحرّة ، وشعره يعطينا صورة واضحة عما لحق بالمدينة من مذابح وفظائع ، فقد قال [3] :

ينـامى يبكون آبـاءهم ولم يبق دهـر لهم سائمة
وأرمـلة يعتريها النحيب اذا نامت الأعين الناعمـة

وقد كان لتعصب ابن قيس لقريش وغضبه عـلى الأمويين لاعتمادهم أحيانا على العناصر غير العربية ، أكبر الأثر فى انضمامه

---

(١) الأصفهاني : الأغانى حـ ٥ ص ٧٣ .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .
(٣) على النجدى ناصف : ابن قيس الرقيات ص ٥٩ .

الى عبد الله بن الزبير ، الذى تعصب للعرب . ولكن الشاعر ليس له تجارة يربح منها ؛ غير ما تجود به قريحته من قصائد ، فهو فى حاجة دائما الى ما يقضى به نفقاته وحاجاته . ولكن عبد الله ابن الزبير كان مقترا بخيلا ، فلم يكافىء ابن قيس بما يستحقه مقابل ما أنشده فى مدحه فلما ضاق ابن قيس ببخل ابن الزبير ، انصرف عنه الى أخيه مصعب بن الزبير ، فان تعصبه لقريش وحبه للزبيريين ، دفعاه الى عدم التنكر للحركة الزبيرية .

عاش ابن قيس فى بلاد العراق الى جانب مصعب ، وقد كان مصعب كريما لم يبخل بماله على الشاعر ، ولذا نظم فيه من المدائح والمراثى مالم يقل مثله أحد سواه ، لا من ناحية المقدار وحده ، ولكن من ناحية القيمة الفنية أيضا ؛ ثم شاهد ابن قيس خروج عبد الملك لقتال مصعب ؛ ورأى ما كان من خيانة قواد مصعب له . وقد شعر مصعب بحرج موقفه ، فدعا ابن قيس اليه ، وأعطاه مالا كثيرا وأذن له فى الانصراف الى حيث يشاء ، ولكن ابن قيس أبى الا أن يقيم الى جانبه الى اللحظة الأخيرة . ولما علم ابن قيس بمصرع مصعب سارع الى الفرار التماسا للنجاة . ورحل الى الكوفة حيث اختفى عاما كاملا ، فلما رأى أن الأمويين جادين فى البحث عنه ، هرب الى مكة ، وقصد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الذى كان يغدق عليه الصلات والعطايا . فكتب عبد الله الى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهى زوجة الوليد بن عبد الملك يطلب منه الشفاعة عند عبد الملك بن مروان ، فما زالت

تلح عليه حتى منحه الأمان ، فقصد ابن قيس دمشق ومدح عبد الملك بعدة قصائد .

هذه هى خلاصة لتاريخ حياة ابن قيس الرقيات . وسنبحث الآن فى عدة مسائل هى : (الأولى) مبادىء ابن قيس السياسية (والثانية) أسباب ومظاهر عدائه للأمويين (والثالثة) موقف ابن قيس من الحركة الزبيرية بعد القضاء عليها (والرابعة) موقفه من بنى هاشم .

أما مبادىء ابن قيس السياسية ، فقد كان ابن قيس من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغاليا فى نصر الزبيريين ، يحبهم أشد الحب ، ويبغض خصومهم بغضا شديدا ، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى أن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله فى مصعب ابن الزبير [1] .

وان كان ابن قيس زبيريا فى ميوله السياسية ، الا أنه كان قرشيا قبل كل شىء ، فكان له مذهبا سياسيا لم يتغير رغم تغير الظروف وتطور الأمور ، فيرى أن تكون الكلمة العليا لقريش قولا وفعلا . فهو فى كرهه لبنى أمية ، انما يكرهم لأنهم اعتزوا على القريشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية . فقد كان يرى أن الخلافة يجب أن تكون فى قريش ومعها المضرية ، وعلى قريش أن تجتمع حول هذه الخلافة تحوطها وترعاها معرضة عن هذه

---

(١) طه حسين : حديث الأربعاء حـ ١ ص ٣٢٢ .

الفرقة التى قسمتها شيعا وأحزابا يضرب بعضها بعضا ، كان حريصا على وحدة هذه القبيلة ذات المجد القديم منذ الجاهلية ، ولعله بذلك كان أوسع أفقا من الزبيريين أنفسهم ، ومن الهاشميين والأمويين [1] .

وهنا تظهر أرستقراطية ابن قيس السياسية ، فالخلافة من حق قريش دون غيرها من العرب أو المسلمين . وكم فخر بقريش ، وبكى أيام وحدتها ، وخاف عليها العوادى ، ودعاها الى توحيد كلمتها قبل أن تشمت الأعداء . وكان فى فنّه الشعرى أرستقراطيا كذلك ، فلم يسف ولم يهج كما أقذع غيره ، بل كان جزل الأسلوب ، رقيق الشعور ، مهذب النفس ، نقى الضمير ، عف اللسان ، لم يتأذ أحد بنسيبه ، عنده رقّة الحضر وجزالة البادية ، ولكنها البادية الحجازية بوجه خاص [2] .

ومن البديهى اذا ، ألا يروقه الخوارج أنصار الجمهورية الاسلامية ، ولا الأمويين الذين يعتزون باليمنية ولا الموالى الذين يدعون للكسروية ، ومع هذا فهو مطمئن ما دامت الحكومة فى قريش ، ومستعد أن يقف بجانبها ، زبيرية كانت أم أموية أم هاشمية ، فالجميع قرشيون وأولو قرباه ، ولا غرابة اذا اتصل بعد الزبيريين بالأمويين والهاشميين دون أن يجد فى ذلك غضاضة وان وجد الأمويون فى ذلك غضاضة ، ثم العباسيون بعد ذلك حين كانوا يسمعون شعره فى مدح الأمويين .

(١) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ١٧٨ .
(٢) المصدر السابق .

ويلخص الأستاذ الدكتور طه حسين [1] مبادىء ابن قيس الرقيات السياسية الى قسمين : أولا : ان السلطان يجب أن يكون لقريش وخاصة لمضر . ثانيا : ان من الاثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية :

أيها المشتهى فنـــاء قريش   بيد الله عمـــرها والفنـــاء
ان تودّع من البــلاد قريش   لا يكون بعدهم لحى بقاء [2]

أما المسألة الثانية التى نريد بحثها ، فهى أســباب ومظاهر عدائه للأمويين . كان ابن قيس مستعدا لمناصرة بنى أمية ومدحهم باعتبارهم من قريش التى يعتز ابن قيس بها ، وليس لأنهم أعداء لابن الزبير . وغضب ابن قيس على الأمويين فى أول الأمر لأنهم لم يتعصبوا للقرشيين . كما غضب لقتلى الحرّة واقدام الأمويين فى عهد يزيد على قتل سادة قريش وأشرافها فى المدينة ، وحصارهم الكعبة كما أغضبه اعتماد الأمويين على بعض العناصر غـــير العربية ، وكذا نقل حاضرة الخلافة من الحجاز مهد الاسلام ومقر قريش الى بلاد الشام البيزنطية الأصل . كما زاد من غضبه اعتماد الأمويين على اليمانيين دون المضريين .

هذه هى الأسباب التي دفعت ابن قيس الى اظهار العـــداوة والبغضاء للأمويين ، أما مظاهر هذا العداء فانها حقا تستلفت النظر وتدعو للاهتمام . فقد اتخذ ابن قيس الغزل وسيلة الى

---

(١) حديث الأربعاء حـ ١ ص ٣٢٢ .
(٢) على النجدى ناصف : ابن قيس الرقيات ص ١١٩ .

الهجاء . فكان يتغزل لا للغزل نفسه أو لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ، فكان يذكر نساءهم بما يحسن ولا يحسن ، فكان يتخذ النساء وسيلة الى حرب الرجال (1) .

فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز ابن مروان ، قاصدا اغاظة عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أمية . ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتقرب منها . ولم تغضب أم البنين لهذا الغزل ، بل لقد صادف هوى فى نفسها ، لأن فيه ارضاء لطبيعة المرأة ، ومجاوبة لنوازع التيه والدلال (2) .

وقد وصل ابن قيس الرقيات بهذا النوع من الغزل الهجائى الى كل ما كان يريد ، فأحفظ بنى أمية عليه أشد احفاظ حتى هدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم ممن آواه ، ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه ، وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك (3) .

ونذكر الآن بعض أبيات قليلة من شعر ابن قيس ، نرى فيها صورة واضحة لمبادئه السياسية ، وسجلا للأحداث . ففى قصيدة له يبكى قريشا ويسخط على بنى أمية لمصرع الحسين بن على يقول :

---

(1) طه حسين : حديث الأربعاء ح ١ ص ٣١٨ – ٣١٩ .
(2) على النجدى ناصف : ابن قيس الرقيات ص ٢٨ .
(3) طه حسين : حديث الأربعاء ح ١ ص ٣٢٠ .

عين فابكى على قريش وهل ير جع ما فات أن بكيت البكاء
كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم بنى أمية مزو دّ ؛ وأنتم فى نفسى الأعداء
ان قتلى بالطف قد أوجعتنى كان منكم لئن قتلتم شفاء (١)

وبعد واقعة الحرة فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية حيث استبيحت المدينة ثلاثة أيام ، أنشد ابن قيس :

ان الحوادث بالمدينة قد أوجعتنى وقرعن مروتيه

أما طريقة ابن قيس الفريدة فى الهجاء ، وهى اتخاذ الغزل وسيلة للهجاء ، فنراها واضحة فى هذه الأبيات :

الى أم البنين متى يقر بها مقربها
أتتى فى المنام فقلـ ت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بهما ومال على أعذبها
شربت بريقها حتى نهلت وبتّ أشربها (٢)

وقد مدح ابن قيس صديقه مصعب بن الزبير بقصائد عصماء ؛ حتى اذا أتاه نعيه حزن عليه ورثاه رثاء حارا . ولرثاء ابن قيس مصعب قيمة تاريخية ، فهو يذكر لنا أسباب هزيمته ويصف غدر أصحابه فيقول :

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات (طبعة فينا) ص ١٧٠ .
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٢٦١ .

ان الرزية يوم مسـ ـكن والمصيبة والفجيعة
بابن الحـوارى الذى لم يعده أهـل الوقيعة
غدرت به مضر العـرا ق وأمكنت منـه ربيعة
فأصبت وترك يا ربيـ ـع وكنت سامعة مطيعة[1]

أما المسألة الثالثة فى دراستنا ؛ فهى موقف ابن قيس من الحركة الزبيرية بعد القضاء عليها . لقد نجح عبد الملك فى القضاء على الحركة الزبيرية بعد قتله عبد الله بن الزبير ، فاستقر الأمر للدولة الأموية فى العراق والحجاز بعد أن ظلت خارجه عن طاعة الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية . وطلب عبد الملك ابن قيس الرقيات ؛ وبعث فى طلبه فى سائر الأمصار وأهدر دمه . فلم يـ ابن قيس بدا من الخضوع للأمر الواقع ، فبعث الى عبد الملك يطلب منه الأمان ؛ وحصل عليه بعد جهد كبير . ثم بدأ ابن قيس مدح الأمويين ، ولكنه لم يسلك فى مدحهم طريق ذم خصـومهم وخاصة عبد الله بن الزبير ؛ فقد ظل على وفائه لآل الزبير ولم يتنكر لمبادئهم . كما أن امتداح ابن قيس للأمويين لا يناقض مذهبـه السياسى فى أصله وجوهره ، لقيامه كما سبق عـلى التعصب لقريش واعتبارها أصلح الناس للخلافة وأحقهم بها[2] .

أما عبد الملك بن مروان ؛ فان كان قد أمّن ابن قيس تحت الحاح أم البنين ، فانه ما زال غاضبا عليه ؛ فقد حرمه من العطاء ، ولم يغمره بعطاياه وصـلاته كما كان يفعل مـع باقى الشعراء

(١) المسعودى : مروج الذهب حـ ٣ ص ٥٢ .
(٢) على النجدى ناصف : ابن قيس الرقيات ص ١٢٤ .

ولذا كان ابن قيس مقصّرا فى مدحه عبد الملك ، وخاصة أنه ما زال فى قلبه بقايا حقده القديم على الأمويين ، ولذا كان يشعر فى قرارة نفسه أنه أصبح منافقا متملقا . فقد أنشد ابن قيس فى مدح عبد الملك قصيدة جاء بها :

ان الأغــر الذى أبوه أبو العاصى عليه الوقار والحجب
يعتدل التــاج فوق مفرقه عــلى جبين كأنه الذهب

وكان عبد الملك فصيحا يفهم الشعر ويتذوقه ، فشعر بما فى نفس ابن قيس ، فقال له : يا بن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب [1] :

انما مصعب شـهاب من اللـ ـه تجلّت عن وجهه الظلمــاء
ملكه ملك عــزّة ليس فيه جبروت منــه ولا كبرياء

أما المسألة الرابعة والأخيرة فى بحثنا ، فهى موقف ابن قيس من بنى هاشم . علمنا اخلاص ابن قيس للحركة الزبيرية ، فى مجدها وفى أفولها ، ولكن هذا الاخلاص لم يمنعه من مـدح بنى هاشم رغم ما يعرفه من معارضة الهاشميين للحركة الزبيرية ؛ فقد كان بنو هاشم عدّة قريش وعمادها . فقد أبدى ابن قيس ألمه لمقتل الحسين بن على ، ثم رثى قتلى الحرة من بنى هاشـم خاصة وقريش عامة ، ثم ساق المديح لعبد الله بن جعفـر بن أبى طالب . وقد كان ابن جعفر يغدق الصلات على ابن قيس ، كما شفع فيه عند أم البنين . ولما رفض عبد الملك منحه العطاء ، عوضه

---

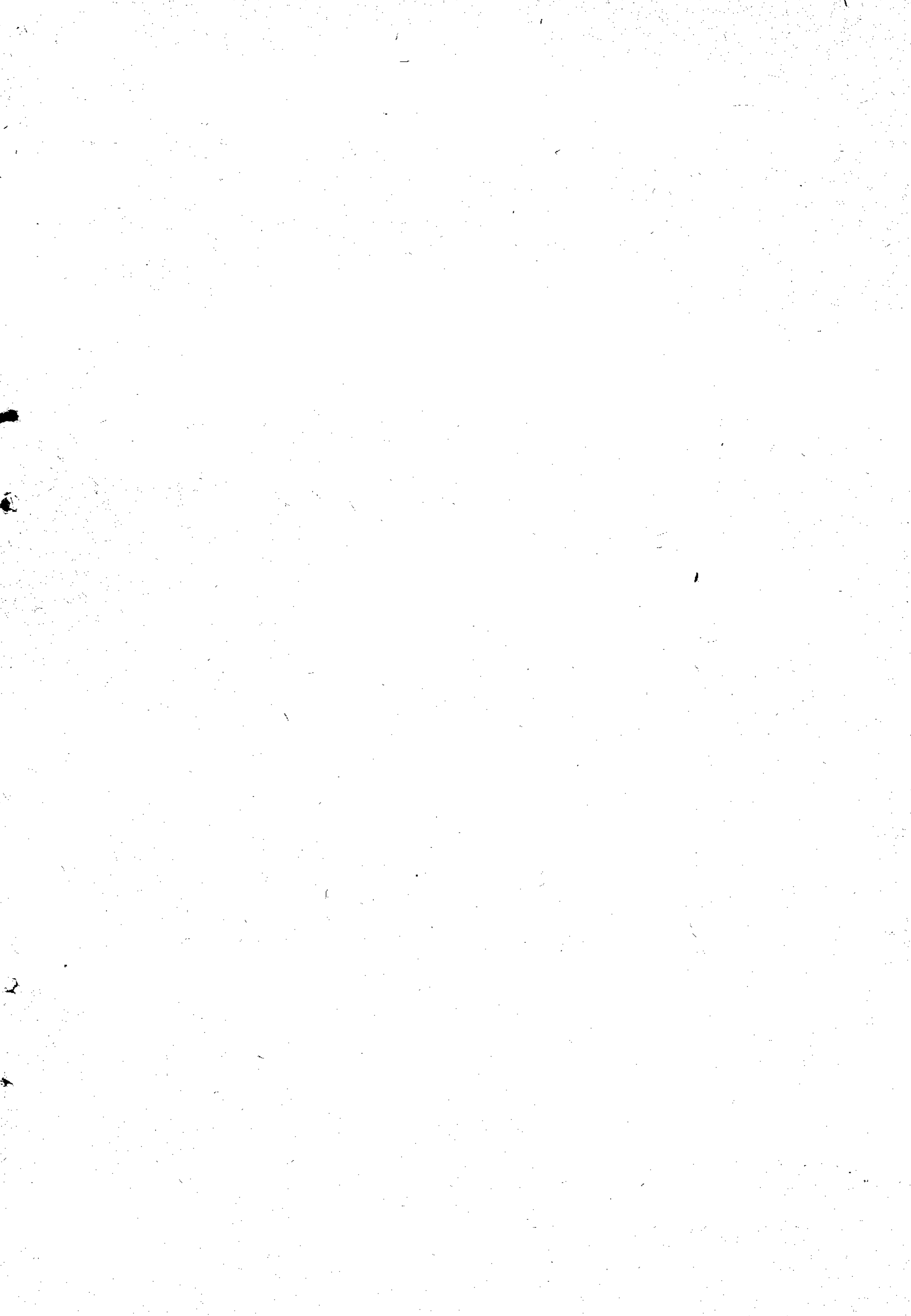
(١) ابن قتيبه . الشعر والشعراء ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

ابن جعفر عن ذلك بأضعاف ما كان يأمل أن يمنحه عبد الملك له [1] . فقد مدح ابن جعفر فقال :

اذا زرت عبـــد الله ، نفسى فداؤه
رجعت بفضـــل من نداه ونائل
وان غبت عنـــه كان للود حافظا
ولم يك عنى فى المغيب بغافـــل

ويلخص الأستاذ الدكتور طه حسين [2] موقف ابن قيس من الأحزاب المختلفة فيقول : فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة ؛ اتصل بحزب الزبيريين وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيـــد ، واتصل بالهاشميين وفيهم أحسن المدح وأجـاده ، ولم يكن مـــع ذلك متلونا ولا فاسد

(١) حديث الأربعاء حـ ٢ ص ٣٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤ .



المصـــادر

اولا المصادر العربية :

ابن الاثير :

الكامل فى التاريخ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة (طبعة المعارف ١٢٨٦ هـ) .

أحمد أمين :

فجر الاسلام (القاهرة ١٩٥٥) .

احمد الشـــايب :

تاريخ الشعر السياسى (القاهرة) .

الأصفهانى :

الأغانى (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ) .

مقاتل الطالبيين (القاهره ١٩٤٦) .

الألوسى محمود شكرى :

بلوغ الارب فى احوال العرب (المطبعة الرحمانية ١٩٢٤) .

انيس زكريا النصولى :

الدولة الاموية فى الشام (بغداد ١٩٢٧) .

البغـــدادى :

الفرق بين الفرق (القاهره ١٩٤٨) .

البلاذرى :

فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٩٠١) .
أنساب الأشراف (الجزءان الرابع والخامس ـ فلسطين ١٩٣٨) .

البياسى :

الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ، جزءان، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٩ تاريخ) .

البيرونى :

الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبزج ١٩٢٣) .

البيهقى :

المحاسن والمساوىء ، جزءان (مطبعة السعادة ١٩٠٦) .

الجاحظ :

كتاب الحيوان (مطبعة السعادة ١٩٠٧) .
كتاب التاج (المطبعة الأميرية ١٩١٤) .
كتاب المحاسن والأضداد (مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ) .
البيان والتبيين (مطبعة الفتوح القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
رسائل الجاحظ ١١ رسالة (القاهرة ١٣٢٤ هـ) .

الجهشيارى :

كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة الحلبى ١٩٣٨) .

جورجى زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامى خمسة أجزاء (مطبعة الهلال ١٩٢٤) .

ابن حجر العسقلانى :

الاصابة فى تمييز الصحابة (القاهرة ١٩٢٢) .

ابن حجر الهيثمى :

تاريخ اخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٦ تاريخ) .

حسن ابراهيم حسن : الدكتور :

تاريخ الاسلام الجزء الأول (القاهرة ١٩٢٥) .

الخضرى : محمد :

تاريخ الأمم الاسلامية (القاهرة ، الطبعة الثالثة) .

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤) .

ابن خلكان :

وفيات الأعيان (طبعة مكتبة النهضة ١٩٤٨) .

الدينورى :

الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .

الروحى :

بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٠٩) .

ابن سعد :

كتاب الطبقات الكبير (لجنة نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة).

سيدة كاشف : الدكتورة :

مصر فى فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) .

السيوطى :

تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة (المطبعة المنيرية ١٣٥١ هـ) .

شكرى فيصل : الدكتور :

المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٢) .

الشهرستانى :

الملل والنحل (القاهرة ١٣٤٨) .

ابن الصباغ :

الفصول المهمة فى معرفة أحوال الأئمة (النجف ١٩٥٠) .

ابن طباطبا :

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (المطبعة الرحمانية القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبرى :

تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية بالقاهرة ، وطبعة المكتبة التجارية ١٩٣٩) .

طه حسين : الدكتور :

على وبنوه (دار المعارف ١٩٥٣) .

حديث الأربعاء .

ابن طولون :

قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١٣٢ تاريخ) .

ابو عبيد :

الأموال (المطبعة التجارية ١٣٥٣ هـ) .

عبد الجواد الكليدار :

تاريخ كربلاء وحائر الحسين (بغداد ١٣٦٨ هـ) .

عبد الحميد العبادى :

صور من التاريخ الاسلامى (الاسكندرية ١٩٤٨) .

ابن عبد ربه :

العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨) .

ابن العربى :

العواصم من القواصم (المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ) .

عبد العزيز الدورى : الدكتور :

مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩) .

ابن عساكر :

تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ) .

العدوى : ابراهيم الدكتور :

الامبراطورية الاسلامية وامبراطورية الروم (القاهرة) .

على بن الحسين الهاشمى النجفى :

محمد بن الحنفية (طهران ١٣٦٨ هـ) .

على حسنى الخربوطلى : الدكتور :

فجر القومية العربية فى القرن الأول الهجرى (القاهرة ١٩٥٨) .
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (دار المعارف القاهرة ١٩٥٩) .
القومية العربية من الفجر الى الظهر (الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩) .
محمد والقومية العربية (مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٥٩) .
المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٦٠) .
الدولة العربية الاسلامية (الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠) .
حياة محمد (ترجمة لكتاب واشنجتون ارفنج . دار المعارف القاهرة ١٩٦٠) .
الحضارة الاسلامية (ترجمة لكتاب خودابخش ، الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠) .
المجتمع العربى فى العصور الوسطى (ترجمة لكتاب أ . و . لين ، القاهرة ١٩٥٩) .
الحضارة العربية الاسلامية (طبعة الأنجلو القاهرة ١٩٦٢) .
المختار بن أبى عبيد الثقفى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .
مصر العربية الاسلامية (طبعة الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٣) .
البحر المتوسط بحيرة عربية (سلسلة اقرأ ١٩٦٣) .
العرب ورسالتهم الانسانية (سلسلة اقرأ ١٩٦٠) .
غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة ١٩٦٢) .

المسجد فى فجر الاسلام (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
ملكية الأراضى فى الدولة العربية الاسلامية (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
المجوس فى العصور الفارسية والاسلامية (بحث فى مجلة جامعة عين شمس) .
العرب واليهود فى العصر الاسلامى (سلسلة كتب قومية)

ابن العماد :

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (مطبعة المقدسى ١٣٥٠هـ) .

عمر أبو النصر :

السياسة عند العرب (بيروت ١٩٤٩) .
الحضارة الأموية العربية فى دمشق (بيروت ١٩٤٨) .
الخوارج فى الاسلام (بيروت ١٩٤٩) .

العمرى :

مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) .

العينى :

عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان (تصوير شمسى بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤) .

ابو الفدا :

المختصر فى أخبار البشر اربعة أجزاء (المطبعة الحسينية القاهرة) .

فيليب حتى :

تاريخ العرب ترجمة مبروك نافع (دار العالم العربى القاهرة)

ابن قتيبة :

الامامة والسياسة (القاهرة ٣٢٥ هـ) .
المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .

ابن كثير :

البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

كرد على :

الاسلام والحضارة العربية (دار الكتب المصرية ١٩٣٦) .

الماوردى :

الأحكام السلطانية (مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ) .

أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩) .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور :

قيام الدولة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٥٦) .
الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية (القاهرة) .

المسعودى :

مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة دار الرجاء بالقاهرة) .
التنبيه والاشراف (مكتبة الشرق الاسلامية ١٩٣٨) .

المقرى :

الجمان فى أخبار الزمان (مخطـــوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤١٢ تاريخ) .

المقريزى :

أمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفـدة والمتاع (القاهرة ١٩٤١) .

النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم .

الملطى :

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (القاهرة ١٩٤٩) .

ناصف : على النجدى :

ابن قيس الرقيات (القاهرة) .

النويرى :

نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب المصرية ١٩٣١) .

ابن هشام :

سيرة النبى (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .

ياقوت :

معجم البلدان (مطبعة السعادة ١٩٠٦) .

اليعقوبى :

تاريخ اليعقوبى (النجف ١٣٥٨ هـ) .

ثانيا : مصادر افرنجية مترجمة الى اللغة العربية

ارنولد :

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين (القاهرة ١٩٤٧) .

الخلافة ، ترجمة جميل معلى (دار اليقظة العربية ١٩٤٦) .

بارتولد :

تاريخ الحضـــــارة الاسلامية ، ترجمـــة حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢) .

بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى (بيروت ١٩٤٨) .

ترتون :

أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩) .

جوزى :

من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، ترجمة على حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .

دوزى :

نظرات فى الاسلام ترجمة كامل الكيلانى (الحلبى ١٩٣٣) .

ديمومبين :

النظم الاسلامية ترجمة صالح الشماع وفيصل الســامر (بغداد ١٩٥٢) .

دينيه :

محمــــد رسول الله ترجمــــة الدكتور عبــد الحليم محمود (القاهرة ١٩٥٩) .

سيد أمير على :

مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ترجمة رياض رأفت (لجنة التأليف ١٩٣٨) .

سيديو :

تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر (الحلبى ١٩٤٨) .

فان فلوتن :

السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أميــة ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وزكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

كريمر :

الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ترجمة الدكتور طه بدر (الفكر العربى بالقاهرة) .

لوبون :

حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر (الحلبى ١٩٤٨) .

مولاى محمد على :

محمد رسول الله ترجمة مصطفى فهمى (القاهرة ١٩٤٥) .

المودودى :

نظام الحياة فى الاسلام ترجمه من الأوردية محمــد عاصم حداد (دمشق ١٩٥٨) .

ثالثا : المصادر الافرنجيـة :

Browne : Literary History of Persia (London 1905).

Finaly : History of the Byzantine Empire (London 1856).

Gibb and Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam (Leiden 1953).

Hell : The Arab Civilization (Lahore 1943).

Khuda Bukhsh : Contributions to the History of Islamic Civilization (Calcotta 1930).

Kremer : The Orient Under the Caliphs, Translated by Khuda Buksh (Calcotta 1920).

Lammens : Etudes Sur le Règne du Calife Omaiyade Moawia 1er.

Etudes Sur la Siècle des Omayyades (Byrouth 1936).

Le Califat yazid 1er.

Lane- Poole (Stanly) : The Mohammadan Dynasties (Paris 1925).

Mawlana Mohamed Ali : Early Caliphate (Lahore 1932).

Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall (London 1924).

Nicholson : Literary History of the Arabs (London 1923).

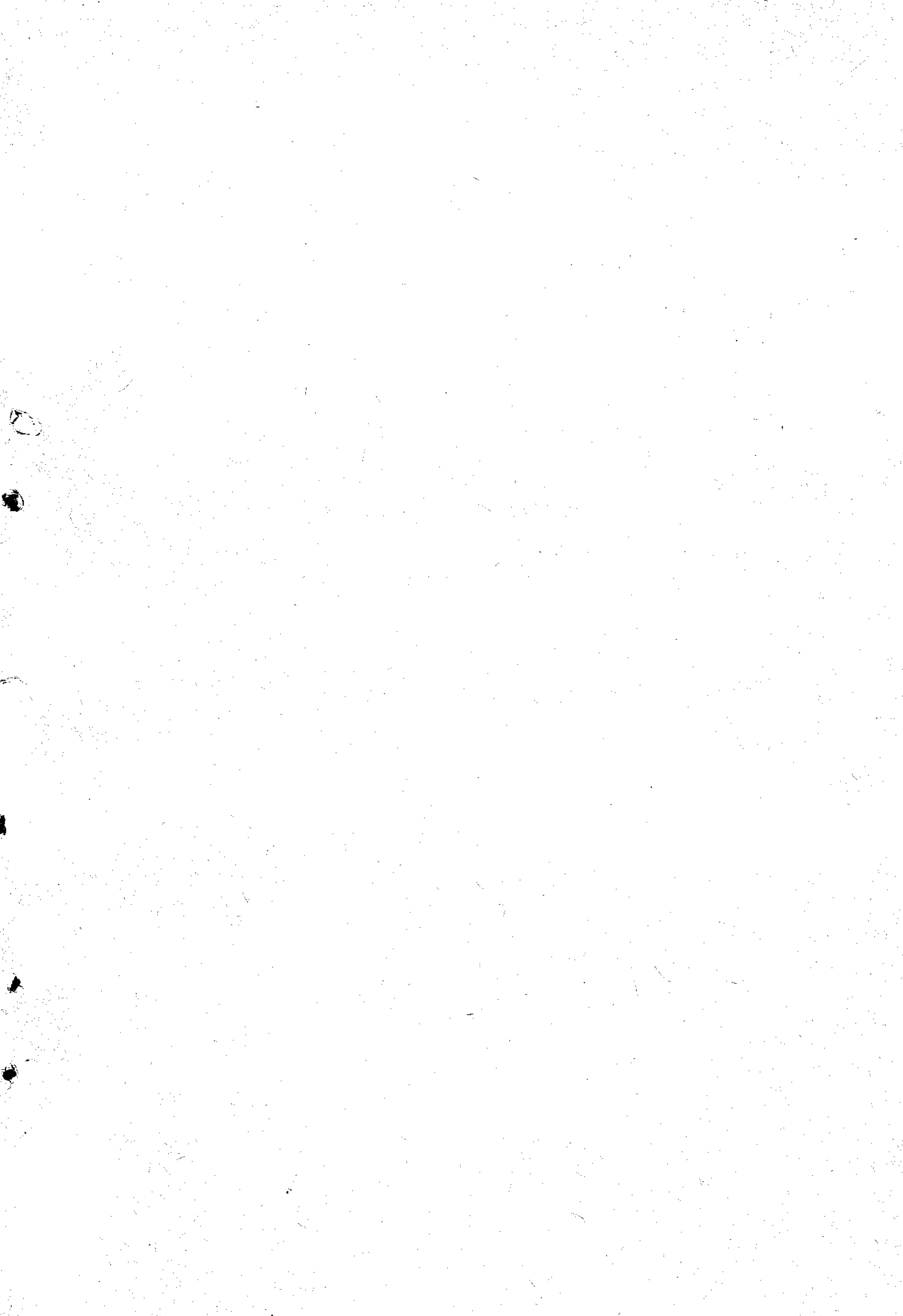
Ockly : The History of the Saracens (London 1974).

Quatremer : Mémoire Historique sur la Vie d'Abd Allah ben Zobair (Journal Asiatique 25 érie IX, Avril 1832).

Shedd : Islam and the Oriental Churches, (Philadelphia 1904).

Sykes : History of Persia (London 1021).

Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall, Translated From German by Margret Grahame weir (Calcotta 1927).



فهرس

رقم الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر